عظمة القرآن الكريم

أوصاف القرآن الكريم

من كلام الرحمن الرحيم

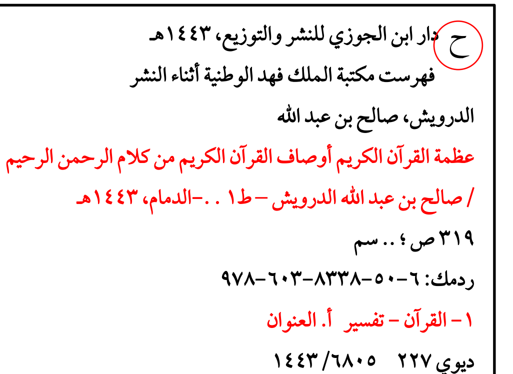


المملكة العربية السعودية
الدمام – حي الريان – شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ – ٨٤٦٧٥٩٣
٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
الرياض – ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء – ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة – ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت – ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة-تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

Aljawzi@hotmail.com
+٩٦٦٥٠٣٨٩٧٦٧١
Aljawzi
Aljawzi
Aljawzi.net
Ibnaljawzi.com


ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ
فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدرويش، صالح بن عبد الله
عظمة القرآن الكريم أوصاف القرآن الكريم من كلام الرحمن الرحيم
/ صالح بن عبد الله الدرويش – ط١ . . –الدمام، ١٤٤٣هـ
٣١٩ ص ؛ .. سم
ردمك: ٦-٥٠-٨٣٣٨-٦٠٣-٩٧٨
١ – القرآن – تفسير أ. العنوان
ديوي ٢٢٧ ٦٨٠٥/١٤٤٣

رقم الإيداع: ٦٨٠٥/ ١٤٤٣
ردمك: ٦-٥٠-٨٣٣٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
(١٤٤٣هـ)

الباركود الدولي: 9786038338506

سلسلة بينات من الذكر الحكيم ٢

عظمة القرآن الكريم

أوصاف القرآن الكريم

من كلام الرحمن الرحيم

تأليف

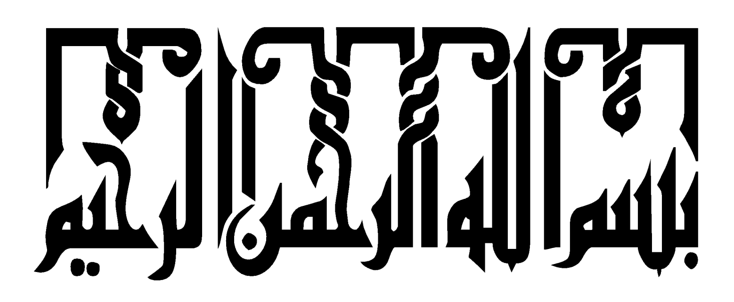
صالح بن عبد الله الدرويش

القاضي في محكمة استئناف مكة - سابقًا

تقديم الأستاذ الدكتور

الشيخ أحمد عيسى المعصراوي

شيخ عموم المقارئ المصرية


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الأستاذ الدكتور
الشيخ / أحمد عيسى المعصراوي
شيخ عموم المقارئ المصرية

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، أنزله بلسان عربيٍّ مبين، هدىً ورحمة للمتقين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فقد اقتضت رحمة الله بعباده إرسال الرسل، دعاة إلى الحق والعلم والهدى والنور، مبشرين ومنذرين، وأنزل عليهم الكتب تبيانًا لكل شيء، وإحقاقًا للحق وإزهاقًا للباطل.. فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، والله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير.

وكل ذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب، وقد ختم الله رسالاته بأفضل البشر محمد صلى الله عليه وسلم، أرسله مبشراً ونذيراً، وأنزل عليه كتابًا عربيًا مبينًا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وجعله تفصيلاً لكل شيء، وتبيانًا للحق، ورحمة للعالمين، وحجة وبرهانًا على الجاحدين.

فكان القرآن الشمس المشرقة، والنور الوضَّاء والصراط المستقيم، والمنهج القويم، فنظم للبشرية حياتها، ورسم طريقها، وهذّب أخلاقها بما اشتمل على كل ما تحتاجه البشرية في سعادتها، إذا هي سارت على هذا المنهج الرباني والدستور الإلهي.

ولقد وفق الله الأخ الفاضل الشيخ/ صالح بن عبد الله الدرويش في كتابه "عظمة القرآن في أوصافه.." حيث قام على دراسة وجمع الآيات التي تتعلق بأوصاف القرآن، من حيث إنه كلام الله المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فبيَّن فيه ما تحتويه هذه الآيات من عظمة هذا القرآن ومنزلته بين الكتب السماوية السابقة عليه، وأنه الكتاب المهيمن على كل الكتب، مستعيناً في كل ما ذكر بمختارات يسيرة من كلام المفسرين من مختلف المدارس، مع ترجيحه للمأثور منها، كما بيَّن المعاني اللغوية فيها بما يَبِين للقارئ المراد منها، كل ذلك بأسلوب مسلسل وواضح ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، بما يدفع القارئ إلى قراءته وتحصيل المراد منه.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل المبارك في ميزان حسنات صاحبه، وأن ينفع به المسلمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

وكتبه

أحمد المعصراوي

١١/ ٠٢/ ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة الأوقاف
مشيخة المقارئ المصرية
أ.د. أحمد عيسى المعصراوي
شيخ عموم المقارئ المصرية

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا. أنزله بلسان عربي مبين هدى ورحمة للمتقين. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد

فقد اقتضت حكمة الله لعباده إرسال الرسل دعاة إلى الحق والعلم والهدى والنور، مبشرين ومنذرين، وأنزل عليهم الكتب تبيانا لكل شيء وإحقاقا للحق وإزهاقا للباطل... فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها. والله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، كل ذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب.

وقد ختم الله رسالاته بأفضل البشر محمد صلى الله عليه وسلم أرسله مبشرا ونذيرا وأنزل عليه كتابا عربيا مبينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وجعله تفصيلا لكل شيء وتبيانا للحق، ورحمة للعالمين، وحجة وبرهانا على الجاحدين. فكان القرآن الشمس المشرقة والنور الوضاء والصراط المستقيم والمنهج القويم، فنظم للبشرية حياتها ورسم طريقها وهذب أخلاقها بما اشتمل على كل ما تحتاجه البشرية من سعادتها إذا هي سارت على هذا المنهج الرباني والدستور الإلهي.

ولقد وفق الله الأخ الفاضل الشيخ / صالح بن عبد الله الدرويش في كتابه عظمة القرآن في أوصافه... حيث قام على دراسة وجمع الآيات التي تتعلق بأوصاف القرآن من حيث إنه كلام الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فبين فيه ما تحتويه هذه الآيات من عظمة هذا القرآن ومنزلته بين الكتب السماوية السابقة عليه وأنه الكتاب المهيمن على كل الكتب، مستعينا في كل ما ذكر بمختارات يسيرة من كلام المفسرين من مختلف المدارس مع ترجيحه للأقوى منها، كما بين المعاني اللغوية فيها بما ييسر للقارئ المراد منها، كل ذلك بأسلوب سلس وواضح ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، بما يدفع القارئ إلى قراءته وتحصيل المراد منه.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل المبارك في ميزان حسنات صاحبه وأن ينفع به المسلمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه،

وكتبه
أحمد المعصراوي

أحمد عيسى المعصراوي

إهــداء

إلى كل من يؤمن بأن محمدًا ﷺ هو رسول الهدى، ويؤمن بأن معجزته هي القرآن الكريم، العزيز، المجيد...

وأخص منهم الذين يطلبون الخيرية في القرآن «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، ممن صبَّر نفسه في حلقات القرآن يلقِّن الصغار، ويعلِّم الكبار وما بينهما...

إلى النشء الذي جدَّ في طلب حفظ القرآن، وحرص أن يُلبِس والديه تاج الوقار حافظًا لكتاب الله...

إلى أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وسائر محبي القرآن من أمة محمد ﷺ...

إلى هؤلاء كلهم أهدي هذا الكتاب، فلا تنسوني من دعائكم

محبكم
صالح بن عبد الله الدرويش
مكة المكرمة

المقدمة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[الكهف:١-٢].

والصلاة والسلام على المصطفى المختار، إمام الأنبياء وسيد الأخيار، وعلى آله الأطهار وصحابته الكرام الأبرار، وبعد:

فإن من أعظم الاصطفاء اصطفاءُ الله تعالى لنبيه محمد ﷺ؛ بعثه الله تعالى في خير البلاد (مكة المكرمة)، واختار قومه من خير قبائل العرب (قريش)، واختار من قريش خيرهم (بني هاشم).

وهو ﷺ خير بني هاشم، بل هو خير الرسل، وخير بني آدم.

واختار الله ﷻ له صفوة الخلق بعد الأنبياء أصحابًا، فكان أصحابه الذين فازوا بشرف الصحبة، وفي مقدمتهم المؤمنون من قرابته ﭫ أجمعين.

وهذا الاصطفاء والاختيار لأجل أن هذه الرسالة هي آخر الرسالات ومسك ختامها، ولأجل هذا وتتميمًا لهذا الاصطفاء والاختيار فقد اختار الله ﷻ لهذه الرسالة ولهذا النبي الكريم خير الكتب، وهو القرآن العظيم.

أحبتي!

بُعث محمد ﷺ لأجل تبليغ هذا القرآن، وتلاوته على الناس، وتعليمه لهم، وشرح الغامض منه، وكذلك لبيان المجمل، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ

وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[البقرة:١٥١].

وقد اشتمل هذا القرآن على كل ما يحتاج إليه البشر في تحقيق سعادتهم الدنيوية والأخروية، ففيه بيان العقائد والغيبيات التي يجب الإيمان بها، وفيه بيان الأحكام والشرائع والآداب والأخلاق والحلال والحرام، وفيه أخبار الأمم الماضية وأخبار القيامة الآتية، وفيه ذكر الجزاء والحساب والثواب والعقاب، وفيه بيان أصناف الناس وأقسام البشر، وفيه الشفاء والخير والبركة، وفيه الهداية والنور والرحمة، وفيه العلم والحق والحكمة، وفيه الموعظة والذكرى والحياة، وفيه أجمل القصص وأحسن الحديث، وفيه ما لا يقدر على أن يأتي بمثله الخلقُ ولو اجتمعوا كلهم.

أحبتي الكرام!

في هذا الكتاب تجدون ما وصف الله به القرآن، وما جاء في بيان عظمة هذا القرآن، ومنزلة هذه الآيات العظيمة، فهو الكتاب العزيز، المهيمن، العلي، العربي، المبين، وهو القرآن العظيم، الكريم، المجيد، العجب.

فهذه وغيرها أوصاف وصف الله بها هذا الكتاب، وقد استقرأتُ فاستخرجت الآيات من كلام الله ﷻ، وبينت شيئًا يسيرًا من معانيها اللغوية، ومختارات من كلام المفسرين من مختلف المدارس، مع التركيز على تفاسير أهل الأثر الذين ورثوا هدي النبي ﷺ وعلمه، وبجَّلوه وعظموه، وأرجو أن تكون مختارات يسيرة مناسبة؛ لزيادة إيضاح المعاني ولطائف الكلام، كل ذلك في بيان تلك الأوصاف العظيمة التي وصف الله ﷻ بها كتابه.

ومعرفة هذه الأوصاف تعين قارئ القرآن على فهمه، وإدراك أبعاد دلالاته، وتزيده تعظيمًا للقرآن، وتعطي القارئ قدرة على التدبر والفهم واستحضار معاني القرآن، مع استشعار لذة التلاوة، وزيادة إيمانه، مما يورِّث محبة القرآن والتعلق به، ويفتح آفاق التعمق في فهم القرآن وتدبره.

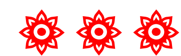
وكذلك في معرفة هذه الأوصاف تعزيز للحصانة العلمية القوية في مواجهة الشبهات حول القرآن العظيم، سواء تلك الشبهات التي انتشرت عند بعض فرق المسلمين مما يفقد القرآن عظمته وقدسيته، أو تلك الشبهات المنتشرة عند غير المسلمين في فهم كلام رب العالمين، بحيث يسهل عليه بعد معرفته لهذه الأوصاف أن يُبرِز عظمة هذا القرآن الذي هو معجزة الرسول الخاتم ﷺ.

وأصل هذا الكتاب هو أنه قد تجمع لدي عدة أوصاف في بيان عظمة القرآن، جمعتها من بعض الحوارات والمناقشات، وقد انبهر بعض السامعين لها، ثم أشار عليّ بعض الأحبة بجمعها وإخراجها، والكتاب عندي منذ مدة، وأنا أقلِّب فيه، وسبق الحديث في مقاطع صوتية منشورة، تحت هذا العنوان: (سلسلة أوصاف القرآن في كلام الرحمن).

ومن الإعجاز في القرآن الكريم أن كثيرًا من أوصافه لها أكثر من دلالة؛ فقمت بجمع كل الأوصاف المتقاربة تحت عنوان واحد؛ حتى لا يطول الكتاب، ولو تم تفريقها وسردها لوجدنا عشرات العناوين في الباب الواحد، كما لا يخفى أن من الإعجاز في القرآن فصاحة وبلاغة ألفاظه، وأن اللفظ الواحد له عدة معان ودلالات، ويصلح أن يحتج به في أكثر من باب وأكثر من

مسألة، لكني حرصت على عدم تكرارها؛ خشية الإطالة أيضًا، وهكذا بعض الألفاظ تكررت مرارًا في السياق القرآني، وفي آيات ومواضع متعددة، ولو تم سرد كل المواضع والآيات وشرحها لطال البحث جدًّا، فاكتفيت بذكر بعض الآيات التي يحصل بها المقصود، وتظهر الوصف المراد، وعدلت عن الاسترسال في ذكرها كلها؛ حتى لا يطول هذا الكتاب، وكذا تقليل تنصيصات العزو حتى لا تنقطع الأفكار وتتابعها.

أسأل الله ﷻ أن ينفع به، وأسأل الله ﷻ أن يتقبل مني ومنكم، ويعفو عني وعنكم.



مدخل وتمهيد

أنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ كلامه الذي تكلم به لفظًا ومعنىً، فكان هذا الكتاب الذي عرفناه باسم (القرآن)، ولعظمة هذا الوحي فإنه قد تعددت أسماؤه وأوصافه لتكون دالة على جوانب الكمال والعظمة فيه، ولبيان منزلته وشأنه الرفيع.

وقد اختلف العلماء فيما يمكن أن يكون اسمًا للقرآن، وما يمكن أن يكون وصفًا له، وأقوالهم في هذا متعددة، وأشهر ما عدَّه العلماء أسماءً للقرآن: (الكتاب، الذكر، الوحي، الفرقان، التنزيل، كلام الله)، واقتصر بعضهم على أربعة منها فقط، وأوصلها الرازي رحمه الله إلى أكثر من (٣٠) اسمًا، وأوصلها أبو الحسن التجيبي رحمه الله إلى أكثر من (٩٠) اسمًا، واختار الشيخ صالح البليهي رحمه الله أنها (٤٦) اسمًا، واختار ابن عاشور رحمه الله أن الاسم الوحيد له هو (القرآن)، والأقوال في هذا كثيرة[(١)].

ولا ينبني على هذا الخلاف كبير أثر، وذلك أن كل ما عدَّه العلماء اسمًا للقرآن هو متضمن لوصف مدح وكمال، فهو اسمٌ ووصفٌ في الوقت ذاته، ومن هنا لم ننشغل كثيرًا بتحرير خلاف العلماء في تحديد أسماء القرآن، إذ أن مقصود الكتاب بيان ما اشتمل عليه القرآن من ثناء ومدح للقرآن، فاعتبرنا

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٩٤)، تفسير الرازي (٢/ ٢٦٠-٢٦٥)، البرهان للزركشي (١/ ٢٧٣)، التحرير والتنوير (١/ ٧١)، الهدى والبيان في أسماء القرآن للبليهي (١/ ٤٧).

جميع الألفاظ الواردة أوصافًا للاسم الذي اتفق العلماء قاطبة على اعتباره اسمًا، وهو: (القرآن)، "فاسم القرآن هو الاسم الذي جُعِل علمًا على الوحي المنزل على محمد ﷺ، ولم يسبق أن أُطلِق على غيره قبله، وهو أشهر أسمائه، وأكثرها ورودًا في آياته، وأشهرها دورانًا على ألسنة السلف، وله أسماء أخرى هي في الأصل أوصاف أو أجناس"[1]، واسم "القرآن" هو أول ما نستفتح به هذا الكتاب، ولكن قبل ذلك أرى من الأهمية الحديث عن كون القرآن الكريم هو معجزة الرسول الخالدة، وكذا الحديث عن منهجية استخراج أوصاف القرآن من القرآن الكريم.

معجزة الرسول الخالدة:

قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[الإسراء:٨٨].

قال ابن عاشور رحمه الله: "ومعنى الاجتماع: الاتفاق واتحاد الرأي، أي لو تواردت عقول الإنس والجن على أن يأتي كل واحد منهم بمثل هذا القرآن لما أتوا بمثله، فهو اجتماع الرأي، لا اجتماع التعاون، كما تدل عليه المبالغة في قوله بعده: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

وذكر الجن مع الإنس لقصد التعميم، كما يقال: "لو اجتمع أهل السماوات والأرض"، وأيضًا لأن المتحدِّين بإعجاز القرآن كانوا يزعمون أن الجن يقدرون على الأعمال العظيمة.

والمراد بالمماثلة للقرآن: المماثلة في مجموع الفصاحة، والبلاغة،

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧١-٧٢).

والمعاني، والآداب، والشرائع، وهي نواحي إعجاز القرآن اللفظي والعلمي.

والظهير: المعين، والمعنى: ولو تعاون الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله، فكيف بهم إذا حاولوا ذلك متفرقين؟!"[١].

وقال ابن عطية رحمه الله: "والعجز في معارضة القرآن إنما وقع في النظم والرصف لمعانيه، وعلة ذلك الإحاطة التي لا يتصف بها إلا الله ﷻ، والبشر مقصِّر ضرورة بالجهل والنسيان والغفلة وأنواع النقص، فإذا نَظَمَ كلمةً خفي عنه - للعلل التي ذكرنا- أليق الكلام بها في المعنى، وفهمت العرب بخلوص فهمها في ميز الكلام ودربتها به ما لا نفهمه نحن، ولا كل من خالطته حضارة، ففهموا العجز عنه ضرورة ومشاهدة، وعلمه الناس بعدهم استدلالًا ونظرًا، ولكلٍّ حَصَل علم قطعي، لكن ليس في مرتبة واحدة، وهذا كما علمت الصحابة شرع النبي وأعماله مشاهدة علم ضرورة وعلمنا نحن المتواتر من ذلك بنقل التواتر، فحصل للجميع القطع، لكن في مرتبتين، وفهم إعجاز القرآن أرباب الفصاحة الذين لهم غرائب في ميز الكلام، ألا ترى إلى قول الأعرابي: "عز فحكم فقطع"، وألا ترى إلى استدلال الآخر على البعث بقوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾[التكاثر:٢] فقال: إن الزيارة تقتضي الانصراف، ومنه قول الأعرابي للأصمعي: مَن أحوج الكريم إلى أن يقسم؟ ومن فهمهم أنهم ببدائههم يأتون بكلمة منثورة تفضل المنقَّح من الشعر، وأمثلة ذلك محفوظة، ومن ذلك أجوبتهم المسكتة إلى غير ذلك من براعتهم في الفصاحة، وكونهم فيها النهاية، كما كان السحر في زمن موسى، والطب في

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٣) مختصرًا.

زمن عيسى، عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، فهم مع هذه الأفهام أقروا بالعجز، ولجأ المحادُّ منهم إلى السيف، ورضي بالقتل والسبا وكشف الحرم، وهو كان يجد المندوحة عن ذلك بالمعارضة"[(١)].

وقال السعدي رحمه الله: " وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه، أن يعارض كلام رب الأرض والسماوات، المطلع على سائر الخفيات، الذي له الكمال المطلق، والحمد المطلق، والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادًا، والأشجار كلها أقلام، لنفد المداد، وفنيت الأقلام، ولم تنفد كلمات الله.

فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلًا لله في أوصافه؛ فكلامه من أوصافه التي لا يماثله فيها أحد، فليس كمثله شيء، في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله تبارك وتعالى.

فتبًّا لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم افتراه على الله واختلقه من نفسه"[(٢)].

وقد تحدى الله تعالى المشركين أن يأتوا بما يعارض هذا القرآن، فتحداهم أن يأتوا بأي كتاب، ثم تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم تحداهم أن يأتوا ولو بسورة من مثله. قال الرازي رحمه الله: "اعلم أن التحدي بالقرآن جاء على وجوه: أحدها: قوله:

---

(١) تفسير ابن عطية (٣/ ٤٨٣) مختصرًا.

(٢) تفسير السعدي (ص:٤٦٦).

﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ﴾[القصص:٤٩]. وثانيها: قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[الإسراء:٨٨]. وثالثها: قوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[هود:١٣]. ورابعها: قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[البقرة٢٣]، ونظير هذا كمن يتحدى صاحبه بتصنيفه فيقول: ائتني بمثله، ائتني بنصفه، ائتني بربعه، ائتني بمسألة منه، فإن هذا هو النهاية في التحدي وإزالة العذر"[(١)].

وقال ابن عاشور ﷺ: "وإنما كان التحدي بسورة، ولم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن؛ لأن من جملة وجوه الإعجاز أمورًا لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفٍ في غرض من الأغراض، وإنما تنزل سور القرآن في أغراض مقصودة، فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام، وصحة التقسيم، ونكت الإجمال والتفصيل، وأحكام الانتقال من فن إلى آخر من فنون الغرض، ومناسبات الاستطراد والاعتراض والخروج والرجوع، وفصل الجمل ووصلها، والإيجاز والإطناب، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام، وتلك لا تظهر مطابقتها جلية إلا إذا تم الكلام واستوفى الغرض حقه، فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجاز يفوت قدرة البشر، هو غير الإعجاز الذي لجمله وتراكيبه وفصاحة ألفاظه؛ فكانت السورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب وقصيدة الشاعر لا يحكم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها. قال الطيبي في

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٣٤٩).

حاشية الكشاف عند قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ في سورة الأنفال، الآية (١٧): "ولسر النظم القرآني كان التحدي بالسورة، وإن كانت قصيرة دون الآيات، وإن كانت ذوات عدد". والتنكير[١] للإفراد أو النوعية، أي بسورة واحدة من نوع السور وذلك صادق بأقل سورة ترجمت باسم يخصها، وأقل السور عددَ آياتٍ: سورةُ الكوثر، وقد كان المشركون بالمدينة تبعًا للمشركين بمكة، وكان نزول هذه السورة في أول العهد بالهجرة إلى المدينة؛ فكان المشركون كلهم ألبًا على النبي ﷺ يتداولون الإغراء بتكذيبه وصد الناس عن اتباعه، فأعيد لهم التحدي بإعجاز القرآن الذي كان قد سبق تحديهم به في سورة يونس، وسورة هود، وسورة الإسراء"[٢].

من خصائص المعجزة الخالدة:

من أظهر الآيات التي تدل على قوة إعجاز القرآن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[العنكبوت:٥١]. قال الرازي رحمه الله: "قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية؛ وذلك لأن القائل إذا قال: أما يكفي للمسيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام، ينبئ عن أن ترك الضرب في حقه كثير، فكذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه:

أحدها: أن تلك المعجزات وجدت وما دامت، فإن قلب العصا ثعبانًا،

---

(١) أي: تنكير كلمة (سورة) في الآية.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).

وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر، وأما القرآن فهو باقٍ، لو أنكره واحد فنقول له: فأت بآية من مثله.

الثاني: هو أن قلب العصا ثعبانًا كان في مكان واحد، ولم يره من لم يكن في ذلك المكان، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد.

الثالث: هو أن غير هذه المعجزة؛ الكافر المعاند يقول: إنه سحر عُمِل بدواء، والقرآن لا يمكن هذا القول فيه.

ثم إنه تعالى قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ إشارة إلى أنا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق، وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق في ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب. وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى أنه معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون، ما بقي الزمان.

ثم قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ يعني: هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين؛ لأن المعجزة كانت غضبًا على الكافرين؛ لأنها قطعت أعذارهم، وعطلت إنكارهم"[(١)].

وزاد ابن عاشور الأمر توضيحًا فقال: "الاستفهام تعجيبي إنكاري. والمعنى: وهل لا يكفيهم من الآيات آيات القرآن؟! فإن كل مقدار من مقادير إعجازه آية على صدق الرسول ﷺ، فإن آيات القرآن زهاء ستة آلاف آية، ومقدار كل ثلاث آيات مقدارٌ معجز، فيحصل من القرآن مقدار ألفي

(١) تفسير الرازي (٢٥/ ٦٥-٦٦) مختصرًا.

معجزة، وذلك لم يحصل لأحد من رسل الله.

و(الكتاب): القرآن، وعدل عن لفظ (القرآن) الذي هو كالعَلَم عليه إلى لفظ (الكتاب) المعهود؛ لإيمائه إلى معنى تعظيمه بأنه المشتهر من بين كتب الأنبياء.

وجملة: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ مستأنفة أو حال؛ لأن الكتاب معلوم غير محتاج للوصف لما تشعر به مادة التلاوة من الانتشار والشيوع، واختير المضارع دون الوصف بأن يقال: متلوًّا عليهم، لما يؤذن به المضارع من الاستمرار، فحصل من مادة (يتلى) ومن صيغة المضارع دلالة على عموم الأمكنة والأزمنة.

وقد أشار قوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وما بعده إلى خمس مزايا للقرآن على غيره من المعجزات.

المزية الأولى: ما أشار إليه قوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من انتشار إعجازه وعمومه في المجامع والآفاق والأزمان المختلفة، بحيث لا يختص بإدراك إعجازه فريق خاص في زمن خاص، شأن المعجزات المشهودة مثل: عصا موسى، وناقة صالح، وبرء الأكمه، فهو يتلى، ومن ضمن تلاوته: الآيات التي تحدَّت الناس بمعارضته، وسجَّلت عليهم عجزهم عن المعارضة من قبل محاولتهم إياها فكان كما قال، فهو معجزة باقية والمعجزات الأخرى معجزات زائلة.

المزية الثانية: كونه مما يتلى، فإن ذلك أرفع من كون المعجزات الأخرى أحوالًا مرئية؛ لأن إدراك المتلو إدراك عقلي فكري، وهو أعلى من

المدركات الحسية، فكانت معجزة القرآن أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيأت إليها الإنسانية.

المزية الثالثة: ما أشار إليه قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ فإنها واردة مورد التعليل؛ للتعجيب من عدم اكتفائهم بالكتاب، وتنكير (رحمة) للتعظيم، أي: لا يقادَر قدرها، فالكتاب المتلو مشتمل على ما هو رحمة لهم اشتمال الظرف على المظروف؛ لأنه يشتمل على إقامة الشريعة وهي رحمة وصلاح للناس في دنياهم، فالقرآن مع كونه معجزة دالة على صدق الرسول ﷺ ومرشدة إلى تصديقه مثل غيره من المعجزات، وهو أيضًا وسيلة علم وتشريع وآداب للمتلو عليهم، وبذلك فضل غيره من المعجزات التي لا تفيد إلا تصديق الرسول الآتي بها.

المزية الرابعة: ما أشار إليه قوله: (وذكرى) فإن القرآن مشتمل على مواعظ، ونُذُر، وتعريف بعواقب الأعمال، وإعداد إلى الحياة الثانية، ونحو ذلك مما هو تذكير بما في تذكره خير الدارين، وبذلك فضل غيره من المعجزات الصامتة التي لا تفيد أزيد من كون الآتية على يديه صادقًا.

المزية الخامسة: أن كون القرآن كتابًا متلوًّا مستطاعًا إدراك خصائصه لكل عربي، ولكل من حذق العربية من غير العرب، يبعده عن مشابهة نفثات السحرة والطلاسم، فلا يستطيع طاعن أن يزعم أنه تخيلات، كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾[الزخرف:٤٩] وقال تعالى حكاية عن المشركين حين رأوا معجزة انشقاق القمر: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ٢﴾[القمر:٢]، فذلك القول صدر عنهم في معجزة مرئية.

وعلق بالرحمة والذكرى قوله: ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾ للإشارة إلى أن تلك منافع من القرآن زائدة على ما في المعجزات الأخرى من المنفعة، التي هي منفعة الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، فهذه مزايا عظيمة لمعجزة القرآن، حاصلة في حضرة الرسول ﷺ وغيبته، ومستقلة عن الحاجة إلى بيانه وتكميله بالدعوة وبتكريرها.

واستحضار المؤمنين بعنوان: (قوم يؤمنون) دون أن يقال: للمؤمنين، لما في لفظ قوم من الإيماء إلى أن الإيمان من مقومات قوميتهم، أي: لقوم شعارهم (أن يؤمنوا)، يعني: لقوم شعارهم النظر والإنصاف؛ فإذا قامت لهم دلائل الإيمان آمنوا، ولم يكابروا ظلمًا وعلوًّا، وفيه تعريض بالذين لم يكتفوا بمعجزته، واقترحوا آيات أخرى لا نسبة بينه وبينها"[1].

وقال السعدي ﵀: "لما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به ﴿أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرده وهو أمي، من أكبر الآيات على صدقه، ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه إياهم آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهرًا علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قلَّ فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يُخْفِه، ولم يُثْنِ ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/ ١٤-١٦) مختصرًا.

يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟ ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع، ثم هيمنته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونَفْيُ ما أُدْخِل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل: (ليته لم يأمر به)، ولا نهى عن شيء فقال العقل: (ليته لم ينه عنه)، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسايرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان؛ بحيث لا تصلح الأمور إلا به.

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له، فلذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾، وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية"[(١)].

المنهجية المتبعة في استخراج أوصاف القرآن من القرآن:

لقد قمت باستنباط واستخراج أسماء القرآن الكريم وأوصافه معتمدًا طريق المنهج الاستقرائي والتتبع الكامل للسياق القرآني المتضمن لهذه الأسماء والأوصاف، وذلك من خلال النظر والتأمل والتفكر في عدة جوانب شملت أسماء هذا الكتاب العظيم وأوصافه الدالة على علو منزلته ومكانته

(١) تفسير السعدي (ص:٦٣٣-٦٣٤).

وفضله، حيث يحتوي كل جانب منها على عدد من الأوصاف التي وصفه الله سبحانه وتعالى بها.

فمن خلال النظر إلى ماهيته وحده وتعريفه، يتضح لنا اسم العلم الدال عليه وهو القرآن، المشتق من القراءة، فهو الكتاب الذي يقرأ ويتعبد الناس بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار.

ومن خلال التأمل فيما يدل عليه من العلم والحق الذي لا شك فيه ولا ريب، وأنه وحي منزل من عند الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[فصلت:٤٢]، سالم من التناقض والاختلاف كما قال عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء:٨٢]، وكذلك ما تضمنه من الأنباء والحكمة، نجد الأوصاف التي وُصف بها في هذه الدلالة، فهو الكتاب الذي جمع أنواع العلوم والأخبار والأحكام، وهو الوحي، وهو الحق، وهو المصدق لما بين يديه من الكتب، وهو الحكيم المليء حكمة، العِلْم الواسع علمًا، والبصائر، والنبأ الذي فيه نبأ الأولين والآخرين.

وإذا نظرنا إلى دَور القرآن في صلاح البشرية واستقامتها، وهدايتها وإرشادها إلى أقوم السبل وأهدى الطرق، وإلى صراط الله المستقيم، نجد الأوصاف المتعلقة بهذا الجانب، فهو الهدى الدال إلى الحق، وهو الذكر والتذكرة، الذي ذكر الله به عباده ونبههم به من الغفلة، وأحيا قلوبهم به، وهو النذير للعالمين، والموعظة المشتمل على المواعظ التي تلين القلوب، وتسوق المؤمن إلى سبل الخير والرشاد، وهو النور الذي يضيء طريق

الناس ودروبهم في هذه الحياة، وهو الفرقان الذي فرق بين الحق والباطل، فأحق الحق وأبطل الباطل ودحض حجج أهله، وهو الروح الذي به تحيا القلوب والأجساد.

وأما إذا نظرنا إلى جانب فصاحة القرآن وبلاغته وحسن بيانه وبديع تراكيبه، ودقة عباراته وتوصيفه، فذلك هو جانب الإعجاز القرآني اللغوي الذي خضع واستسلم له أرباب الفصاحة والبلاغة والمنطق والشعر والبيان من أهل اللسان العربي، مع أنه بلسانهم ولغتهم، كما قال سبحانه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[الشعراء:١٩٥]، لكنه في أعلى درجات البيان والفصاحة والمنطق، فنجد في هذا الباب أوصاف القرآن التي تبين ذلك وتُظهِر هذه المعاني فيه، فهو العربي المبين الذي أبان للناس كل حقيقة وفضح كل زيف، وهو كلام الله وكلمات الله التامة صدقًا وعدلًا، المنزه عن التبديل والتغيير، وعظمة الكلام مستمَدَّة من عظمة قائله، وهو الله العلي العظيم، وهو المفصَّل الذي فُصِّل على علم وهدى ورحمة، وفُصِّلت آياته أدق تفصيل وبُيِّنت أجمل تبيين، وهو أحسن الحديث متشابهًا ومثاني تلين له القلوب والأرواح، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزمر:٢٣]، وهو أحسن القصص، وهو البلاغ الذي فيه الكفاية والبُلغة التي توصل الناس إلى خالقهم سبحانه.

وأما إذا وقفنا على جانب كثرة خيرية القرآن وبركته وفضله، فإنه هو الخير كله، المبارك في ذاته وفي أثره، وهو الرحمة العامة لجميع الخلق، والرحمة الخاصة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، وهو البشير الذي بشر المؤمنين بالنصر والتمكين والثواب العظيم، وهو شفاء القلوب والأرواح،

الكريم الجامع لكل المكارم وصفات المدح.

ومن خلال النظر والتأمل في عظمته وقوته وهيمنته، تتضح أوصاف عظمة هذا القرآن وقوة تأثيره في النفوس والقلوب، وقوة حججه وبراهينه التي خضعت وأذعنت لها العقول، فهو العظيم في كل الجوانب، في الأسلوب والتركيب والحكمة والأمر والنهي، وهو المجيد ذو الشرف الكامل الرفيع، العزيز الغالب بالحجة والبيان، العلي الذي يعلو ولا يعلى عليه، المهيمن الحاكم على كل الكتب قبله، فهو الحق، وما خالفه الباطل.

وقد بينت -بفضل الله- عند كل وصف سبب التسمية به، ومواضع وروده، ودلالاته، وبيان معاني بعض الآيات التي تضمنت هذه الأوصاف، وما فيها من اللطائف والإشارات والفوائد، التي تبين عظمة هذا الكتاب وفضله، وصلاحيته لكل زمان ومكان.





١- قــال تعــالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء:٨٢].

٢- قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[يونس:٣٧].

٣- قال تعالى: ﴿ صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾[ص:١].

٤- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾[القمر:١٧].

٥- قــال تعــالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الحشر:٢١].

معنى الوصف:

ورد اسم (القرآن) في القرآن في قرابة (٦٧) موضعًا، من هـذه المواضـع ما هو بـ(ال) التعريفية، وهذا هو الأعم الأغلب، وذلك في (٥٠) موضعًا، وورد بصيغة التنكير في بقية المواضع.

وكلمة (قرآن) هي في الأصل مصدر على وزن فُعلان بالضم، كالغفران والشكران والتكلان. تقول: قرأته قَرْءًا وقِرَاءةً وقُرْآنًا بمعنى واحد(١).

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٦٦٨)، لسان العرب (١/ ١٢٨)، النبأ العظيم (ص:٤١).

سبب تسمية القرآن بـ(القرآن):

وقع الخلاف بين العلماء في سبب تسميته بهذا الاسم:

- فقيل: هو من القراءة بمعنى التلاوة، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وعليه فقد سمي القرآن بذلك؛ لكونه يُتلى ويُقرأ.

- وقيل: هو من قرأ الشيء إذا جمعه وضمه، وهذا قول قتادة رحمه الله، وعليه فقد سمي القرآن بذلك لكونه يضم السور ويجمعها، وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: سمي القرآن قرآنًا لأن الحروف جُمعت فصارت كلمات، والكلمات جُمعت فصارت آيات، والآيات جُمعت فصارت سورًا، والسور جُمعت فصارت قرآنًا، ثم جُمع فيه علوم الأولين والآخرين.

- وقيل: هو من القرائن، وهو قول الفراء رحمه الله، وعليه فقد سمي القرآن قرآنًا؛ لأن آياته يصدِّق بعضها بعضًا، وهي قرائن[(١)].

وكل هذه المعاني صحيحة وثابتة للقرآن، فهو الكتاب المقروء المتلو إلى أن يأذن الله تعالى برفعه، وهو الذي يصدِّق بعضه بعضًا، ويؤكّد بعضه بعضًا، وهو الذي جمع الآيات والسور، وجمع العلوم والمعارف، وجمع ثمار الكتب السابقة، قال الراغب رحمه الله: "لا يقال لكل جمع قرآن، ولا لجمع كل كلام قرآن، وإنما سمي قرآنًا لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة"[(٢)].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٩٠-٩١)، تفسير الرازي (٢/ ٢٦٠)، الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٨٢).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٨٢).

والقرآن في اصطلاح أهل السنة والجماعة: هو كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر، المكتوب في المصاحف، من أول سورة "الفاتحة" إلى آخر سورة "الناس"[(١)].

بيان الآيات:

١- قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾[النساء:٨٢].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ "يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك"[(٢)].

قال ابن عاشور رحمه الله: "وذلك يحتمل معنيين: أحدهما: أن يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي: تدبر تفاصيله، وثانيهما: أن يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق"[(٣)].

وقال السعدي رحمه الله: "ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله؛ لأنه يراه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضًا، فبذلك يُعلَم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص:٢١).
(٢) تفسير السعدي (ص:١٨٩-١٩٠).
(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧).

﴿كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء:٨٢] أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلًا"[١].

ومن معاني الاختلاف المنفي: الاختلاف في درجة البلاغة والفصاحة، فتجد أن القرآن من أوله إلى آخره على نفس الدرجة من الفصاحة والبلاغة، على خلاف عادة البشر الذين إذا كتب الواحد منهم كتابًا طويلًا فإنه يظهر فيه الركاكة والضعف في مواضع، ولو كان هذا الكاتب على أعلى درجات البلاغة[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾[يونس:٣٧].

قال ابن جرير رحمه الله: "يقول لهم جل ثناؤه: ما كان هذا القرآن ليختلقه أحدٌ من عند غير الله؛ لأن ذلك لا يقدر عليه أحدٌ من الخلق، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[يونس:٣٧]، أي: يقول تعالى ذكره: ولكنه من عند الله أنزله مصدِّقًا لما بين يديه، أي: لما قبله من الكتب التي أنزلت على أنبياء الله، كالتوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[يونس:٣٧]، يقول: وتبيان الكتاب الذي كتبه الله على أمة محمد ﷺ، وفرائضه التي فرضها عليهم في السابق من علمه، يقول: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[يونس:٣٧] لا شك فيه أنه تصديق الذي بين يديه من الكتاب، وتفصيل الكتاب من عند رب العالمين، لا افتراءٌ من عند غيره ولا اختلاق"[٣].

---

(١) تفسير السعدي (ص:١٩٠).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (١٠/ ١٥٢).

(٣) تفسير الطبري (١٥/ ٩٠-٩١).

٣- قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾[ص:١]

قال ابن عاشور رحمه الله: "الواو للقسم، أقسم بالقرآن قسم تنويه به، ووُصِف بـ ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾؛ لأن (ذي) تضاف إلى الأشياء الرفيعة، فتجري على متصفٍ مقصودٍ التنويه به.

و(الذكر): التذكير، أي: تذكير الناس بما هم عنه غافلون، ويجوز أن يراد بالذكر ذكر اللسان، وهو على معنى: الذي يُذْكَر، أي: والقرآن المذكور، أي: الممدوح المستحق الثناء على أحد التفسيرين في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾[الأنبياء:١٠] أي: شرفكم"(١).

وقال السعدي رحمه الله: "أي: ذي القدر العظيم والشرف، المُذَكِّرِ للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكِّر لهم في أصول دينهم وفروعه.

فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم ضرورة العباد إليه، فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تَلَقِّيه بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه"(٢).

٤- قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾[القمر:١٧].

قال الرازي رحمه الله: "وفيه وجوه:

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٠٣).

(٢) تفسير السعدي (ص:٧٠٩) مختصرًا.

الأول: للحفظ، فيمكن حفظه ويسهل، ولم يكن شيء من كتب الله تعالى يحفظ على ظهر القلب غير القرآن، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: هل من يحفظ ويتلوه.

الثاني: سهلناه للاتعاظ، حيث أتينا فيه بكل حكمة.

الثالث: جعلناه بحيث يعلق بالقلوب ويستلذ سماعه، ومن لا يفهم يتفهمه، ولا يسأم من سمعه وفهمه، ولا يقول: قد علمت فلا أسمعه، بل كل ساعة يزداد منه لذة وعلمًا.

الرابع -وهو الأظهر-: أن النبي ﷺ لما ذكّر بحال نوح عليه السلام وكان له معجزة قيل له: إن معجزتك القرآن، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ تذكرة لكل أحد، وتتحدى به في العالم، ويبقى على مرور الدهور، ولا يحتاج كل من يحضرك إلى دعاء ومسألة في إظهار معجزة، وبعدك لا ينكر أحد وقوع ما وقع كما ينكر البعض انشقاق القمر"(١).

قال ابن كثير رحمه الله: "قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني: هوَّنَّا قراءته، وقال السدي: يسَّرنا تلاوته على الألسن، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل.

قلت: ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن: ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف»(٢).

---

(١) تفسير الرازي (٢٩/ ٣٠٠) مختصرًا.

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٧٨).

وقال السعدي رحمه الله: "﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنه أحسن الكلام لفظًا، وأصدقه معنىً، وأبينه تفسيرًا، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعِبر، والعقائد النافعة، والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن -حفظًا وتفسيرًا- أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أُعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾"[1].

وقال ابن عاشور رحمه الله: "هذا التيسير ينبئ بعناية الله به، مثل قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾[الحجر:٩] تبصرة للمسلمين؛ ليزدادوا إقبالًا على مدارسته، وتعريضًا بالمشركين عسى أن يرعووا عن صدودهم عنه، واليُسر: السهولة، وعدم الكلفة في تحصيل المطلوب من شيء، وإذ كان القرآن كلامًا فمعنى تيسيره يرجع إلى تيسير ما يراد من الكلام، وهو فهم السامع المعاني التي عناها المتكلم به، بدون كلفة على السامع ولا إغلاق، كما يقولون: يدخل للأذن بلا إذن.

وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني:

فأما من جانب الألفاظ: فذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات،

(١) تفسير السعدي (ص:٨٢٥-٨٢٦).

وفصاحة التراكيب، أي: فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث يخف حفظها على الألسنة.

وأما من جانب المعاني: فبوضوح انتزاعها من التراكيب، ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له، وبتولد معان من معان أُخر، كلما كرر المتدبر تدبره في فهمها"(١).

٥- قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الحشر:٢١].

قال ابن كثير رحمه الله: "يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن، ومبينًا علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه؛ لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾"(٢).

قال ابن عاشور رحمه الله: "والخشوع: التطأطؤ والركوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض، والتصدع: التشقق، أي: لتزلزل وتشقق من خوفه اللهَ تعالى"(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٨) مختصرًا.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٧٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ١١٧).

دلالات اسم (القرآن):

- أن تسمية الله تعالى لكتابه بهذا الاسم (القرآن) فيه إشارة إلى أهمية قراءة القرآن، وأنه كتاب أنزله الله تعالى ليُتلى ويُقرأ آناء الليل والنهار.

- أن القرآن جمع ما لم يجمعه كتاب آخر -باعتبار أنه من قرأ الشيء إذا جمعه وضمه-، ففيه الخير والهدى والسداد والرشاد والعلم والمعرفة، فمن أراد خلاصة العلم النافع وثمرته فعليه بالقرآن.

- جمعُ القرآن بين العظمة والفصاحة والعلم والتحدي والإعجاز، وبين السهولة واليسر للناس مظهر من مظاهر عظمته وإعجازه، وأما غير القرآن فإما أن يكون كتاب علم وفصاحة فلا يقدر عليه عامة الناس، أو يكون كتابًا سهلًا ميسورًا ليس فيه كثير علم وفصاحة.

- أن تكرار الإشارة للقرآن بالقرب في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيه تعظيم للقرآن، وكأن الله تعالى يقول لعباده: هذا القرآن الذي بين أيديكم - هو الذي أعنيه، وليس كتابًا آخر- أكثروا من النظر فيه قراءةً، وحفظًا، ثم فهمًا، وهذا باعتبار أن القرآن مأخوذ من القراءة بمعنى التلاوة.





المبحث الأول

أوصاف القرآن الدالة على العلم والصدق والثبوت



وفيه الأوصاف التالية:

الوصف الأول: **الكتاب**

الوصف الثاني: **الآيات**

الوصف الثالث: **الوحي**

الوصف الرابع: **الحق**

الوصف الخامس: **المصدِّق**

الوصف السادس: **الحكيم**

الوصف السابع: **العلم**

الوصف الثامن: **البصائر**

الوصف التاسع: **النبأ**

الوصف العاشر: **التنزيل**

الوصف الحادي عشر: **المسطور**

الوصف الثاني عشر: **العَجَب**

الوصف الثالث عشر: **الشاهد**

تمهيد

القرآن الكريم معجزة رسول الله ﷺ، وهو مع الرسول قرين، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فهو معجزته الخالدة، والرسول ﷺ هو الذي بلغه.

والقرآن:

أنزل الله ﷻ القرآن منجمًا؛ لفوائد كثيرة، والله ﷻ جعل هذه المعجزة باقية حتى يأذن تعالى برفعها، وقد جاءت آيات متفرقة بأساليب مختلفة، لتأكيد هذه الحقيقة، وتأصيل عقيدة أن القرآن كلام الله، ومعجزة الرسول ﷺ، وأنه حق من الله تعالى، وأنه وحي منه سبحانه، أنزله على نبيه ﷺ، فوصفه بأنه آيات، وبأنه الوحي، والحق، والصدق، والعلم الذي لا يمكن لبشر أن يأتي بمثله، وكلها أوصاف تدلنا على أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى حقًّا وصدقًا.

وهذه جملة من الأوصاف التي تدل على هذه المعاني.



الوصف الأول
الكتـــاب

١- قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾[البقرة:٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾[النساء:١١٣].

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾[فاطر:٢٩].

معنى الوصف:

ورد وصف القرآن بـ(الكتاب) في قرابة (٦٤) موضعًا من القرآن.

ومادة (كتب) تدل على جمع شيء إلى شيء، ومنه سمي الكتاب: كتابًا؛ لجمعه الحروف والكلمات، وسميت الكتيبة لاجتماعها، وهكذا[١].

سبب وصف القرآن بـ(الكتاب):

تسمية القرآن بـ (الكتاب) جاءت على معنى الاجتماع والضم؛ فقيل: سمّى كتابًا لما جُمع فيه من القصص، والأَمر والنَّهي، والأَمثال، والشرائع، والمواعظ، وأنواع العلوم والأخبار والأحكام.

وقيل: لأَنه جُمع فيه مقاصد الكتب المنزلة على سائر الأَنبياء.

وقيل: لأنه قد اشتمل على سور وآيات وحروف وكلمات[٢].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ١٥٨)، المفردات في غريب القرآن (ص:٦٩٩).

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز (٤/ ٣٢٩)، الهدى والبيان في أسماء القرآن (١/ ١٧٨)، تفسير الرازي (٢/ ٢٦٠)، زاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٧).

وقيل: لأنه كالكتيبة على عساكر الشبهات، أو لأن الله تعالى ألزم فيه التكاليف على الخلق[١].

وكل هذه المعاني صحيحة، فالقرآن قد جمع هذا كله.

والتعبير بـ(الكتاب) معرفًا مع أن الكتب السابقة تسمى أيضًا كتبًا إشارة إلى تقدم هذا الكتاب على ما قبله، و"إيذانًا بكمال تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كمالات الجنس، كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه"[٢].

لطيفة في اسمي (القرآن) و(الكتاب):

قد يتساءل متسائل: إذا كان القرآن بمعنى الجمع، والكتاب بمعنى الجمع كذلك، فما الفرق بينهما؟ ولماذا جمع هذان الاسمان للقرآن؟

يقول العلامة دراز ﷺ: "روعي في تسميته قرآنًا كونه متلوًّا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابًا كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا، أن تَضِلَّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى؛ فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٢٦٠).

(٢) تفسير القاسمي (٢/ ٢٥٤).

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز، إنجازًا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[الحجر:٩]، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس؛ فقال تعالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾[المائدة:٤٤] أي: بما طلب إليهم حفظه"[١].

بيان الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة:٢].

وهذه أول الآيات في القرآن، فيكون أول وصف واسم للقرآن ورد في المصحف هو اسم (الكتاب).

والإشارة باسم الإشارة البعيد (ذلك)؛ "لإظهار رفعة شأن هذا القرآن؛ لجعله بعيد المنزلة، وقد شاع في الكلام البليغ تمثيل الأمر الشريف بالشيء المرفوع في عزة المنال؛ لأن الشيء النفيس عزيز على أهله، فمن العادة أن يجعلوه في المرتفعات، صونًا له عن الدُّروس، وتناول كثرة الأيدي والابتذال، فالكتاب هنا لما ذكر في مقام التحدي بمعارضته بما دلت عليه حروف التهجي في ﴿الٓمٓ ۝١﴾ كان كالشيء العزيز المنال بالنسبة إلى تناولهم إياه بالمعارضة، أو لأنه لصدق معانيه ونفع إرشاده بعيد عمن

---

(١) النبأ العظيم (ص:٤١-٤٢).

يتناوله بهجر القول كقولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾[يونس:٣٨] وقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾[الأنعام:٢٥] "(١).

قال محمد رشيد رضا ﷺ: "﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ الريب والريبة: الشك والظنة والتهمة، والمعنى: أن ذلك الكتاب مبرأ من وصمات العيب، فلا شك فيه، ولا ريبة تعتريه، لا من جهة كونه من عند الله تعالى، ولا في كونه هاديًا مرشدًا، ويصح أن يقال: إنه في قوة آياته ونصوع بيناته، بحيث لا يرتاب عاقل منصف، وغير متعنت، ولا متعسف في كونه هداية"(٢).

٢- **قال تعالى:** ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾[النساء:١١٣].

قال ابن جرير ﷺ: "يقول: ومن فضل الله عليك يا محمد -مع سائر ما تفضَّل به عليك من نعمه- أنه أنزل عليك (الكتاب)، وهو القرآن الذي فيه بيان كل شيء، وهدى، وموعظة. (والحكمة)، يعني: وأنزل عليك مع الكتاب الحكمة، وهي ما كان في الكتاب مجملًا ذكره، من حلاله وحرامه، وأمره ونهيه، وأحكامه، ووعده ووعيده، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾[النساء:١١٣] من خبر الأولين والآخرين، وما كان وما هو كائن، فكل ذلك من فضل الله عليك يا محمد مُذْ خلقك، فاشكره على ما أولاك من إحسانه إليك، بالتمسك بطاعته، والمسارعة إلى رضاه ومحبته، ولزوم العمل بما أنزل إليك في كتابه وحكمته، ومخالفة من حاول إضلالك عن طريقه

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٠-٢٢١).
(٢) تفسير المنار (١/ ١٠٤-١٠٥).

ومنهاج دينه"(١).

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾[فاطر:٢٩].

جاءت هذه الآية لاحقة للآية التي قبلها: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[فاطر:٢٨].

قال ابن كثير رحمه الله: "كلما كانت المعرفة بالله أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر"(٢).

وقال ابن عاشور رحمه الله: "والمراد بالعلماء: العلماء بالله، وبالشريعة، وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى الخشية، فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه، معرفة على وجهها، فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله، ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية، فهو يفهم مواقعها حق الفهم، ويرعاها في مواقعها، ويعلم عواقبها من خير أو شر، فهو يأتي ويدع من الأعمال ما فيه مراد الله ومقصد شرعه، فإن هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو في بعض الأوقات لداعي شهوة أو هوى أو تَعَجُّلِ نفع دنيوي كان في حال المخالفة موقنًا أنه مورط فيما لا تحمد عقباه، فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال.

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٠١-٢٠٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤٤).

وغير العالم إن اهتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء، وخشيته متولدة عن خشية العلماء. قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد: والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها، وأقرب العلماء إلى الله أولاهم به، وأكثرهم له خشية وفيما عنده رغبة"(١).

وقال السعدي رحمه الله: "كل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته"(٢).

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ "بمعنى: ويقيمون، وهو إدامتها لمواقيتها وحدودها"(٣).

﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ "في جميع الأوقات ﴿يَرْجُونَ﴾ بذلك ﴿تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة هي أجلّ التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه"(٤).

وفي هذه الآية إشارة مهمة إلى فضل تلاوة القرآن، وقد كان هذا ديدن النبي ﷺ في بيوته كما قال تعالى مخاطبًا زوجات النبي ﷺ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾[الأحزاب:٣٤]، وكل ما ورد في فضل الأذكار فإن المقدم منها هو تلاوة كتاب الله تعالى؛ فهو

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٠٤-٣٠٥).
(٢) تفسير السعدي (ص:٦٨٨).
(٣) زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٥١٠).
(٤) تفسير السعدي (ص:٦٨٩).

أعظم الأذكار، ومن قلّل من شأن تلاوة القرآن بحجة أن الاهتمام بالفهم والعمل أولى فقد أخطأ خطأ كبيرًا، فكما أن الفهم والعمل عبادة، فكذلك تلاوة القرآن عبادة بنفسها، والأصل هو الجمع بين التلاوة والتدبر والفهم، فإن الجمع بينهما ممكن وغير متعذر.

من دلالات وصف القرآن بـ (الكتاب):

- تعظيم القرآن وإجلاله والاعتزاز به، فهو كتاب هذه الأمة الذي شرفها الله تعالى به، والذي تفاخِر به الأممَ الكتابية الأخرى، وهو أجلُّ كتاب عرفته البشرية على الإطلاق.

- أن القرآن الكريم هو دليل المؤمن إلى ربه، ففيه بيان أسماء الله الحسنى، وبيان كمال قدرته وعظمته سبحانه، وبعض القصص من أفعاله بالكافرين وتأييد المؤمنين ونصرهم.

- الاهتمام بتعلُّم هذا الكتاب وفهمه، فقد حوى من العلوم، والمعارف، والقصص، والأخبار، والأحكام، والآداب، والحديث عن كثير من أمور الغيب... ما لم يحوِه كتاب غيره.

- التأكيد على صحة فعل الصحابة ﭫ حين قاموا بجمع القرآن وكتابته في المصاحف ليكون كتابًا، حيث لم يكن القرآن كتابًا مجموعًا في عهد النبي ﷺ، وادَّخر الله ﷻ هذا الشرف للصحابة ﭫ وعلى رأسهم أبي بكر ﭬ، فكان فيه منقبة عظيمة لهم.





الوصف الثاني
الآيـــات

١- قــــال تعـــالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[البقرة:٩٩].

٢- قـال تعـالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ ﴾[آل عمران:٧].

٣- قــال تعـــالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾[الحج:١٦].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف في مواضع كثيرة تتجاوز (١٠٠) موضع.

والآيـة هـي العلامـة الظـاهرة[١]، وتـأتي في القـرآن بمعنـى: المعجـزة، والعلامة، والعبرة، والبرهان، والعجب، والجماعة، وكل هذه المعاني تنطبق على وصف الآية القرآنية التي هي جزء من السورة[٢].

سبب وصف القرآن بـ(الآيات):

القرآن يوصف بأنه آيات؛ لأنه تحققت فيه المعاني السابقة المذكورة، وهي علامة على صدق من جاء بها، وفيها عبرة وعظة لمن أراد أن يعتبر، وهي دليل وبرهان على أن هذا القرآن من الله تعالى، وهي من الأمور

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:١٠١).
(٢) ينظر: دراسات في علوم القرآن (ص:١١٥).

العجيبة؛ لسموها وبلاغتها وإعجازها، وهي جماعة من الحروف، والقرآن (آيات) باعتبار اشتماله على الآيات[١]، وهذه العلامات واضحات، ولشدة وضوحها يعتبر جاحدُها فاسقًا، خارجًا عن دين الله وطاعته.

وليست هي على نوع واحد، فمنها المُحْكَم الذي لا يلتبس على أحد، ومنها المتشابه الملتبس على بعض الناس، والغرض من نزول الآيات الواضحة الدلالة هو أن يهدي بها الله تعالى من أراد من عباده إلى الحق.

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾[البقرة:٩٩].

جاء في سبب نزولها عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال ابن صُوريا الفطْيُوني لرسول الله ﷺ: يا محمد! ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنَتْبَعُك بها؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾[٢].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: "ولقد أنزلنا إليك فيما أوحينا إليك من الكتاب علامات واضحات، تُبيّن لعلماء بني إسرائيل وأحبارهم -الجاحدين نبوتك، والمكذبين رسالتك- أنك لي رسولٌ إليهم، ونبي مبعوث.

(١) ينظر: تفسير الرازي (٣/ ٦١٤)، دراسات في علوم القرآن (ص:١١٥).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٣٩٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٨٣).

﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ وما يجحد تلك الآيات الدالات على صدقك ونبوتك، التي أنزلتها إليك في كتابي فيكذب بها منهم، إلا الخارج منهم من دينه، التارك منهم فرائضي عليه في الكتاب الذي يدين بتصديقه"[(١)].

وقال محمد رشيد رضا ﷺ: "وأما كون آيات القرآن بينات فهي أنها بإعجازها البشر، وبقرن المسائل الاعتقادية فيها ببراهينها، والأحكام الأدبية والعلمية بوجوه منافعها لا تحتاج إلى دليل آخر يدل على أنها هداية من الله تعالى وأنها جديرة بالاتباع، بل هي دليل على نفسها عند صاحب الفطرة السليمة، كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى شيء آخر يظهره"[(٢)].

٢- قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾[آل عمران:٧].

١- أيها القارئ الكريم! هذه الآية هي أم القواعد في فهم القرآن، وتدبره، واستنباط أحكامه... قال أبو السعود ﷺ: "﴿مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ صفة (آيات)، أي: قطعية الدلالة على المعنى المراد، محكمة العبارة، محفوظة من الاحتمال والاشتباه"[(٣)].

وقال ابن كثير ﷺ: يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس،

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٩٩).
(٢) تفسير المنار (١/ ٣٢٦).
(٣) تفسير أبي السعود (٢/ ٧).

ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمَنْ رَدَّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكَّم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس"[١].

٢- ونحن في عصر الشبهات، وطريق السلامة من الشبهات هو ردُّ المتشابه إلى المحكم، وأن نؤمن أن الرسول ﷺ قام ببيان ما أمره الله به، في تبيان معاني القرآن، قال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[النحل:٤٤].

٣- وكذلك قام ﷺ بتعليم الكتاب والحكمة، كما قال الله ﷻ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[البقرة:١٥١].

فالرسول ﷺ علم القرآن، وأصحابه ﷺ تلقوه، فهو الذي علمهم؛ لذلك لا بد من الرجوع إلى ما صح من أقوالهم في بيان القرآن.

٤- وكذلك بيّن الله ﷻ في آيات كثيرة أنه أنزله بلسان عربي مبين، فلا بد من السير على هذه القواعد لفهم القرآن الفهم الصحيح.

٣- قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾[الحج:١٦].

"قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٦).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي: "يُضِلّ من يشاء، ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة، والحجة القاطعة في ذلك"(١)، فالهداية والضلال قد قُدِّرا في الأزل، فمن طلب الهداية فاهتدى تحقق فيه مراد الله تعالى، ومثل ذلك من طلب الضلالة، وإنما أفرد الهداية بالذكر دون الضلال؛ لأن الآيات في معرض بيانٍ يقتضي الهدى في القلب المستقيم، **ومن أهم أسباب الهداية: تلاوة القرآن وتدبّره**، بنية صادقة في طلب الهداية، والتوفيق من الله بالقرآن.

من دلالات وصف القرآن بـ (الآيات):

- أنه ينبغي للمؤمن تقدير القرآن حق قدره، فهو ليس مجرد وحي من الله تعالى، بل هو أيضًا معجزة ربانية، وبينة على صدق نبوة محمد ﷺ، ودليل يدل على الحق والهدى.

- أن على تالي القرآن أن يؤمن ويستحضر بأن القرآن كلام الله سبحانه، وأن كل آية هي دليل وحجة وبرهان على كونها حق من الله تعالى، فمن قرأ القرآن بآياته -التي تزيد على ستة آلاف آية- فلم يتدبره -ولم يكن قد أخذته الشواغل والهموم عن التدبر، أو قلَّ علمه فجهل-، فهو معرض عن القرآن بقلبه، وإن كان يتلوه بلسانه، أو غلبت على قلبه المعاصي، وطغى الران على قلبه؛ بسبب كثرة الذنوب، فعليه مراجعة نفسه وقلبه، وأخطر من ذلك من لم يوقن بأن القرآن كلام الله، فيتلوه مثلما يتلو سائر الكلام، نعوذ بالله من ذلك، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾[الرعد:٢٨]، فمن لم يطمئن قلبه بتلاوة

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٢).

القرآن فعنده ضعف في الإيمان.

- **كانت معجزات الأنبياء لا يستعملها إلا النبي نفسه، وأما القرآن فهو معجزة يستعملها النبي وأمته إلى قيام الساعة**، فالمسلم بين يديه معجزة وآية يستطيع استخدامها في إقامة الحق والدعوة إليه، كما كان النبي ﷺ يستخدمها[١]، وهذا الشعور يعطي المسلمَ قوة وثباتًا وحماسًا في دعوته غير المسلمين للإسلام، لذا ينبغي غرس هذا الشعور في نفوس المسلمين عامة، وخاصة طلاب حلقات تحفيظ القرآن، فهذا مما ينبغي أن يستشعره حافظ القرآن؛ بأن القرآن سلاحه في الدعوة إلى الله.



(١) قال ابن عاشور: إن آيات القرآن زهاء ستة آلاف آية، ومقدار كل ثلاث آيات مقدارٌ معجز، فيحصل من القرآن مقدار ألفي معجزة، وذلك لم يحصل لأحد من رسل الله. ينظر: تفصيل ذلك في مقدمة الكتاب (ص:١٣) وما بعدها.



الوصف الثالث
الوحي

١- قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[الأنعام:٥٠].

٢- قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الأنبياء:٤٥].

٣- قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[النجم:٣-٤].

معنى الوصف:

جاء وصف القرآن بالوحي في قرابة (٣٠) موضعًا بعدة تصريفات، وهي: (وَحْي) و(أَوْحَى) و(أَوْحينا) و(أُوْحي) و(يُوْحِي) و(يُوحَى) و(نُوْحِي) و(نُوْحيه) و(نُوْحيها)، وكثرة هذه التصاريف وتعددها تدل على كثرة الاستعمالات.

والوحي: "الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك"[1]، قال الراغب ﷺ: "ويقال للكلمة الإلهية التي تُلْقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي، وذلك أضرب حسبما دل عليه قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾[الشورى:٥١] إلى قوله: ﴿بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾[الشورى:٥١] وذلك إما برسولٍ مشاهد تُرَى ذاته ويُسمَع كلامه، كتبليغ

(١) لسان العرب (١٥/ ٣٧٩).

جبريل عليه السلام للنبي في صورة معينة، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله، وإما بإلقاء في الروع كما ذكر ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي»[(١)]، وإما بإلهام نحو: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[القصص:٧]، وإما بتسخير نحو قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[النحل:٦٨]، أو بمنام كما قال ﷺ: «انقطع الوحي وبقيت المبشرات؛ رؤيا المؤمن»[(٢)]"[(٣)].

سبب وصف القرآن بـ(الوحي):

وصِف القرآن بـ(الوحي) تأكيدًا على أنه كلام الله ﷻ، وأنه جاء من عنده، ولم يبتكره الرسول ﷺ من عند نفسه، وليس له أن يزيد فيه أو ينقص منه، فكل ما في القرآن هو من عند الله ﷻ، وفي هذا تأكيد لنسبة القرآن إلى الله ﷻ، ودفع لشبه المبطلين المشككين في صحة القرآن وصدقه.

كذلك أيضًا في هذا الوصف إشارة إلى الكيفية التي نزل بها القرآن، حيث يدل على الخفاء والسرعة، وهكذا كان نزول القرآن على النبي ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام[(٤)]، وسيأتي أن القرآن محفوظ، وأنه نزل بالحق، كما سيأتي في

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ٢٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٤١٩) برقم: (٢٠٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٣٣) برقم: (٢٢٧٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصحح الألباني إسناده.

(٣) المفردات في غريب القرآن (ص:٨٥٨-٨٥٩).

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾[الإسراء:١٠٥].

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[الأنعام:٥٠].

قال القرطبي ﵀: "قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[الأنعام:٣٧]، فالمعنى: ليس عندي خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات، ولا أعلم الغيب فأخبركم به. والخزانة ما يخزن فيه الشيء، وخزائن الله: مقدوراته، أي: لا أملك أن أفعل كل ما أريد مما تقترحون ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾[الأنعام:٥٠] أيضًا ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾[الأنعام:٥٠] وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل، أي: لستُ بملك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر"[(١)].

وقال ابن كثير ﵀: "﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: لست أخرج عنه قيد شبر، ولا أدنى منه"[(٢)].

ومن تأمل في كلام الله ﷻ يجد أن هناك آيات كثيرة نزلت في تقرير بشرية الحبيب ﷺ.

وهنا قد يرد سؤال للذهن: لماذا جاءت هذه الآيات مع أن الكفار يعرفون

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٤٣٠) مختصرا.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٩).

أنه بشر؟

والظاهر -والله أعلم- أن هذه الآيات هي ليست فقط موجهة للكفار آنذاك، لكن هي أيضًا موجهة للأجيال اللاحقة، الذين بالغوا في حب النبي ﷺ، وأخرجوه عن بشريته حتى ألَّهه بعضهم، ولم يفرِّقوا بين أوجه الاصطفاء للنبي ﷺ، وما أعطاه الله من كرامات وخصائص، وبين ما ليس له ﷺ، فتقرير بشريته ﷺ فيها رد مسبق، قوي، واضح، على الذين تجاوزوا الحد الشرعي في هذا الباب العظيم.

هذا وقد زين الشيطان لبعضهم فذلكة كلامية، فقالوا: الله ﷻ أعطى النبي ﷺ، أو أعطى المعصومين تلك الخصائص الكبرى، ومنحهم إرادة تكوينية يقولون للشيء بموجبها: (كن) فيكون، وقاسوا ذلك على بعض ما ذكره الله ﷻ من معجزات عيسى عليه السلام في إحياء الموتى وشفاء المرضى.

وهذه مغالطة ظاهرة؛ فالله ﷻ لم يمنح عيسى عليه السلام هذه القدرة غير المحدودة، وإنما منحه معجزة محددة، في زمن محدد، لغرض التحدي والإعجاز، ولو أراد عيسى عليه السلام فعل غيرها مما يشابهها لما استطاع ذلك إلا أن يشاء الله تعالى، فأين هذا مما ينسبونه إلى النبي ﷺ، أو إلى المعصومين عندهم أو إلى الأقطاب عند آخرين، من القدرة الكاملة على التصرف في الكون، متى ما شاؤوا، وكيفما شاؤوا.

٢- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الأنبياء:٤٥].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ﴾ أي: إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذركم به من

العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾[(١)].

٣- قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[النجم:٣-٤].

قال ابن جزي رحمه الله: "أي: ليس يتكلم بهواه وشهوته، إنما يتكلم بما يوحي الله إليه"[(٢)].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ يقول: ما هذا القرآن إلا وحي من الله يوحيه إلى جبريل، ويوحيه جبريل إلى محمد ﷺ[(٣)]، وهو إنما يقول ما أُمِر به، يبلغه إلى الناس كاملًا موفّرًا، من غير زيادة ولا نقصان[(٤)].

قال ابن عطية رحمه الله: "وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ يراد به القرآن بإجماع"[(٥)].

وقال ابن عاشور رحمه الله: "واعلم أن تنزيهه ﷺ عن النطق عن هوى يقتضي التنزيه عن أن يفعل أو يحكم عن هوى؛ لأن التنزه عن النطق عن هوى أعظم مراتب الحكمة، ولذلك ورد في صفة النبي ﷺ «أنه يمزح، ولا يقول إلا حقًّا»[(٦)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٤٥).

(٢) تفسير ابن جزي (٢/ ٣١٦).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٨)، تفسير الماوردي (٥/ ٣٩١).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٤٣).

(٥) تفسير ابن عطية (٥/ ١٩٦).

(٦) التحرير والتنوير (٢٧/ ٩٣).

وقد جاء هذا الوصف في معرض الدفاع عن النبي ﷺ تأكيدًا على أنه راشدٌ غيرُ ضال، مهتدٍ غيرُ غاوٍ، مخلصٌ غيرُ مُراء، مُبَلِّغٌ للحق ليس بكذاب ولا مفترٍ، وما بلغكم فهو وحي من الله تعالى وهو في تبليغه له صادق أمين.

من دلالات وصف القرآن بـ (الوحي):

- أن القرآن يُقدّم على أي كلام آخر، فهو وحي من الله تعالى، لا يتطرق إليه شك، ولا ريب، ولا شبهة، ولا هوى.

- أن القرآن مرجعية للأمة كلها، وأنه المصدر الذي لا يُقبل من أحد أن يتجاوزه، أو يعمل بخلافه.

- أن كل عبارة وجملة وكلمة، بل كل حرف في القرآن مقصود، وله دلالة، وكذلك كل لازم صحيح يلزم على هذا الكلام هو لازم مقصود، كما أن ترتيب الكلمات والآيات وما يحصل من تقديم وتأخير؛ كل ذلك له دلالة؛ لأن هذا كله وحي أوحاه الله تعالى، وليس كلامًا عبثًا، أو ناشئًا عن هوى.

- أن النبي ﷺ تلقى القرآن بصفة خاصة، ولم يشاركه غيره في تلقيه من جبريل عليه السلام.





الوصف الرابع
الحـــــــق

١- قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[البقرة:٩١].

٢- قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء:١٠٥].

٣- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾[فاطر:٣١].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف في قرابة (٤٧) موضعًا من القرآن، مُعَرَّفًا (الحق)، ومُضافًا (حق اليقين)، ومسبوقًا بحرف الجر (بالحق).

وكلمة (حق) تدل على إحكام الشيء وصحته؛ فالحق نقيض الباطل[(١)]، وهو الشيء الذي لا يمكن إنكاره.

سبب وصف القرآن بـ(الحق):

وصف الله تعالى إنزال القرآن بالحق، ونزوله أيضًا به، "والحق هو الثابت الذي لا يزول، وهذا الكتاب الكريم مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والإكرام، وعلى تعظيم الملائكة، وتقرير نبوة الأنبياء، وإثبات الحشر والنشر والقيامة، وكل ذلك مما لا يقبل الزوال، ومشتمل

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ١٥).

أيضًا على شريعة باقية، لا يتطرق إليها النسخ والنقض والتحريف، وأيضًا هذا الكتاب كتاب تكفل الله بحفظه عن تحريف الزائغين، وتبديل الجاهلين، فكان هذا الكتاب حقًّا من كل الوجوه"(١).

فالقرآن هو الحق بذاته، وما فيه كله حق، والله ﷻ هو الذي أنزل القرآن، وجعله متفقًا مع الفطرة التي فطر الناس عليها (الفطرة السوية)، كما أنه متفق مع نظام الكون، ومع سائر المخلوقات، والكل يسبح لله تعالى، ويعظمه، ويقدسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾[الإسراء:٤٤].

فلا يجد أصحاب الفطر السليمة تعارضًا بين ما في القرآن، وبين ما يجدونه في أنفسهم، وبين ما يرونه من حقائق الكون، فكله حق؛ لأن مصدر هذا كله هو الله ﷻ، فهو الذي تكلم بالقرآن، وهو الذي أنشأ الفِطَر، وهو الذي خلق الكون كله، وقد أدرك المؤمنون هذا المعنى من خلال الحق الذي هو القرآن العظيم.

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١﴾[البقرة:٩١].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ "أي: إذا قيل لليهود من بني إسرائيل الذين كانوا بين

---

(١) تفسير الرازي (٢١/ ٤١٦) بتصرف يسير.

ظهراني مهاجَر رسول الله ﷺ: ﴿ءَامِنُواْ﴾ أي: صَدِّقوا ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني: بما أنزل الله من القرآن على محمد ﷺ ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ﴾ أي: نصدق ﴿بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي: بالتوراة التي أنزلها الله على موسى، وكان هذا هو الذي يقولونه إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام، كانوا يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي: بما سوى التوراة وبما بعده من كتب الله التي أنزلها إلى رسله"[(١)].

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ "يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ أي: قتلتم ﴿أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالتوراة، وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء عليهم السلام"[(٢)].

وهذه الآية يصح اعتبارها معطوفًا على قوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ "وهذا كله من عطف حكايات أحوالهم، في معاذيرهم عن الإعراض عن الدعوة الإسلامية، فإذا دُعُوا قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، وإذا سمعوا الكتاب أعرضوا عنه بعد أن كانوا منتظريه حسدًا أَنْ نَزَل على رجل من غيرهم.

وإذا وُعِظوا وأُنْذِروا ودُعُوا إلى الإيمان بالقرآن وبأنه أنزله الله، وأن ينظروا في دلائل كونه مُنَزَّلًا من عند الله أعرضوا، وقالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، أي: بما أنزله الله على رسولنا موسى، وهذا هو مَجْمع ضلالاتهم ومَنْبع عنادهم"[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٤٨-٣٤٩) بتصرف.

(٢) تفسير البغوي (١/ ١٢١- ١٢٢) مختصرًا.

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٦٠٦).

جاء هذا الوصف لكتاب الله تعالى (الحق) في معرض الرد على كفر اليهود بالقرآن "فرَدَّ عليهم ﷻ هنا ردًّا شافيًا، وألزمهم إلزامًا لا محيد لهم عنه، فرَدَّ عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين:

فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات، والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: موافقًا له في كل ما دل عليه من الحق، ومهيمنًا عليه، فلِمَ تؤمنون بما أنزل عليكم، وتكفرون بنظيره؟ هل هذا إلا تعصب واتباع للهوى لا للهدى؟"[١].

٢- قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وبالحق أنزلنا هذا القرآن، أي: أنزلناه نأمر فيه بالعدل والإنصاف والأخلاق الجميلة، والأمور المستحسنة الحميدة، وننهى فيه عن الظلم والأمور القبيحة، والأخلاق الردية، والأفعال الذّميمة، ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ﴾، أي: وبذلك نزل من عند الله على نبيّه محمد ﷺ[٢].

وقال أبو السعود ؒ: "ما أنزلناه من السماء إلا محفوظًا، وما نزل على الرسول إلا محفوظًا من تخليط الشياطين، ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره"[٣].

(١) تفسير السعدي (ص:٥٩).
(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٧/ ٥٧٣).
(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ١٩٩).

﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ أي: "متلبسًا بالحق الذي هو ثبات نظام العالم على أكمل الوجوه، وهو ما اشتمل عليه من العقائد، والأحكام، ومحاسن الأخلاق، وكل ما خالف الباطل"[(١)]، "وقد وَصَف الله القرآن بصفتين عظيمتين كل واحدة منهما تحتوي على ثناء عظيم، وتنبيه للتدبر فيهما، وقد ذُكِر فعل النزول مرتين، وذُكِر له في كل مرة متعلَّق مُتماثل اللفظ، لكنه مختلف المعنى، فعلَّق إنزال الله إياه بأنه بالحق، فكان معنى الحق الثابت الذي لا ريب فيه ولا كذب، وعلَّق نزول القرآن، أي: بلوغه للناس بأنه بالحق -فلا يأتيه الباطل- فكان معنى الحق الثاني مقابلَ الباطل، أي: مشتملًا على الحق الذي به قوام صلاح الناس وفوزهم في الدنيا والآخرة"[(٢)].

ولعله أراد بهذين الوصفين نفي أن يعتريه الباطل في أول الأمر)أثناء نزوله على محمد ﷺ(وآخره)بعد ثبوت نزوله إلى قيام الساعة)[(٣)].

وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾، يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمد إلى من أرسلناك إليه من عبادنا، إلا مبشرًا بالجنَّة من أطاعنا، فانتهى إلى أمرنا وَنهْينا، ومنذرًا لمن عصانا وخالف أمرنا ونهينا[(٤)].

قال السعدي ؒ: "﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرٗا﴾ لمن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل"[(٥)]،

---

(١) تفسير القاسمي (٦/ ٥٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٢٩) بتصرف يسير.

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي (٣/ ٢٦٩).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (١٧/ ٥٧٣).

(٥) تفسير السعدي (ص:٤٦٨).

ووجه ارتباط آخر الآية بأولها أن في ذلك الحق نَفْعًا وضرًّا، فأنت به مبشِّرٌ للمؤمنين ونذيرٌ للكافرين(١).

٣- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾[فاطر:٣١].

يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه، فلا يكن في قلوبكم حرج منه، ولا تتبرموا منه، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها، مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه(٢).

من دلالات وصف القرآن بـ (الحق):

- أن الحق هو القرآن، وما جاء به القرآن، وهو معيار الحق وبه يوزن، فما وافق القرآن فهو الحق، وما خالف القرآن فهو باطل ولو كان ما كان، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾[يونس:٣٢].

- أن كون القرآن هو الحق معناه أن الحق باق محفوظ بحفظ القرآن، ولا يمكن أن يزول الحق أو يختفي إلى أن تقوم الساعة، فمهما تكالب أعداء الحق لمحوه فلن يجدوا لهذا سبيلًا.

- إذا كان مقصود نزول القرآن هو إظهار الحق، فلتكن وسيلة إيضاحه للناس مبنية على البشارة والنذارة والترغيب والترهيب، والوضوح الجلي

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٢٣٠).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص:٦٨٩).

الظاهر البين الذي لا خفاء فيه ولا لبس.

- أن القرآن محفوظ بحفظ الله ﷻ من الزيادة والنقصان؛ لأن هذا هو مقتضى إنزاله بالحق، فهو محفوظ في أثناء إنزاله، ومحفوظ كذلك بعد إنزاله.





قـال تعـالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾[البقرة:٨٩].

معنى الوصف:

ورد وصف القرآن بأنه (مصدّق) و(تصديق) لما قبله من الكتب في قرابة (١٣) موضعًا من القرآن.

و(مصدِّق) اسم فاعل من الفعل صدَّق، يقال: صَدَّقْتُ فلانًا: نسبته إلى الصّدق، ويستعمل التَّصْدِيقُ في كلّ ما فيه تحقيق وتأكيد، يقال: صدقني فعلُه وكتابُه[(١)].

سبب وصف القرآن بـ(المصدِّق لما قبله من الكتب):

قد يشكل لدى بعضهم معنى أن القرآن (مصدق لما قبله ولما معهم)، وقد تكلم العلماء في بيان معنى هذا التصديق ووجَّهوه:

قال ابن جزي رحمه الله: "وتصديق القرآن للتوراة وغيرها، وتصديق محمد ﷺ للأنبياء والمتقدمين؛ له ثلاث معانٍ:

أحدها: أنهم أخبروا به ثم ظهر كما قالوا، فتبيّن صدقُهم في الإخبار به.

والآخر: أنه ﷺ أخبر أنهم أنبياء، وأُنزِل عليهم الكتب، فهو مصدق لهم

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٤٨٠).

أي: شاهد بصدقهم.

والثالث: أنه وافقهم فيما في كتبهم من التوحيد، وذكر الدار الآخرة، وغير ذلك من عقائد الشرائع، فهو مصدّق لهم لاتفاقهم في الإيمان بذلك"[(١)].

ويزيد ابن عاشور رحمه الله الأمر توضيحًا؛ فيقول: "والمراد من كون القرآن مصدقًا لما معهم أنه يشتمل على الهدى الذي دعت إليه أنبياؤهم؛ من التوحيد، والأمر بالفضائل، واجتناب الرذائل، وإقامة العدل، ومن الوعيد والوعد، والمواعظ والقصص، فما تماثل منه بها فأمره ظاهر، وما اختلف فإنما هو لاختلاف المصالح والعصور، مع دخول الجميع تحت أصل واحد، ولذلك سُمّي ذلك الاختلاف نسخًا؛ لأن النسخ إزالة حكم ثابت، ولم يُسَمَّ إبطالًا أو تكذيبًا، فظهر أنه مصدِّق لما معهم حتى فيما جاء مخالفًا فيه لما معهم؛ لأنه ينادي على أن المخالفة تغيير أحكام، تبعًا لتغير أحوال المصالح والمفاسد؛ بسبب تفاوت الأعصار، بحيث يكون المُغيَّر والمُغيِّر حقًّا بحسب زمانه، وليس ذلك إبطالًا ولا تكذيبًا، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾[النساء:١٦٠] الآية. فالإيمان بالقرآن لا ينافي تمسكهم القديم بدينهم، ولا ما سبق من أخذ رسلهم عليهم العهد باتباعه.

ومما يشمله تصديق القرآن لما معهم: أن الصفات التي اشتمل عليها القرآن ودين الإسلام والجائي به موافقة لما بشرت به كتبهم، فيكون وروده معجزة لأنبيائهم، وتصديقًا آخر لدينهم، فيلزم تأويل التصديق بالتحقيق"[(٢)].

(١) تفسير ابن جزي (١/ ٨١).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٥٩).

أيها القارئ الكريم! لا يخفى عليك بأن الكتب السابقة دخلها تحريف وتبديل، لذلك قال الله عز وجل: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾[البقرة:٨٩]، أي: وقت إنزال القرآن في ذلك الزمان، فكانت التوراة والإنجيل في آيات ومواضع كثيرة تشهد عندهم بصدق محمد ﷺ، ثم لحقها التحريف والتبديل والتغيير، وحذفوا منها ما لا يوافق أهواءهم واستبدلوه بغيره.

بيان الآية:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[البقرة:٨٩].

جاء في سبب نزول هذه الآية عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: إن يهودًا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله في العرب؛ كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه؛ فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء، وداود بن سلمة: يا معشر يهود! اتقوا الله، وأسلموا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد -ونحن أهل شرك-، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم؛ فأنزل الله ﷻ في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: ولما جاء اليهود من بني إسرائيل.

---

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (٢/ ١٤٠)، وينظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٢٦).

﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ.

﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: **مصدِّق للذي معهم من الكتب التي أنزلها الله من قبل القرآن: التوراة والإنجيل.**

﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: وكان هؤلاء اليهود، يستنصرون الله بأن يرسل هذا النبي؛ ليتّبعوه فينتصروا على مشركي العرب[1].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ يعني محمدًا ﷺ من غير بني إسرائيل، وعرفوا نعته وصفته.

﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ بغيًا وحسدًا[2].

﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فخِزْي الله وإبعاده على الجاحدين ما قد عرفوا من الحق عليهم لله ولأنبيائه، المنكِرين لما قد ثبت عندهم صحته من نبوة محمد ﷺ[3].

جاء هذا الوصف للقرآن الكريم في معرض تعداد قبائح اليهود، فهو ينعي عليهم كفرهم بالقرآن، وبالرسول محمد ﷺ، مع معرفة دلائل صدقه، وأنه منزل من عند الله، وكأنه يشير إلى طريق للإيمان والمعرفة تنفي الكفر والجهل عن سالكها من أهل الكتاب، وتحجبه عن الطرد والإبعاد، فيكون

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢/ ٢٣٦).
(٢) ينظر: تفسير البغوي (١/ ١٢١).
(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢/ ٢٤٣).

ممن انتظم سلكه في عداد المؤمنين المقربين من رب العالمين، الداخلين تحت رحمته سبحانه، وهذا الطريق يتمثل في البحث في بيان ما **صدَّق به القرآن الكريم التوراة والإنجيل**، ثم بعد تَبَيُّن ذلك ومعرفته يأتي الإذعان والقبول، وكما أن تلك الطريق سبيل لإيمان أهل الكتاب، فهي أيضًا وسيلة دعوة لهم، تؤتي ثمارها في دخولهم في دين الإسلام، والله أعلم.

من دلالات وصف القرآن بـ (المصدِّق لما قبله من الكتب):

- أن دعوة الأنبياء في أصلها واحد، وكل واحد منهم يُصدّق الآخر، وآخرهم محمد ﷺ الذي جاء بالقرآن مصدقًا لكل من قبله.

- أن أحد الأساليب المهمة لدعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ التأكيد على أن القرآن ليس مكذِّبًا لكتبهم، وإنما هو مصدق لها، فيما لم يدخله التحريف، وأن أول تصديقه لها هو أنه جاء على وفق ما أخبرت وبشّرت به.

- أن الله تعالى أخبر بني إسرائيل في التوراة عن النبي ﷺ وعن القرآن، فالحديث عن محمد لا ينفك عن الحديث عن القرآن، والعكس بالعكس، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ ولم يقل: التوراة، تأكيدٌ على أن الحديث عن النبي ﷺ وعن القرآن موجود في الكتب التي كانت عندهم وقت نزول القرآن.

- إقامة الحجج والبراهين على بني إسرائيل (يهود ونصارى)، بصدق رسالة رسولنا محمد ﷺ بما في كتبهم، وقد اهتم المحققون من العلماء بذلك، فقد كتب جمع منهم كتبًا في هذا الباب، ومن هذه الكتب:

- (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وإظهار محاسن الإسلام) لأبي عبد الله القرطبي.

- (الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة) للقرافي.

- (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لابن تيمية.

- (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى) لابن القيم.

- (إظهار الحق) لمحمد رحمة الله الهندي.

وقد حصل اليوم بفضل الله ﷻ مناظرات عالمية ومشهورة، ونقاشات في هذا المجال، تضمنت براهين واضحة وجلية تؤكد صدق هذه الرسالة، وصدق بشاراتها وتدحض شبه وأوهام المبطلين، كما فعل الشيخ أحمد ديدات رحمه الله وغيره، وكانت بحضور آلاف البشر، وتناقلها من ورائهم ملايين البشر، وأظهر الله ﷻ الحق، ونصر نبيه ﷺ.

❁ ❁ ❁



١- قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران:٥٨].

٢- قال تعالى: ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [يونس:١].

٣- قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد:٣٧].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف في القرآن معرَّفًا ومُنَكَّرًا في (٥) مواضع، وورد وصف القرآن بأنه محكَم، وأنه حُكْم، وحكمة في (٤) مواضع.

و(الحكيم) يأتي على معان متعددة في العربية، منها: ذو الحكمة والحاكم والمحكم، كما سيأتي إن شاء الله.

سبب وصف القرآن بـ(الحكيم):

وفي وصف الكتاب بكونه حكيمًا أوجه[(١)]:

الأول: أن الحكيم هو ذو الحكمة، بمعنى اشتمال الكتاب على الحكمة، والحكمة: هي وضع الشيء في موضعه[(٢)].

الثاني: الحكيم بمعنى الحاكم، فهو حاكم في تمييز الاعتقادات؛ حقها عن

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٧/ ١٨٤- ١٨٥).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص:٦٩٢).

باطلها، وفي تمييز الأفعال؛ صوابها عن خطئها.

الثالث: أن الحكيم بمعنى المحكَم، والإحكام معناه: المنع من الفساد، فيكون المراد منه: **براءته عن الكذب والتناقض**، وقيل: المحكم ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى[(١)]، الذي يبين وجوه العِبَر في الأخبار والحِكَم في الأحكام، فيهدي المؤمنين إلى لباب الدين وفقه الشريعة وأسرار الاجتماع البشري؛ ليتعظ المتَّعِظون، ويَصِلَ إلى مقام الحكمة العارفون[(٢)].

قال السعدي ﵀: "ومن حكمة هذا القرآن، **أنه يجمع بين ذكر الحُكْم وحكمته**، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها"[(٣)].

بيان الآيات:

١- **قال تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾[آل عمران:٥٨].

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: إن تلاوة ذلك عليك من آيات صدقك في دعوى الرسالة، فإنك لم تكن تعلم ذلك[(٤)].

﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: المحكَم المتقَن، المفصِّل للأحكام والحلال والحرام، وأخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٢٥١).

(٢) ينظر: تفسير المنار (٣/ ٢٦٢).

(٣) تفسير السعدي (ص:٦٩٢).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٢).

البينات، والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة، وتثبيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد[(١)]، وهو الحكيم: ذو الحكمة الفاصلة بين الحق والباطل[(٢)].

وبالتأمل في سياق الآية نجد أنه قد سبق ذكرَ هذين الوصفين: الإشارةُ الدالة على بُعْدِ المكانة، وذكر أن الله تعالى يتلوه على نبيه ﷺ على لسان جبريل عليه السلام بوحيه إليه[(٣)]، فأي تكريم أفضل من هذا؟! فكأن السياق يقول: من أراد الرفعة والشرف فليكن حال سماعه تلاوة القرآن متدبرًا لما فيه من العلامات على النبوة، ولما فيه من الإحكام والإتقان. والله أعلم.

٢- قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾[يونس:١]، أي: تلك آيات الكتاب المحكم، الذي أحكمه الله وبينه لعباده[(٤)].

يشير الله تعالى إلى آيات كتابه باسم الإشارة (تلك) أي: تلك الآيات البعيدة الشأو، الرفيعة الشأن[(٥)]، آيات الكتاب الحكيم الذي يخاطب البشر بما يناسب طبائعهم، وينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله في الكون، وفي مصارع الظالمين الغابرين، وفي قصص الرسل، وكيف أن العاقبة كانت لهم، وفي كل ما يدل على قدرة الله تعالى في هذا الوجود.

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص:١٣٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٤٥٨).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٤٥٨).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٠٥).

(٥) ينظر: تفسير المنار (١١/ ١١٨).

قال السعدي رحمه الله: "أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

من إحكامها: أنها جاءت بأجلّ الألفاظ وأفصحها، وأبينها، الدالة على أجلّ المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها: أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف.

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، ولم يأت -ولن يأتي- علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه.

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيرًا ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ الذي تعتدل به النفوس الخيّرة، وتحتكم، فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف، فكلما ازداد بها البصير تدبرًا، وأعمل فيها العقل تفكرًا، انبهر عقله، وذهل لبُّه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزمًا لا يمترى فيه أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن -مع أنه حكيم- يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون من الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم، والمحسنون إلى الخلق"[(١)].

٣- قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾[الرعد:٣٧].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ﴾ أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن مُحْكَمًا مُعْرَبًا، شرَّفناك به، وفضَّلناك على من سواك بهذا الكتاب المُبِيْن الواضح الجلي[(٢)].

"فحصل لهذا الكتاب كمالان: كمال من جهة معانيه ومقاصده، وهو كونه حُكْمًا، وكمال من جهة ألفاظه، وهو المُكَنَّى عنه بكونه عربيًّا، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله؛ لأن الحكمة أشرف المعقولات فيناسب شرفَها أن يكون إبلاغُها بأشرفِ لغةٍ، وأصلحِها للتعبير عن الحكمة، ثم في كونه عربيًّا امتنان على العرب المخاطَبين به ابتداء بأنه بِلُغَتهم، وبأن في ذلك حسنَ سمعتِهم، ففيه تعريضٌ بأَفْنِ[(٣)] رأي الكافرين منهم إذ لم يشكروا هذه النعمة"[(٤)].

---

(١) تفسير السعدي (ص:٦٤٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٦٧).

(٣) الأَفْن: قلة العقل. مقاييس اللغة (١/ ١١٩).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٣/ ١٦٠).

ثم "توعد الله رسوله ﷺ -مع أنه معصوم- ليمتن عليه بعصمته، ولتكون أمَّتُه أسوتَه في الأحكام، فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب.

﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من الأمر المكروه"[1].

أنزل الله تعالى كتابه حُكمًا عربيًّا، فهو ذو حِكْمة بلسان عربي، وهو مشتمل على جميع أقسام التكاليف، فلا يمكن الحكم بين الناس بمنع الظلم عنهم إلا بالقرآن[2]، فلما كان كذلك كان واجب الاتباع، دون غيره من أهواء الناس وآرائهم المخالفة له، ومقصود هذه الآية بيان طريق الاتباع، فبيّن أوَّلها أن الاتّباع يكون لهذا الكتاب المحكم العربي، ثم نهى عن اتّباع ما سواه؛ ببيان عاقبة ذلك بأن العقوبة نازلة به لا محالة، لا يجد له نصيرًا أو دافعًا.

من دلالات وصف القرآن بـ (الحكيم):

- أن الحكمة موجودة في كتاب الله تعالى، فمن أرادها فليلتمسها في آياته، وقصصه، وأحكامه.

- تقديم القرآن على غيره من المذاهب، والأفكار، والفلسفات، فإن غاية هذه الأفكار أن تكون حكمة بشرية، وأما القرآن فإنه حكمة إلهية، لا نقص فيها، ولا خلل.

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص:٤١٩).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (١٩/ ٤٨).

- التحاكم إلى كتاب الله تعالى في كل ما يحصل بين الناس من نزاعات وخلافات، فهو الحَكَم الذي يحكم بين العباد، ويبين الحق من الباطل والصواب من الخطأ.

- أن كلام الله ﷻ كله ينسب إليه ﷻ، فهو كلام الباري ﷻ، وهو كلام مقدس، والقرآن الكريم من كلام الله ﷻ، الذي اشتمل على حكمة، وحِكَم، وحُكم، فلله الحمد والمنة أن أنزل هذا القرآن على عبده ﷺ وحفظه وجعلنا من أتباعه.





الوصف السابع
العلم

١- قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾[البقرة:١٢٠].

٢- قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾[آل عمران:٦١].

٣- قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾[الرعد:٣٧].

معنى الوصف:

ورد وصف القرآن بالعلم في قرابة (٨) مواضع، ومما لا شك فيه أن أعظم العلم الذي أوتيه النبي ﷺ -بل البشرية جميعًا- هو هذا القرآن، وقد وصفه الله ﷻ بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[فصلت:٤١-٤٢].

فنفى الله عنه ﷻ أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا باطل فيه ولا يصل إليه الباطل، وذلك لتمام العلم الذي اشتمل عليه، ثم وصفه الله ﷻ أنه تنزيل من حكيم حميد ﷻ.

سبب وصف القرآن بـ(العلم):

وصِف القرآن بالعلم؛ لاشتماله على أعظم العلوم والمعارف التي لا يقدر قدرها، ولا يحيط بها إلا الله ﷻ، لا سيما فيما يتعلق بالغيبيات من أسماء الله تعالى، والجنة، والنار، وأهوال يوم القيامة وغيرها، فهو كلام الله سبحانه الذي خلق الخلق كلهم، وربي ﷻ أعلم بما خلق ﷻ، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[الملك:١٤].

قال السيوطي رحمه الله: "قال ابن الفضل المرسي في تفسيره: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علمًا حقيقة إلا المتكلم بها ﷻ ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر به ﷻ[1]، ثم ورث ذلك عنه معظم سادات الصحابة وأعلامهم؛ مثل: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم حتى قال: «لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى»[2]، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه؛ فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه؛ فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه، وعدد سجداته، والتعليم عند كل عشر

---

(١) يزعم المرسي أن النبي ﷺ جمع علوم الأولين والآخرين خلا ما استأثر الله ﷻ به، وهذا القول مبني على الغلو في مقام النبي ﷺ، والصواب أنه ﷺ جمع من العلوم ما علمه الله تعالى إيّاه.

(٢) ينظر: تفسير الألوسي (٣/ ٣٥٧).

آيات، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة، من غير تعرض لمعانيه ولا تدبر لما أودع فيه فسموا: (القراء).

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم والمتعدي، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظًا يدل على معنى واحد، ولفظًا يدل على معنيين، ولفظًا يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[الأنبياء:٢٢] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده، وبقائه، وقدمه، وقدرته، وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بـ:(أصول الدين).

وتأملت طائفة منهم معاني خطابه؛ فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص، والإخبار، والنص، والظاهر والمجمل، والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي، والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال والاستقراء، وسموا هذا الفن: (أصول الفقه).

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله، وفرَّعوا فروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطًا حسنًا، وسموه بـ: (علم الفروع) وبـ: (الفقه) أيضًا.

وتلمَّحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء، وسموا ذلك بـ: (التاريخ والقصص).

وتنبه آخرون لما فيه من الحِكَم، والأمثال، والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت، والمعاد، والنشر، والحشر، والحساب، والعقاب، والجنة، والنار فصولًا من المواعظ، وأصولًا من الزواجر، فسموا بذلك: (الخطباء والوعاظ).

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان، وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه: (تعبير الرؤيا)، واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب، فإن عزَّ عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب، فإن عسر فمن الحكم والأمثال.

وأخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض، واستنبطوا منها من ذكر النصف، والثلث، والربع، والسدس، والثمن حساب الفرائض ومسائل العول، واستخرجوا منه (أحكام الوصايا).

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحِكَم الباهرة في الليل

والنهار، والشمس والقمر ومنازله، والنجوم والبروج وغير ذلك، فاستخرجوا منه: (علم المواقيت).

ونظر الكُتَّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسن السياق، والمبادئ والمقاطع والمخالص، والتلوين في الخطاب والإطناب والإيجاز، وغير ذلك، فاستنبطوا منه: (المعاني والبيان والبديع).

هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه"(١).

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾[البقرة:١٢٠].

قال الطبري رحمه الله: "يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾[البقرة:١٢٠] -يا محمد- هوى هؤلاء اليهود والنصارى فيما يرضيهم عنك؛ من تهود وتنصر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم، من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصت عليك من نبئهم في هذه السورة ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾[البقرة:١٢٠] يعني بذلك: ليس لك -يا محمد- من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به.

﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾[البقرة:١٢٠] ينصرك من الله"(٢).

(١) الإتقان في علوم القرآن (٥/ ١٩١٠-١٩١٤).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٥٦٣-٥٦٤).

٢- **قال تعالى:** ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران:٦١].

قال ابن عطية ﷺ: "والعلم الذي أشير إليه بالمجيء هو ما تضمنته هذه الآيات المتقدمة من أمر عيسى ﷺ"(١).

وهذا التخصيص بالعلم هنا فيه تنبيه في غاية الأهمية، وهو عدم الإقدام على المناظرة والمجادلة والمباهلة إلا بعلم يقيني.

٣- **قال تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد:٣٧].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيًّا، وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ، وهو عربي، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضًا، وقيل نظم الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيًّا، أي: بلسان العرب، ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام، وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: أهواء المشركين في عبادة ما دون الله، وفي التوجيه إلى غير الكعبة، ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي: ناصر ينصرك، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يمنعك من عذابه، والخطاب للنبي ﷺ،

---

(١) تفسير ابن عطية (١/ ٤٤٧)، وبنحوه قال الطبري (٦/ ٤٧٤) والشوكاني في فتح القدير (١/ ٣٩٨).

والمراد الأمة[1].

من دلالات وصف القرآن بـ (العلم):

- أن القرآن ليس مجرد كتاب مواعظ، بل هو قبل ذلك كتاب علم، اشتمل على أنواع العلوم المختلفة، وهو المرجع الأول للعلم.

- أن التقليل من شأن القرآن هو تقليل من شأن العلم، وإنما يفعل ذلك الجاهلون؛ ذلك أن العلوم الذي يتفاخر البشر به اليوم ليس هو العلم الحقيقي، بل هي علوم بعضها فيه رفاهية البشرية، وتخدم مصالح البشر، وبعضها فيه خراب ودمار للبشرية، والعلم الحقيقي هو الذي فيه سعادة البشرية في الدنيا والآخرة، وهو ما اشتمل عليه القرآن من هدايات، ودلالات، وبراهين، ومواعظ.

وحملة هذا القرآن إذا اتقوا الله واستفادوا واهتدوا بفهم القرآن والعمل به وتدبروا آياته وفهموا معانيه فقد حازوا أصول العلم، في العقيدة والفقه والأحكام وفي الزواجر والنواهي..، وصاروا أحق الناس بوصف العلماء.

- أنه لا يمكن أن يوجد تعارض بين القرآن وبين العلم الصحيح، فالعلم لا يعارض العلم، وإنما يعارض العلمَ الجهلُ، فكل ما عارض القرآن من نظريات أو أفكار، فإنما هي جهل وخطأ، فالقرآن الكريم يحكم على العلوم؛ لأنه علم يقيني، وليست تلك العلوم هي التي تحكم على القرآن.

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ٣٢٧).

تنبيه للآباء و المربين والمعلمين في حلقات تحفيظ القرآن

- إنّ على الآباء والمربين والمعلمين في حلقات التحفيظ أن يُرسِّخوا في قلب من يتعلم القرآن أنه بتعلمه للقرآن يبني أصول العلم في صدره، وأنه بذلك يحفظ كليات العلم وأصوله وقواعده، فعليه أن يتدبر القرآن ويفهمه ويتفقه فيه، وأن يدرك بأن حفظه للقرآن حفظ لأدلة الأحكام ومقاصد الشريعة، وأصول الاستدلالات في العقائد والفقه وأصوله وفي الفرائض وشواهد اللغة العربية، كما يدرك أن حفظه للقرآن حفظ للأصل الأول للعلم، وبقي عليه سنة النبي ﷺ وما جاء فيها.





الوصف الثامن
البصائر

١- قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾[الأنعام:١٠٤].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾[الأعراف:٢٠٣].

٣- قال تعالى: ﴿هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾[الجاثية:٢٠].

معنى الوصف:

ورد وصف القرآن بأنه بصائر في (٣) مواضع من القرآن.

بصائر: جمع بصيرة، وأصل البصيرة: الإبصار، والبصيرة نور القلب الذي به يستبصر، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر، والبصيرة: البرهان[١].

سبب وصف القرآن بـ(البصائر):

وصِف القرآن بالبصائر لاشتماله على الأدلة والحجج والبراهين على أعظم المطالب والمعارف، ففيه البصائر الجلية على إثبات وجود الله تعالى، وكماله، وجلاله، وعظمته، وأسمائه وصفاته، وإثبات نبوة النبي ﷺ والنبيين من قبله، والأدلة على البعث والنشور والحساب والجزاء، وفيه ما يجلّي

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥)، المفردات في غريب القرآن (ص:١٢٧)، مقاييس اللغة (١/ ٢٥٤).

القلب ويطلق بصيرته ليرى الأمور على حقائقها.

بيان الآيات:

١- **قال تعالى:** ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾[الأنعام:١٠٤].

قال ابن كثير رحمه الله: "البصائر: هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول ﷺ"[(١)].

وقال السعدي رحمه الله: "﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار، لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة، لأنها صادرة من الرب، الذي ربى خلقه، بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها: تبيين الآيات، وتوضيح المشكلات"[(٢)].

وقال القرطبي رحمه الله: "﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ الإبصار: هو الإدراك بحاسة البصر، أي: فمن استدل وتعرَّف فنفسَه نفع.

﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ لم يستدل، فصار بمنزلة الأعمى، فعلى نفسه يعود عماه"[(٣)].

٢- **قال تعالى:** ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾[الأعراف:٢٠٣].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٢).

(٢) تفسير السعدي (ص:٢٦٨).

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٥٧).

﴿ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾ يعني: إذا لم تأت المشركين بآية.

﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ هلا افْتَعَلْتَها وأنشأتَها من قِبَل نفسك واختيارك؟ تقول العرب: اجْتَبيتُ الكلام إذا اخْتَلَقْتُه.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾[1]، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبْيَن الدلالات، وأصدق الحجج والبينات[2]، فقال: ﴿هَٰذَا﴾ يعني: القرآن ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ ورد هذا الوصف الجليل لكتاب الله تعالى في معرض الردّ على طالبي الآيات والمعجزات، فبيّن لهم أن أعظم آية مَنَّ الله تعالى بها على عبده ﷺ هو هذا القرآن، "فذكر له ثلاثة أوصاف:

أولها: أنه بصائر من الله تعالى لا من غيره، فالقرآن سبب لبصائر العقول في دلائل التوحيد، والنبوة، والمعاد.

وثانيها: أنه هدى، والفرق بين هذه المرتبة وما قبلها: أن الناس في معارف التوحيد والنبوة والمعاد قسمان:

أحدهما: الذين بَلَغوا في هذه المعارف إلى حيث صاروا كالمشاهدين لها، وهم أصحاب عين اليقين.

والثاني: الذين ما بلغوا إلى ذلك الحد؛ إلا أنهم وصلوا إلى درجات المستَدِلِّين، وهم أصحاب علم اليقين.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٣/ ٣١٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٥).

فالقرآن في حق الأولين وهم السابقون: بصائر، وفي حق القسم الثاني وهم المقتصدون: هدى، وفي حق عامة المؤمنين: رحمة، ولما كانت الفرق الثلاث من المؤمنين لا جرم قال: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾"(١).

فلا تعارض بين الأوصاف الثلاثة؛ فإن القرآن: بصائر وهدى ورحمة، وقد أكَّد كون القرآن سببًا للرحمة بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾[الأعراف:٢٠٤].

٣- قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾[الجاثية:٢٠].

والمعنى هذا القرآن بصائر للناس جعل ما فيه من البينات الشافية، والبينات الكافية بمنزلة البصائر في القلوب، كما جعل في سائر الآيات روحًا وحياة(٢).

من دلالات وصف القرآن بـ (البصائر):

- أن خير ما يجلّي البصائر ويقوّي إدراك القلب وفهمه هو القرآن، فمن أراد البصيرة في أي أمر من أموره كترجيح مسألة علمية، أو أراد الهداية وزيادة الإيمان والتقوى فعليه بملازمة القرآن تلاوة وتدبرًا وسماعًا.

- أن القرآن كلام الله كله حق، وقد اشتمل على أفضل الأدلة والبراهين والبصائر التي يحتاج إليها المسلم في إثبات الحق ودفع الباطل، فمن اعتمد على القرآن قويت حجته عند الجدال مع أهل الباطل، فالقرآن سلاح

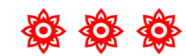
---

(١) تفسير الرازي (١٥/ ٤٣٩).

(٢) تفسير الرازي (٢٧/ ٦٧٥).

المؤمنين في الرد على الملاحدة وسائر أتباعهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾[الفرقان:٥٢].

- أن (بصائر) جمعٌ ونكرة، وذلك يدل على كثرة تلك البصائر، فليست مُخَصَّصة بفن من فنون البلاغة والفصاحة والبيان، ولا هي مُخَصَّصة بأخبار الأولين السابقين، ولا بالأخبار الغيبية، ومنها ما قد وقع، ومنها ما سيقع قطعًا لا شك فيه ولا ريب، ومن تلك البصائر ما فتح الله به على البشر من علوم ثبت توافقها مع القرآن، وهو المعروف باسم الإعجاز العلمي.





١- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧﴾ [ص:٦٧].

٢- قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ:١-٢].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف في هذين الموضعين فقط من القرآن.

ومعنى النبأ: **خبر ذو فائدة عظيمة**، يحصل به علم أو غلبة ظن، **ولا يقال للخبر في الأصل: نبأ، حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة**، فلا يقال للخبر عن الأمور المعتادة: نبأ [(١)].

سبب وصف القرآن بـ(النبأ):

وصِف القرآن بالنبأ؛ لأنه خبر عن الله تعالى، وتضمن أعظم الأنباء المتعلقة بالله ﷻ، وصفاته، وأفعاله، وأنباء رسله وأنبيائه، ونشأة البشرية، وأنباء الأمم السابقة، ونبأ القيامة، والجنة والنار، وأنباء الحلال والحرام، والأخلاق، والمعاملات وغيرها[(٢)].

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧﴾ [ص:٦٧].

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٧٨٨-٧٨٩)، التحرير والتنوير (٣٠/ ٩).

(٢) ينظر: الهدى والبيان في أسماء القرآن (٢/ ٣٥).

جمهور المفسرين على أن **النبأ هنا هو القرآن**(١)، قال ابن جرير رحمه الله: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك المكذبيك فيما جئتهم به من عند الله من هذا القرآن، القائلين لك فيه: إن هذا إلا اختلاق: هذا القرآن خبر عظيم"(٢).

٢- قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾[النبأ:١-٢].

قال ابن جزي رحمه الله: "أصل ﴿عَمَّ﴾: (عن ما)، ثم أدغمت النون في الميم، وحذفت ألف (ما) لأنها استفهامية، تقديرها: عن أي شيء يتساءلون، وليس المراد بها هنا مجرد الاستفهام، وإنما المراد تفخيم الأمر.

والضمير في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لكفار قريش، أو لجميع الناس، ومعناه: يسأل بعضهم بعضا ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾"(٣).

وقال ابن عاشور رحمه الله: "التعريف في ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ تعريف الجنس، **فيشمل كل نبأ عظيم أنبأهم الرسول ﷺ به**، وأول ذلك: **إنباؤه بأن القرآن كلام الله، وما تضمنه القرآن من إبطال الشرك، ومن إثبات بعث الناس يوم القيامة**"(٤).

وهذا القرآن أصبح حديث أهل مكة، ثم انتقل من عندهم إلى حواضر بلاد العرب وقبائلها، ووصل نبؤه إلى اليهود الذين استوطنوا المدينة وخيبر وتيماء؛ لأنه ثبت عندهم في التوراة أنها هي أوصاف أرض النبي ﷺ الخاتم،

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٥٨١).

(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٢٣٥).

(٣) تفسير ابن جزي (٢/ ٤٤٤).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٠).

الموجودة عندهم في التوراة، ولم ينتفعوا بهذا النبأ العظيم، وأكرم الله ﷻ الأنصار به.

من دلالات وصف القرآن بـ (النبأ):

- الاعتناء والاهتمام بأخبار القرآن، فالقرآن لا يأتي بخبر قديم أو قادم إلا ولهذا الخبر أهمية كبيرة وفائدة، **وكلما تكرر الخبر** (القصص وأخبار المعاد وأخبار الغيب...) في القرآن كان هذا دليلًا على مزيد أهميته وشأنه؛ **لأن القرآن فيه النبأ العظيم.**

- الحرص على تلاوة القرآن وفهمه وتدبره أكثر من الحرص على متابعة الأخبار اليومية، فإن القرآن هو أعظم نبأ وخبر، لا كما هو حال كثير من الناس من الاعتناء بالأخبار ونشراتها وتقاريرها، وإهمال القرآن العظيم.

- أن على طلبة العلم والدعاة إلى الله ﷻ أن يجعلوا هذا القرآن العظيم سلاحهم وزادهم في الدعوة إلى الله ﷻ، وفي تزكية النفوس، فهو أعظم نبأ يذيعونه للناس، وينشرونه بينهم.





الوصف العاشر
التنـــزيــل

١- قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾[الفرقان:٦].

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٤].

٣- قال تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الحاقة:٤٣-٤٩].

معنى الوصف:

هذا الاسم باشتقاقاته المختلفة هو أكثر ما ورد في وصف القرآن، حيث ورد باشتقاقاته في أكثر من (١٣٠) موضعًا.

و(تنزيل) مصدر (نزل)، تدل على هبوط شيء ووقوعه، والتنزيل: ترتيب الشيء ووضعه منزله[(١)]، والتنزيل: إنزال الشيء مرتبًا شيئًا بعد شيء[(٢)]، والنزول في مهلة، والحلول والاستقرار[(٣)].

والحكمة -والله أعلم- في تكرار التنزيل بصيغ مختلفة للدلالة على علو

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٤١٧)، المفردات في غريب القرآن (ص:٧٩٩).

(٢) ينظر: شمس العلوم (١٠/ ٦٥٦٥).

(٣) ينظر: المعجم الوسيط (٢/ ٩١٥)، الصحاح (٥/ ١٨٢٩).

الله سبحانه وتعالى، علو الذات وعلو القدر.

سبب وصف القرآن بـ(التنزيل):

وصِف القرآن بـ(التنزيل)؛ لأنه نزل من عند الله ﷺ[(١)]، أو "لأنه نزل نجومًا من بين سائر كتب الله، فكأنه في نفسه تنزيل، ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه، فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل"[(٢)].

ولعل الحكمة في كثرة استخدام هذا الاسم والوصف: التأكيد على أن هذا القرآن ليس كلام محمد ﷺ ولا كلام أحد غيره من البشر، وإنما هو كلام الله تعالى، الذي تكلم به من فوق سبع سماوات، وهذا يتضمن الرد على المكذبين الذين قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾[الأنعام:٩١]، وقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾[الفرقان:٤-٥]، فجاء الرد من الله تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾[الفرقان:٦].

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾[الفرقان:٦].

لا يخفى عليك أيها القارئ الكريم! بأن الفرقان من أسماء القرآن، وقد

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٨١).

(٢) تفسير النسفي (٣/ ٤٢٩).

جاءت الآيات الكثيرة في هذه السورة متعلقة بالقرآن، وجاءت هذه الآية لاحقة لآيتين قبلها، وهما قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ فجاء قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾[الفرقان:٦] جوابًا على شبهة المشركين.

وقد فصّل الرازي رحمه الله هذه الشبهات التي أشارت لها الآيات، ووجّه الجواب عنها، فقال: "قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ﴾، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث، فهو الذي قال هذا القول.

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ﴾ يعني: عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار غلام عامر بن الحضرمي، وجبر مولى عامر، وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب أسلموا، وكان النبي ﷺ يتعهدهم، فمن أجل ذلك قال النضر ما قال.

واعلم أن الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ وهذا القدر يكفي جوابًا عن الشبهة المذكورة؛ لأنه قد علم كل عاقل أنه عليه السلام تحداهم بالقرآن، وهم النهاية في الفصاحة، وقد بلغوا في الحرص على إبطال أمره كل غاية، فلو أمكنهم أن يعارضوه لفعلوا، ولو استعان محمد عليه السلام في ذلك بغيره لأمكنهم أيضًا أن يستعينوا بغيرهم؛ لأن محمدًا ﷺ كأولئك المنكرين في معرفة اللغة، وفي المكنة من الاستعانة، فلما

لم يفعلوا ذلك -والحالة هذه- عُلِم أن القرآن قد بلغ النهاية في الفصاحة، وانتهى إلى حد الإعجاز، ولما تقدمت هذه الدلالة مرات وكرات في القرآن، وظهر بسببها سقوط هذا السؤال، ظهر أن إعادة هذا السؤال بعد تقدم هذه الأدلة الواضحة لا يكون إلا للتمادي في الجهل والعناد، فلذلك اكتفى الله في الجواب بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾، أما أنه ظلم فلأنهم نسبوا هذا الفعل القبيح إلى من كان مبرأ عنه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه، وذلك هو الظلم، وأما الزور فلأنهم كذبوا فيه.

الشبهة الثانية لهم: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ والأساطير: ما سطره المتقدمون.

﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ انتسخها محمد من أهل الكتاب، ومعنى اكتتب هاهنا: أمر أن يُكْتَب له، كما يقال: احتجم وافتصد إذا أمر بذلك.

﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُقْرأ عليه، والمعنى: أنها كتبت له وهو أمي، فهي تلقى عليه من كتابه ليحفظها.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ قال الضحاك: ما يملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية، وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة، وجمهور المفسرين اتفقوا على أن ذلك من كلام القوم، وأرادوا به: أن أهل الكتاب أملوا عليه في هذه الأوقات هذه الأشياء.

وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ وتقريره: ما قدمنا أنه عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها، ولو كان عليه السلام استعان بأحد لكان من

الواجب عليهم أيضًا أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحي الله وكلامه، فلهذا قال: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾؛ وذلك لأن القادر على تركيب ألفاظ القرآن لا بد وأن يكون عالمًا بكل المعلومات ظاهرها وخافيها من وجوه:

أحدها: أن مثل هذه الفصاحة لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات.

وثانيها: أن القرآن مشتمل على الإخبار عن الغيوب، وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات.

وثالثها: أن القرآن مبرأ عن النقص، وذلك لا يتأتى إلا من العالم على ما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء:٨٢].

ورابعها: اشتماله على الأحكام التي هي مقتضية لمصالح العالم ونظام العباد، وذلك لا يكون إلا من العالم بكل المعلومات.

وخامسها: اشتماله على أنواع العلوم، وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات.

فلما دل القرآن من هذه الوجوه على أنه ليس إلا كلام العالم بكل المعلومات؛ لا جرم اكتفى في جواب شبههم بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾"(١).

قال ابن عاشور ﵀: "والتعريف في ﴿ٱلسِّرَّ﴾ يستغرق كل سر، ومنه إسرار الطاعنين في القرآن عن مكابرة وبهتان، أي: يعلم أنهم يقولون في القرآن

(١) تفسير الرازي (٢٤/ ٤٣٢-٤٣٤) مختصرًا.

ما لا يعتقدونه ظلمًا وزورًا منهم، وبهذا يعلم موقع جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ ترغيبًا لهم في الإقلاع عن هذه المكابرة، وفي اتباع دين الحق ليغفر الله لهم ويرحمهم، وذلك تعريض بأنهم إن لم يقلعوا ويتوبوا حق عليهم الغضب والنقمة"[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٤].

قال ابن عطية رحمه الله: "الضمير في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ للقرآن، أي إنه ليس بكهانة ولا سحر، وإنما هو من عند الله تعالى، و﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ جبريل عليه السلام بإجماع"[(٢)].

قال ابن عاشور رحمه الله: "والتنزيل مصدر بمعنى المفعول؛ للمبالغة في الوصف، حتى كأن المنزل نفس التنزيل.

ومعنى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ لتكون من الرسل، واختير من أفعاله النذارة؛ لأنها أخص بغرض السورة، فإنها افتتحت بذكر إعراضهم وبإنذارهم"[(٣)].

ومن الترابط الملفت بين أول السورة وآخرها: أن الله سبحانه قال في أول السورة: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾[الشعراء:٤] ولكن لم يشأ الله تعالى ذلك، وإنما اختار لهم أن تكون هذه الآية والمعجزة

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٢٦).

(٢) تفسير ابن عطية (٤/ ٢٤٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٨٨).

هي القرآن، التي ذكرها في آخر السورة بعد أن ذكر المعجزات التي نزلت على الأنبياء من قبل، وما أصاب أقوامهم المكذبين لهم.

٣- قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾[الحاقة:٤٣-٤٩].

التنزيل هنا مصدر بمعنى المفعول، أي: المُنَزَّل، وإنما جيء به بالمصدر زيادةً في شرفه وعظمته، كما يقال في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾[لقمان:١١] أي: مخلوقه، تعظيمًا لشأنه(١).

قال السعدي: "﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة؛ هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمه الدينية والدنيوية، ومن أجلِّ تربيةٍ ربّى بها عباده إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكورًا"(٢).

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ "سمي الافتراء تقوّلًا؛ لأنه قول متكلف، والأقوال المفتراة: أقاويل، تحقيرًا لها، كأنها جمع (أُفْعُولة) من القول، كالأضاحيك"(٣).

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ أي: لأخذنا بيمينه.

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٩/ ٤٣٣).

(٢) تفسير السعدي (ص:٨٣٦).

(٣) تفسير أبي السعود (٩/ ٢٧).

﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾ قال ابن عاشور ﵀: "الوتين: عرق معلق به القلب، ويسمى: النياط، وهو الذي يسقي الجسد بالدم، ولذلك يقال له: نهر الجسد، وهو إذا قُطِع مات صاحبه، وهو يقطع عند نحر الجزور؛ فقطع الوتين من أحوال الجزور ونحرها، فشبَّه عقاب من يفرض تقوّله على الله بجزور تنحر فيقطع وتينها، ولم أقف على أن العرب كانوا يكنون عن الإهلاك بقطع الوتين، فهذا من مبتكرات القرآن.

وهذه الآية دليل على أن الله تعالى لا يُبقِي أحدًا يدَّعي أن الله أوحى إليه كلامًا يبلغه إلى الناس، وأنه يُعَجِّل بهلاكه"(١).

﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾ "أي: ليس أحد منكم يحجزنا عنه، ويحول بيننا وبين عقوبته، لو تقوّل علينا"(٢).

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ "أي: القرآن الكريم.

﴿لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها، ويعملون عليها، يذكرهم العقائد الدينية، والأخلاق المرضية، والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين.

﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩﴾ به، وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين، فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ فإنهم لما كفروا به، ورأوا ما وعدهم به،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٤٦-١٤٧) مختصرًا.

(٢) تفسير القاسمي (٩/ ٣١٥).

تحسّروا؛ إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب"[1]، كما أن هناك حسرة للكافرين في الدنيا، حين يرون أن القرآن قد حال بينهم وبين ما يريدون الوصول إليه؛ من إفساد مفاهيم الإسلام وتغييرها، فوقف لهم القرآن سدًّا منيعًا حتى عجزوا عن ذلك.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ قال ابن جرير رحمه الله: "يقول: وإنه للحقّ اليقين الذين لا شكّ فيه أنه من عند الله، لم يتقوّله محمد ﷺ"[2].

وقد جاءت هذه الآية: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ في موضعين من القرآن: في سورة الواقعة، وفي سورة الحاقة، وتشابهت الآيتان في أمور:

- كلتا السورتين تتحدث عن القيامة، وكل واحدة لها اسم من أسمائه.

- كلتا الآيتين جاءت في أواخر السورة.

- كلتا الآيتين جاءت في سياق الرد على المشككين في أن القرآن كلام الله ووحيه، ففي سورة الواقعة يقول تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾[الواقعة:٨٠-٨٢]، وفي سورة الحاقة يقول سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الحاقة:٤١-٤٧].

---

(١) تفسير السعدي (ص:٨٨٤).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ٥٩٥).

- سُبِقت الآيتان بالقسم الذي يراد منه تأكيد صدق القرآن، ففي سورة الواقعة قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾[الواقعة:٧٥-٧٩]، وفي سورة الحاقة قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾﴾[الحاقة:٣٨-٤٠].

- خاتمة السياق الذي وردت فيه هاتان الآيتان واحد، وهو قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[الواقعة:٩٥-٩٦]، وفي سورة الحاقة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾[الحاقة:٥١-٥٢].

والضمير في (إنه) يعود على القرآن كله، أو على الآيات التي سبقت في السورة(١).

من دلالات وصف القرآن بـ (التنزيل):

- وجوب تعظيم القرآن وإجلاله وتقديره حق قدره، فهو كتاب نزل من عند رب العالمين، وكان نزوله على أفضل الهيئات وأحسنها وأجلِّها.

- أن القرآن لم ينزل مرة واحدة، بل كان يتنزل شيئًا فشيئًا، وهذا فيه حكم عظيمة، منها: أنه أدعى للفهم، وأدعى للحفظ، وأبلغ في الإعجاز حين يسألون فينزل القرآن بالجواب، ومنها: التخفيف والتدرج في التشريع، وتثبيتًا للمؤمنين.

- كما أن تنزيل القرآن كان من رب العالمين محاطًا بأعلى درجات

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٣، ٥٩٥)، تفسير ابن عطية (٥/ ٢٥٥، ٣٦٣).

التشريف والتكريم والحفظ والصيانة، فكذلك سيظل القرآن محفوظًا مصانًا بحفظ الله تعالى، فهو تنزيل من بيده مقاليد السموات والأرض، وخالق الأكوان ومالكها، ومدبر الأمر كله.

- وصف القرآن اليوم بكونه تنزيلًا يجعل السامع يستحضر قرب العهد بالتنزيل، وكأنه الآن ينزل فلا يزال محفوظًا كما أنزل، ومن ادَّعى تحريفه فإن مقتضى قوله أن القرآن لم يَعُد تنزيلًا.

- تدل هذه النصوص الكثيرة على إثبات علو الله سبحانه وتعالى على خلقه واستوائه على عرشه؛ إذ النزول لا يكون إلا من علو.





قال تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣﴾ [الطور:١-٣].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف للقرآن في موضع واحد فقط، في سورة الطور.

والسطر هو الصف من الكتابة، ومسطور أي: مكتوب[١].

سبب وصف القرآن بـ(المسطور):

وصف القرآن بأنه مسطور لأنه مكتوب في سطور؛ وهذا ليبين لنا كيفية كتابته أن تكون على وجه الانتظام، فإن السطر ترتيب للحروف المكتوبة[٢]، ومحل كتابته تكون في الورق المبسوط.

بيان الآية:

أقسم الله بالجبل الذي كلّم عليه موسى عليه السلام، وأقسم بالقرآن الذي هو كتاب مسَطّر، في ورق مبسوط مفتوح[٣]، فقال تعالى: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾ أي: وكتاب مكتوب، وهو القرآن الكريم، مكتوب في المصاحف، وفي اللوح المحفوظ[٤].

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٤٠٩)، التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٧).
(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٨/ ١٤٦).
(٣) ينظر: المختصر في التفسير (ص:٥٢٣).
(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٥٩).

﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ أي: في ورق مبسوط[1].

من دلالات وصف القرآن بـ (المسطور):

- توجيه الله ﷻ أمة محمد ﷺ لكتابة القرآن، يستفاد منه مشروعية تعلم الكتابة وقواعدها وآدابها، وخاصة كتابة القرآن الكريم، الذي هو كتاب مسطور.

- أن في هذا الوصف إشارة لحفظ القرآن، فهو كتاب محفوظ؛ لأنه مسطور، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فالقرآن محفوظ بالسطور، كما هو محفوظ بالصدور، فلا يقبل ما في الصدور حتى يطابق ما في النسخ المكتوب، ولا يُقر المكتوب حتى يشهد له الحفاظ بصحته.

- أن هذا الكتاب هو كتاب علم، ولذا رفع الله من شأن القراءة والقلم وهو أداة الكتابة؛ فقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾[العلق: ١-٤].



(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٧٥).



الوصف الثاني عشر
العَجَــــب

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن:١-٣].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف للقرآن مرة واحدة في سورة الجن.

(عَجَب) مصدرٌ يوضع موضع العجيب، وفيه مبالغة، وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره[(١)]، قال الراغب: "العَجَبُ والتَّعَجُّبُ: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء... ويقال للشيء الذي يُتَعَجَّبُ منه: عَجَبٌ، ولِما لم يعهد مثله: عَجِيبٌ. ﴿قُرْآنًا عَجَبًا ۝١﴾ أي: لم يعهد مثله، ولم يعرف سببه"[(٢)].

سبب وصف القرآن بـ(العَجَب):

وصِف القرآن بالعجب لفصاحة كلامه، وحسن مبانيه، ودقة معانيه، وغرابة أسلوبه، وبلاغة مواعظه، وكونه مباينًا لسائر الكتب[(٣)].

وقد وصف الله تعالى القرآن بالعَجَب على لسان الجن؛ إذ أنه لم يكن

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/ ٦٢٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص:٥٤٧).

(٣) ينظر: البحر المحيط (١٠/ ٢٩٣).

مألوفًا لديهم، فأثار الدهشة في قلوبهم، واستولى على مشاعرهم، وجذبهم ببلاغته وهز أوتار قلوبهم؛ فكان نتيجة ذلك إيمانهم في الحال، وليس ذلك فحسب، بل جعلهم هذا التأثير العجيب يرجعون إلى قومهم ليصفوا لهم تلك المشاعر الفياضة، ويدعوهم إلى الإيمان به واتباعه.

فالقرآن إذا استمع إليه السامع بإنصات وتدبر، فتح الله عليه الهداية، ونزلت عليه الرحمة، قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾[الأعراف:٢٠٤].

بيان الآية:

جاء في سبب نزول الآية عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيءٌ حَدَث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة، عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم، وقالوا: يا قومنا! ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾[الجن:١-٢]، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ

﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾[الجن:١]، وإنما أوحي إليه قول الجن»[١].

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أي: يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن؛ فآمنوا به، وصدّقوه، وانقادوا له[٢].

﴿فَقَالُوا﴾ أي: لما رجعوا إلى قومهم.

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ كتابًا جامعًا للحقائق الإلهية والكونية، والأحكام والمواعظ، وجميع ما يُحتاج إليه في أمر الدارين، كتابًا غريبًا، لا تناسبه عبارة الخلق، ولا يدخل تحت قدرتهم[٣].

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله: "أي: يدعو إلى الصواب من التوحيد والإيمان.

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا﴾ أي: لن نعدل بربنا أحدًا من خلقه، وقيل: عنوا إبليس، أي: لا نطيعه في الشرك بالله"[٤].

من دلالات وصف القرآن بـ (العجب):

- عظمة تأثير القرآن على القلوب والعقول والنفوس، وقدرته على إثارة

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٥٤) برقم: (٧٧٣)، ومسلم (١/ ٣٣١) برقم: (٤٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٢٣٧).

(٣) ينظر: تفسير القاسمي (٩/ ٣٢٩).

(٤) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٤٦).

الإعجاب ولفت انتباه السامعين إليه، ولو كانوا من غير الإنس.

- المعروف عن الجن نقصان عقولهم عن البشر، إلا أنهم تأثروا بالقرآن، وتعجبوا من فصاحته وبلاغته ومعانيه، فكيف سيكون أثره على عقلاء البشر؟! وهذا يدعو إلى الاجتهاد في إبلاغ القرآن وإيصاله لجميع الناس؛ ليكون سببًا في هدايتهم، وإقامة حجة الله تعالى عليهم.

- العناية بتحبير القرآن وتلاوته على أتم وأحسن وجه، فإذا كان القارئ متقنًا للتلاوة ومخارج الحروف، وقرأ قراءة مرتلة، وزيَّن القرآن بصوته، فإنه تَنْشَدُّ الآذان له، وتُصغي إليه الأفئدة، كما حصل لهؤلاء الجن الذين سمعوا القرآن، وفي الحال آمنوا به، ولم يطلبوا زيادة أدلة ولا دخلوا في نقاش، وهذا لسطوة القرآن، فالقرآن له أثر عجيب على القلوب والمشاعر، لا سيما مع الخشوع والاستحضار والتدبر، وكم من إنسان انفتح قلبه للهداية بسماع آيات من القرآن، من عهد الجاهلية إلى اليوم، وربما يكون هذا الشخص ممن لا يعرف العربية!

- أهمية ترجمات القرآن، وضرورة العناية بها، وإسنادها إلى البلغاء المتقنين للعربية واللغة المترجم إليها، وضرورة البذل والاجتهاد في نشر ترجمات القرآن.





قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود:١٧].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف في هذا الموضع فقط.

والشاهد اسم فاعل من (شهد)، والشهادة: الحضور مع المشاهدة؛ إما بالبصر أو بالبصيرة[(١)].

والشهادة لها أربعة مراتب: "فأول مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته، وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يُعلِم به غيره، بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها، وثالثها: أن يُعلِم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له، ورابعها: أن يلزمه بمضمونها، ويأمره به"[(٢)].

سبب وصف القرآن بـ(الشاهد):

وصِف القرآن بـ(الشاهد) لأنه يخبِر بالحق، ويبيّنه للناس، ويُلزِمهم بالأخذ به والعمل بمقتضاه، وهو شاهد لوحدانية الله تعالى، وشاهد لنبوة

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٤٦٥).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤١٨).

محمد ﷺ، وشاهد على الكتب السابقة بما فيها من الحق وما طرأ عليها من التحريف، وشاهد لصدق الأنبياء وما بلغوا من رسالة الله تعالى لأممهم، وشاهد على الأمم المكذبة والمخالفة، وشاهد للعبد إذا عمل به وشاهد عليه إن قصَّر.

وباتفاق العقلاء على مر العصور والدهور أن الشاهد لا بد أن يكون عدلًا، فلا تقبل شهادة من يُلَقَّن الشهادة ولا يتقنها، وكذلك من هو متبع لهواه.

ووَصْفُ القرآن بأنه شاهد فيه دلالة قطعية على أن القرآن حق، لا زيادة فيه ولا نقصان، وهو محفوظ بحفظ الله ﷻ له.

بيان الآية:

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: أفمن كان يريد الحياة الدنيا، كمن كان على بينة من ربه، وهو النبي ﷺ، وأوائل من آمنوا به لصدقه وأمانته وكمال خلقه(١).

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ المراد بالشاهد هو القرآن، و(منه) أي: من الله(٢).

وقال ابن كثير: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقيل: الشاهد جبريل، وقيل: هو محمد ﷺ، وكلاهما قريب في المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد، صلوات الله عليهما، بلغ رسالة الله تعالى،

---

(١) ينظر: تفسير ابن جزي (١/ ٣٦٧).

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (١٧/ ٣٢٩).

فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى، وهو التوراة.

﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركيهم (أهل الكتاب وغيرهم)، ممن بلغه القرآن فالنار موعده[(١)].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: "ولكن أكثر الناس لا يصدقون بأن ذلك كذلك"[(٢)].

يذكر الله تعالى في هذه الآية أدلة إثبات نبوة محمد ﷺ.

فالدليل الأول: فطرة الله تعالى التي فطر عليها نبيه من صفاتٍ حميدة عالية، وبُغضٍ لآلهة المشركين، وإيمانٍ بالله تعالى، فهي فطرة سليمة لم يُقدَّر لها من يَحرفها عن مسارها الصحيح.

ثم كان الدليل الثاني: القرآن الحكيم وهو الشاهد بصدق نبوته بما فيه من إعجاز وفصاحة وإخبار بالمغيبات "**فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فإنه الدعوة والحجة، وهو الدليل والمدلول عليه، وهو**

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٢-٣١٣).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٢٧٩).

الشاهد والمشهود له، وهو الحكم والدليل، وهو الدعوى والبينة"[(١)].

والدليل الثالث: التوراة أعظم الكتب المنزلة قبل القرآن، فيها ذكره، وذكر أوصافه، فمن كفر بعد كل هذه الأدلة فهو معاند مكابر، عقابه الخلود في النار. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[الأعراف:١٥٧].

من دلالات وصف القرآن بـ (الشاهد):

- أن يجتهد العبد في أخذ القرآن والعمل به، فهو شاهد مصدّق يوم القيامة، فإما أن يكون حجة له، أو يكون حجة عليه.

- أن القرآن يشهد للعبد في الدنيا قبل الآخرة، فمن كان في إيمانه وعمله وأخلاقه على هدي القرآن وطريقه فهو المؤمن، ومن كان على غير ذلك فالقرآن شاهد على انحرافه، ولهذا كان القرآن شاهدًا على المنافقين بما بيّن وأوضح من صفاتهم التي يُعرفون بها في الدنيا.

- تقوية عزائم أهل الحق وتثبيتهم عليه، فالقرآن من أهم الأسباب التي تعين على الثبات على الحق، فالحق الذي يشهد له القرآن بالصحة، لا يضره تكذيب وإنكار الناس له، فشهادة القرآن كافية، ويزداد المؤمن إيمانًا بتلاوة القرآن وتدبره وتعظيمه وتوقيره والعمل به.



(١) التفسير القيم (ص:١٩٧) بتصرف.



المبحث الثاني

أوصاف القرآن
الدالة على
الهداية والإرشاد



وفيه الأوصاف التالية:

الوصف الأول: الهدى

الوصف الثاني: الذكر

الوصف الثالث: التذكرة

الوصف الرابع: النذير

الوصف الخامس: الموعظة

الوصف السادس: النور

الوصف السابع: الفرقان

الوصف الثامن: القيِّم

الوصف التاسع: الروح

تمهيد

وصف الله تعالى كتابه العظيم بأوصاف عديدة تدل على أنه كتاب جاء لهداية الناس وإرشادهم ودلالتهم على أفضل السبل وأقوم الطرق، وأن هذا الكتاب يهدي ويعظ ويذكّر، وهو لصاحبه نور وفرقان، يفرّق به بين الحق والباطل، وهو سر الحياة الإيمانية والثبات على صراط الله المستقيم، وكل هذه الأوصاف تحقق للعبد الهداية التامة، والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة.

وفيما يأتي جملة هذه الأوصاف التي وردت في شأن القرآن العظيم.



١- قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾[البقرة:٢].

٢- قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[البقرة:١٨٥].

٣- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ ﴾[الإسراء:٩].

معنى الوصف:

ورد وصف القرآن بـ(الهدى) مُعرَّفًا ومنكَّرًا في قرابة (٢٤) موضعًا من القرآن، وورد وصفه بأنه (يهدي) في قرابة (٥) مواضع.

والهدى: مصدر بمعنى التقدّم للإرشاد، وبمعنى خلاف الضلالة، والدلالة بلطف(١).

سبب وصف القرآن بـ(الهدى):

وصِف القرآن بـ(الهدى) لأن فيه دلالة بينة إلى الحق، وتفريقًا بينه وبين الباطل(٢).

فالقرآن هو الكتاب العظيم المشتمل على علم اليقين، المزيل للشك والريب، والذي به تحصل الهداية من الضلالة والشُبَه، والهداية إلى سلوك

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٦/ ٤٢)، المفردات غريب القرآن (ص:٨٣٥).

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٧٩).

الطرق النافعة، والقرآن في نفسه هدى لجميع الخلق[١].

فهو الهدى من الضلالة والعمى، وهو الهدى من الكفر والنفاق، وهو الهدى من الظلم والحيرة والارتباك، وهو الهدى من الفسق والفجور، وهو الهدى من العناء والشقاء، وهو الهدى من الشرك والشك والريب، وهو الهدى من كل محنة وبلاء[٢].

بيان الآيات:

١- **قال تعالى**: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[البقرة:٢].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: هذا الكتاب وهو القرآن[٣]، والعرب تستعمل كلًا من (ذلك) و(هذا) مكان الآخر[٤].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه أنه من عند الله ﷻ، وأنه الحق والصدق[٥]، وهو تأكيد للحفظ وعدم إمكانية الزيادة عليه أو النقص منه، ففيه دلالة قطعية ظاهرة على نفي ادعاء إدخال ما ليس فيه، أو حذف كلمات أو آيات منه.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ أي: هو رشد وبيان لأهل التقوى[٦]، «والمراد بالهداية هنا: الدلالة على الصراط المستقيم، مع المعونة الخاصة والأخذ باليد؛ لأن

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص:٤٠).
(٢) ينظر: الهدى والبيان في أسماء القرآن (ص:١٨٩).
(٣) ينظر: تفسير البغوي (١/ ٥٩).
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٦٢).
(٥) ينظر: تفسير البغوي (١/ ٥٩).
(٦) تفسير البغوي (١/ ٦٠).

كونه هاديًا للمتقين بالفعل، غير كونه هاديًا -دالًّا- لسائر الناس من غير مراعاة أخذهم بدلالته، واستقامتهم على طريقته»[(١)].

فإذا كان هذا الكتاب هو كتاب الهدى والنور المبين، فلا يتأهل لتحصيل ذلك الهدى إلا من عَمَرت قلبَه التقوى، فهي الصفة التي تهيئه للانتفاع به، وجَنْي هذه الثمرة العظيمة.

وكونه هدى للمتقين خصوصًا لا ينفي كونه هدى للناس عمومًا، كما في الآية التالية، وإنما كان تخصيص المتقين بالهداية؛ لأنهم هم المنتفعون بالقرآن؛ لإقبالهم عليه، بينما أعرض عنه الآخرون، ولم يرفعوا به رأسًا، فلم ينتفعوا به.

وهناك وجه آخر، وهو أن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها، ليست هداية حقيقية تامة[(٢)].

وذهب ابن عاشور رحمه الله إلى أن التقوى هنا تفسر بالمعنى اللغوي وليس الشرعي، فالمتقي هو الحذِر المتطَلِّب للنجاة من شيء مكروه مضر، فالمتقون في الآية هم الذين تجردوا عن المكابرة، ونزهوا أنفسهم عن حضيض التقليد للمضلين، وخشوا العاقبة، وصانوا أنفسهم من خطر غضب الله[(٣)].

(١) ينظر: تفسير المنار (١/ ١٠٥).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص:٤٠).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٢٦).

٢- **قال تعالى:** ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[البقرة:١٨٥].

قال البغوي ﷺ: «قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ من الضلالة.

﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: دلالات واضحات من الحلال والحرام، والحدود والأحكام.

﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: الفارق بين الحق والباطل»[(١)].

وهنا سؤال وهو: لماذا كرَّر ذكر (بينات من الهدى) بعد قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؟ هناك أجوبة[(٢)] في ذلك، من أوضحها: أن هذا من عطف الخاص على العام، وهو معروف في لغة العرب، وفيه فوائد عظيمة منها: الدلالة على أن القرآن فيه حجج وبراهين وبصائر للناس، وفيه أمثال لا يعقلها إلا العالمون، وفيه آيات تحتاج إلى تفكر وتدبر؛ لكي تظهر هداياتها وإعجازها وبلاغتها، وما فيها من تشريع وحكم؛ وحتى تشرق تلك الأنوار بإعمال العقول.

وهذا من رحمة الله ﷻ بخلقه، حيث أمرهم بالتدبر وإعمال الفكر والتفكر فيه، وفتح لعباده أبواب خير عظيمة في هذا التدبر؛ لتظهر تلك الهدايات والبينات، وليظهر مدى موافقة القرآن العظيم لما دلت عليه العلوم التجريبية اليوم، فهو كلام الله، ليس فيه خرافات، ولا يصادم الحقائق العلمية الثابتة.

---

(١) تفسير البغوي (١/ ١٩٩).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (١/ ٢٣٧)، تفسير ابن جزي (١/ ١١١)، التحرير والتنوير (٢/ ١٧٣).

٣- قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[الإسراء:٩].

قـال ابـن كثيـر رحمه الله: «يمـدح تعـالى كتابـه العزيـز الـذي أنزلـه علـى رسـوله محمد ﷺ (وهو القرآن) بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل.

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: يوم القيامة»[(١)].

وقال الشنقيطي رحمه الله: "وهذه الآية الكريمة أجمل الله ﷻ فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة"[(٢)].

فالقرآن (يهدي): فعل مضارع، وهو يدل على استمرار الزمان، فيشمل الهدى أقوامًا وأجيالًا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

فالقرآن يهدي للتي هي أقوم بالعقيدة الواضحة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تحرر الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، فيما فيه صلاح الإنسان وعمارة الأرض.

والقـرآن يهـدي للتي هـي أقـوم فيـربط بيـن ظـاهر الإنسـان وباطنـه، وبيـن

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٨).

(٢) أضواء البيان (٣/ ١٧).

مشاعره وسلوكه، فالنية هي الأصل في الإخلاص: «**إنما الأعمال بالنيات**»[(١)]، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى الأعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعًا واستمتاعًا بالحياة.

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة؛ بالموازنة بين التكاليف الشرعية والطبيعية البشرية، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادًا وأزواجًا، وحكومات وشعوبًا، ودولًا وأجناسًا، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض، الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض، وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم، ونظام المال، ونظام الاجتماع، ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

من دلالات وصف القرآن بـ (الهدى):

- أن الهدى الحقيقي التام هو الهدى الذي جاء به القرآن، فمهما التمس الإنسان الهدى في غير القرآن فلن يجده.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٦) برقم: (١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥) برقم: (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

- أن معيار الاهتداء ومقياسه هو القرآن، فإذا أراد الإنسان أن يزن نفسه أو غيره من حيث تحقق الاهتداء فليعرض نفسه على القرآن، وليزن أقواله وأفعاله بميزان القرآن، وسيتبين له حاله بجلاء.

- أن هدايات القرآن عظيمة جدًّا، إلا أن الناس يتفاوتون في إدراك هذه الهدايات بحسب درجات إيمانهم ويقينهم وتقواهم، فهدايات القرآن ليست مجرد معلومات تُحفظ وتُفهم، بل هي فهم، وإدراك، وتدبر، وشعور، وأحاسيس ﴿ ۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾[الحديد:١٦] وعمل وسلوك وتطبيق، ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾، ولن يصل الإنسان إلى تمام هدايات القرآن إلا بهذا.





الوصف الثاني
الذكـــــــر

١- قـال تعـالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [يوسف:١٠٤].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾[الحجر:٩].

٣- قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ٤٤﴾[الزخرف:٤٤].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف في (٢٩) موضعًا من القرآن.

(الذكر) يأتي بمعنى استحضار الشيء خلافًا لنسيانه، يقال: اجعله منك على ذُكر، أي: لا تنسه، ويأتي بمعنى العلاء والشرف، كما أنه يأتي بمعنى التلفظ بالشيء(١).

سبب وصف القرآن بـ(الذكر):

وأما وصفه بالذكر، ففيه قولان:

أحدهما: أنه ذِكْر من الله تعالى، ذكّر به عباده؛ فعرّفهم تكاليفه وأوامره.

والثاني: أنه ذِكْر وشرف وفخر لمن آمن به، وأنه شرف لمحمد ﷺ، وأمته(٢).

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٣٥٨-٣٥٩)، المفردات في غريب القرآن (ص:٣٢٨)، التحرير والتنوير (١٤/ ١٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٩٩)، تفسير الرازي (٢/ ٢٦١).

قال ابن عاشور رحمه الله: "فتسمية القرآن ذكرًا تسمية جامعة عجيبة، لم يكن للعرب علم بها من قبل أن ترد في القرآن، وكذلك تسميته قرآنًا؛ لأنه قصد من إنزاله أن يقرأ.

فصار الذكر والقرآن صنفين من أصناف الكلام الذي يلقى للناس لقصد وعيه وتلاوته، كما كان من أنواع الكلام: الشعر والخطبة والقصة والأسطورة.

ويدلك لهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩)﴾ [يس:٦٩]، فنفى أن يكون الكتاب المنزّل على محمد ﷺ شعرًا، ووصفه بأنه ذكر وقرآن، ولا يخفى أن وصفه بذلك يقتضي مغايرة بين الموصوف والصفة، وهي مغايرة باعتبار ما في الصفتين من المعنى الذي أشرنا إليه؛ فالمراد: أنه من صنف الذكر، ومن صنف القرآن، لا من صنف الشعر، ولا من صنف الأساطير"[١].

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف:١٠٤].

أي: وما تسأل يا محمد هؤلاء الذين ينكرون نبوتك، ويمتنعون من تصديقك، والإقرار بما جئتهم به من عند ربك على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك، وهجر عبادة الأوثان، وطاعة الرحمن من ثواب وجزاء منهم، فيقولون لك: إنما تريد بدعائك إيَّانا إلى اتِّباعك؛ لننزل لك عن

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٧).

أموالنا إذا سألتنا ذلك، وإذ كنت لا تسألهم ذلك فقد كان حقًّا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إلى ما تدعوهم إليه؛ اتباعًا منك لأمر ربك، ونصيحة منك لهم، وأن لا يستغشُّوك[(١)].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يخبر الله تعالى عن كتابه العزيز أنه ذكر وموعظة لجميع العالم[(٢)] من الإنس والجن، يتذكرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة.

فلا ينبغي لك أيها الداعية أن تسأل الأجر على دعوتك، ولا أن تتطلَّع لما في أيدي الناس؛ بل تذكِّرُهم بآيات الله، وتوجِّه إليها أبصارهم وبصائرهم، وهذه الآيات مبذولة للعالمين، فكل الناس فيها سواء، لا ميزة فيها لأمّة أو جنس، ولا وجاهة أو غِنى، فمن أرادها وجدها.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩].

تأمل في المؤكدات والتفخيم والتعظيم، الله يقول: ﴿إِنَّا﴾، ثم ﷻ تحدث بضمير المتكلم مع التفخيم: ﴿نَحْنُ﴾، ثم عظّم الله ﷻ حفظ القرآن في الإنزال، فنسب الإنزال إلى نفسه ﷻ، فقال: ﴿نَزَّلْنَا﴾، ثم قال: ﴿لَهُ﴾ أي: لهذا الذكر، ﴿لَحَافِظُونَ﴾؛ فالله هو الحافظ له، بخلاف الكتب السابقة فإن الله ﷻ قد استحفظ أهلها عليها.

وهذه المؤكدات، وهذا التعظيم كله لبيان عظم ما سيكون الحديث عنه.

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٣/ ٣٧١).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (٣/ ٢٨٥).

قال ابن جرير رحمه الله: "يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ وهو القرآن.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطلٌ مَّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه"[١].

وقال الرازي رحمه الله: "أعْجَزَ الخلق عن إبطاله وإفساده؛ بأن قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف، وقال آخرون: المراد بالحفظ هو أن أحدًا لو حاول تغييره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا: هذا كذب وتغيير لكلام الله تعالى، حتى إن الشيخ المهيب لو اتفق له لحن أو هفوة في حرف من كتاب الله تعالى لقال له كل الصبيان: أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا وكذا، فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصونًا عن جميع جهات التحريف -مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده- من أعظم المعجزات، وأيضًا أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظًا عن التغيير والتحريف، وانقضى الآن قريبًا من ستمائة سنة[٢] فكان هذا إخبارًا عن الغيب، فكان ذلك

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٦٨).

(٢) هذا إلى زمنه رحمه الله، وقد انقضى الآن قرابة (١٤٣٠) سنة منذ اكتمل نزول القرآن، ولم يتغير منه حرف واحد، فسبحان من حفظ كتابه من العبث والتغيير والتحريف!!

أيضًا معجزًا قاهرًا"[١].

لقد جاء على هذا القرآن زمان في أيام الفتن الأولى كثرت فيه الفرق، وكثر فيه النزاع، وطمَّت فيه الفتن، وتماوجت فيه الأحداث، وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند في هذا القرآن، وفي حديث رسول الله ﷺ، ودخل في هذه الفتن وساقها أعداء هذا الدين الأصلاء من اليهود -خاصة- ثم من القوميين (دعاة القومية) الذين تسموا بالشعوبيين! ولقد أدخلت هذه الفرق على حديث رسول الله ﷺ ما احتاج إلى جهد عشرات العلماء، الأتقياء، الأذكياء، عشرات من السنين لتحرير سنة رسول الله ﷺ وغربلتها وتنقيتها من كل دخيل عليها من كيد أولئك الكائدين لهذا الدين.

كما استطاعت هذه الفرق في تلك الفتن أن تؤول معاني النصوص القرآنية، وأن تحاول أن تلوي هذه النصوص لتشهد لها بما تريد تقريره من الأحكام والاتجاهات.

ولكنها عجزت جميعًا -وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطرابًا- أن تُحْدِث حدثًا واحدًا في نصوص هذا الكتاب المحفوظ، وبقيت نصوصه كما أنزلها الله حجة باقية على كل محرّف وكل مؤول، وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ.

ثم جاء على المسلمين زمان ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم، وعن حماية عقيدتهم، وعن حماية نظامهم، وعن حماية أرضهم، وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم، وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم! وغَيَّر عليهم

(١) تفسير الرازي (١٩/ ١٢٣-١٢٤).

أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم، وأحلُّوا مكانه كل منكر فيهم من العقائد والتصورات، ومن القيم والموازين، ومن الأخلاق والعادات، ومن الأنظمة والقوانين، وزينوا لهم الانحلال والفساد والتعري من كل خصائص الإنسان، ووضعوا لهم ذلك الشر كله تحت عناوين براقة من (التقدم)، و(التطور)، و(العلمانية)، و(العلمية)، و(الانطلاق)، و(التحرر)، و(تحطيم الأغلال)، و(الثورية)، و(التجديد)، إلى آخر تلك الشعارات والعناوين.

ولقد بذل أعداء هذا الدين -وفي مقدمتهم اليهود- رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد في الكيد لدين الله، وقدروا على أشياء كثيرة، قدروا على الدس في سنة رسول الله ﷺ، وعلى تاريخ الأمة المسلمة، وقدروا على تزوير الأحداث، ودس الأشخاص في جسم المجتمع المسلم؛ ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون، وقدروا على تحطيم الدول والمجتمعات والأنظمة والقوانين، وقدروا على تقديم عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأمجاد؛ ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في جسم المجتمعات الإسلامية على مدار القرون، وبخاصة في العصر الحديث.

لكن أعداء هذا الدين -بعد هذا كله والظروف الظاهرية كلها مهيأة لهم- لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ، الذي لا حماية له من أهله المنتسبين إليه، وهم بعد أن نبذوه وراء ظهورهم غثاء كغثاء السيل لا يدفع ولا يمنع، لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها، ولم يكونوا في هذا من الزاهدين، فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يُبْلَغ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تُنال! ولكنهم عجزوا، فدل هذا مرة أخرى على ربانية هذا الكتاب، وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقًّا

تنزيل من عزيز حكيم.

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله ﷺ مجرد وعد، أما هو اليوم من وراء كل تلك الأحداث الضخام، ومن وراء كل تلك القرون الطوال - هو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب، والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⁽⁹⁾﴾[الحجر:٩].

٣- قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ⁽⁴⁴⁾﴾[الزخرف:٤٤].

أي: "وإن هذا القرآن الذي أوحي إليك يا محمد الذي أمرناك أن تستمسك به لشرف لك ولقومك"[(١)]، قال ابن قتيبة: إنما وضع الذكر موضع الشرف لأن الشريف يذكر[(٢)]. وقيل: "معناه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لتذكير لك ولقومك"[(٣)].

والقوم هنا قيل: الأمة عمومًا، وقيل: قريش خصوصًا، قال ابن كثير رحمه الله: "وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ⁽¹⁰⁾﴾[الأنبياء:١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ⁽²¹⁴⁾﴾[الشعراء:٢١٤]"[(٤)].

"وفي قوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ⁽⁴⁴⁾﴾ قولان، أحدهما: عن شكر ما أعطيتم

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٦١٠).
(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٧٩).
(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٩).
(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٩).

من ذلك. والثاني: عما لزمكم فيه من الحقوق"[١].

قال ابن عاشور رحمه الله: "ذكر حظ الرسول ﷺ من الثناء والتأييد في قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٩﴾ المجعول علة للأمر بالثبات عليه، ثم عُطِف عليه تعليلٌ آخر اشتمل على ذكر حظ القرآن من المدح، والنفع بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ﴾، وتشريفه به بقوله: ﴿لَّكَ﴾، وأتبع بحظ التابعين له ولكتابه من الاهتداء والانتفاع بقوله: ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾، ثم عرَّض بالمعرضين عنه والمجافين له بقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾، مع التوجيه في معنى كلمة (ذِكْرٌ) من إرادة أن هذا الدين يكسبه ويكسب قومه حسن السمعة في الأمم، فمن اتبعه نال حظه من ذلك، ومن أعرض عنه عُدَّ في عداد الحمقى، مع الإشارة إلى انتفاع المتبعين به في الآخرة، واستضرار المعرضين عنه فيها، وتحقيق ذلك بحرف الاستقبال؛ فهذه الآية اشتملت على عشرة معان، وبذلك كانت أوفر معاني من قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

المعدود أبلغ كلام من كلامهم في الإيجاز؛ إذ وقف، واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب، والمنزل في مصراع، وهذه الآية لا تتجاوز مقدار ذلك المصراع، وعدة معانيها عشرة في حين كانت معاني مصراع امرئ القيس ستة مع ما تزيد به هذه الآية من الخصوصيات، وهي التأكيد بـ (إن) واللام، والكناية، وحسن التوجيه"[٢].

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٧٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٢٠-٢٢١).

وما دلَّت عليه الآية قد تحقق عيانًا، فأما الرسول ﷺ فإن مئات الملايين من الشفاه تصلي وتسلم عليه، وتذكره ذكر المحب المشتاق آناء الليل وأطراف النهار، منذ قرابة ألف وأربع مئة عام، ومئات الملايين من القلوب تخفق بذكره وحبه، منذ ذلك التاريخ البعيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأما قومه فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحس بهم، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة، وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية، وهو الذي واجهوا به الدنيا فعرفتهم، ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها به، فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض، واستصغرتهم الدنيا، وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين!

وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التي اختارها الله لدينه، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة، إذا هي تخلت عن الأمانة: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

من دلالات وصف القرآن بـ (الذكر):

- شرف القرآن ورفعته وعلو مكانته، فهو كتاب مذكور معروف مشهور، وهذه الرفعة والمكانة تنعكس على كل من أخذ بهذا الذكر ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزخرف:٤٤]، و«إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين»[1].

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٩) برقم: (٨١٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

- حفظ القرآن وسلامته من التحريف، فهو الذكر الذي يحصل به التذكير، وهو الكتاب العزيز، وهو الكتاب المهيمن، وهو الذي أُمِر النبي ﷺ باتباعه، وهو المرجعية الأولى في هذا الدين، وهو المعجزة الخالدة فكيف يصيبه التحريف، وهو الكتاب الأخير؛ فلا قرآن بعده، فلو أصابه التحريف فكيف سيعرف الناس ذلك؟! وكيف سيحصل لهم التذكير بكتاب قد دخله التحريف؟!

- أن القرآن شرف لهذه الأمة، وقد أنعم الله تعالى بإنزاله عليها، ثم تكفل الله تعالى بحفظه، ليحفظ بذلك على الأمة شرفها ومكانتها، وهذا فضل بعد فضل، ونعمة فوق نعمة.

- أن شرف العرب ومكانتهم إنما هي في هذا القرآن، وقد ارتبط مصيرهم في الدنيا والآخرة بهذا القرآن، فمهما ابتغى العرب العزة في غير القرآن أذلهم الله، وإذا تخلوا عنه استبدلهم الله ﷻ بغيرهم.





الوصف الثالث
التذكـــرة

١- قـــال تعـــالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾[الأعراف:٢].

٢- قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾[عبس:١١-١٦].

معنى الوصف:

وورد وصف القرآن بأنه تذكرة في (٧) مواضع، وورد وصفه بأنه ذكرى في (٣) مواضع.

التذكرة: مصدر ذَكَّر، وهو ما يتذكر به الشيء، وهو أعم من الدلالة والأمارة(١).

والتذكرة لشيء كان موجودًا، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله(٢).

والذكرى كثرة الذكر، وهو أبلغ من الذكر(٣).

سبب وصف القرآن بـ(التذكرة):

وصف القرآن بأنه تذكرة؛ لأنه يذكّر العباد، ويبيّن لهم ما يحتاجون إليه،

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٣٢٩).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص:٥٠١).

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٣٢٩).

وهو كذلك تذكرة للنبي ﷺ فيما غفل عنه ﷺ، وفيما اجتهد فيه وأخطأ فيه، ففي القرآن آيات كثيرة في خطاب النبي ﷺ مباشرة، وتنبيهه لما يفعل ﷺ فيما بين يديه مع أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾[الأعراف:٢].

الذكرى اسم بمعنى التذكير(١).

قال الرازي رحمه الله: "فإن قيل: لم قيد هذه الذكرى بالمؤمنين؟

قلنا: هو نظير قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[البقرة:٢] ... فثبت أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب على رسوله ليكون إنذارًا في حق طائفة، وذكرى في حق طائفة أخرى. والله أعلم"(٢).

فالرسول ﷺ أنذر بالقرآن وبلغه، فمن استجاب وآمن أصبح القرآن له ذكرى وذكر، يرتفع شأنه ويسمو بالقرآن.

وسيأتي في الوصف التالي كلام مشابه للشنقيطي في كتابه: (أضواء البيان).

٢- قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾[عبس:١١-١٦].

﴿كَلَّآ﴾: للإضراب، إشارة إلى الكلام الذي سبق في أول سورة عبس من

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٨٦).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ١٩٦).

موقف النبي ﷺ، وهو آيات من القرآن، لذلك ذهب جمع من أهل العلم إلى أن قوله: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ﴾ يشمل آيات القرآن كلها، ومنهم من جعله مقصورًا على الآيات التي سبقت في أول السورة.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ﴾ أي: آيات القرآن موعظةٌ وتذكيرٌ للخلق[(١)].

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: فمن شاء ذكر الله في جميع أموره[(٢)]، فهذا القرآن الذي يُعْرِضون عن سماعه، وينفرون كالحُمُر، وهم يضمرون في أنفسهم الحسد لمحمد ﷺ، والاستهتار بالآخرة، إنه تذكرةٌ تُنَبِّه وتُذَكِّر، فمن شاء فليذكر، ومن لم يشأ فهو وشأنه، وهو ومصيره، وهو وما يختار من جنة وكرامة، أو من سقر ومهانة.

﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ﴾ أي: جميع القرآن في صحف مُعَظَّمة مُوَقَّرة[(٣)].

﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾ أي: رفيعة القدر عند الله ﷻ، **مطهَّرة من الدَّنَس والزيادة والنقص**[(٤)].

﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ هم الملائكة الذين يُسْفِرون بين الله ورُسُله بالوحي[(٥)].

﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ أي: كرام على الله، مطيعين له[(٦)]. فهذه شهادة من الله بتطهير

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٨/ ٣٣٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٣٢١).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٣٢١).

(٤) ينظر: تفسير البغوي (٨/ ٣٣٧)، تفسير ابن كثير (٨/ ٣٢١).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١٠٩).

(٦) ينظر: تفسير البغوي (٨/ ٣٣٧).

ذِكْرِه، فلا يمكن أن يدخل فيه ما ليس منه، وهذه التذكرة كريمة في كل ما يتعلق بها، سواء كانت الصحف المكتوبة فيها، أم الملائكة الذين يُختارون لتبليغها، أم الناس الذين يتلقونها وهم يعرفون كرامتها، وأنها من الله ﷻ فيبتغون بها وجه الله.

فائدة: كيفية التذكر بالقرآن:

وفي هذه الآيات بيان لكيفية التذكر بالقرآن، ومن المعلوم أن القرآن لفظ ومعنى، فبيَّن أن تذكُّر المعنى يكون بالإيمان به والعمل، وأما تذكُّر اللفظ فيكون بالتلقي له من صحفٍ تكون بيد معلمي القرآن السفرة، فلا بد من المشافهة به في التلقين، وعَرْضِه على هؤلاء المعلمين القرّاء الكِرام على الله تعالى؛ لاعتنائهم بكتابه.

ولم تُغْفِل الآيات أمرًا هامًّا، له عظيم الأثر في التذكُّر بالقرآن ألا وهو: استشعار مكانة صحف القرآن عند الله تعالى ورفعتها، وكذلك مكانة المعلِّم له أيضًا، وهذا ظاهر من وصف الصُّحُف والسَّفَرة بالتكريم، ويؤيده النصوص الدالة على فضل معلِّم القرآن، كما في حديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(١).

من دلالات وصف القرآن بـ (التذكرة):

- أن القرآن من أعظم ما يحمي الإنسان ويقيه من الغفلة، فالقرآن كله ذكرى وتذكرة، فمن لازم تلاوته والتدبر في آياته كان في تذكرة دائمة مستمرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٩٢) برقم: (٥٠٢٧).

- أن التذكرة بالقرآن تحصل باستماع آياته، إلا أن التذكرة الأعظم تكون بالنظر في المصحف وقراءة الآيات؛ نظرًا لمن كان قادرًا على القراءة.

- شأن المؤمن أنه إذا ذُكِّر يتذكر ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات:٥٥]، فإذا استمع المرء للقرآن ولم يتذكر ولم يتأثر فليفحص إيمانه ويقينه، فالقرآن أعظم تذكرة يمكن أن تحرك القلوب، وإذا لم يتذكر المرء بالقرآن؛ فبماذا عساه أن يتذكر؟!

كما أنه لا بد أن يكون ثمة خلل في الإنصات؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف:٢٠٤]، و(لعل) من المولى ﷻ تدل على التحقق، فيكون الخلل في الإنصات الحسي، والإنصات المعنوي.

وكم سمعنا من فجر التاريخ الإسلامي قصص من سمع القرآن وهو كافر بالله، لكنه أنصت وأخبت، فحصل الإنصات المعنوي والحسي، ففتح الله على قلوبهم وغشيتهم الرحمة، وإلى يومنا هذا نشاهد عشرات المقاطع، والصور غير المفتعلة، كما شاهدنا مباشرة من سمع القرآن للمرة الأولى وهو لا يفهم العربية وهو كافر بالله، فأنصت الإنصات الحسي والمعنوي، ففتح الله على قلبه فدخله الإيمان، ثم غسلت دموعه وجهه، وزال من قلبه الرَّان الذي غشاه، فأفاق ونطق بالشهادتين.





١- قـــال تعـــالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[الفرقان:١].

٢- قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢﴾[الأحقاف:١٢].

معنى الوصف:

جاء وصف القرآن بأنه (نذير) في (٥) مواضع، وجاء منسوبًا إليه الفعل (لينذر) في (٤) مواضع.

ومعنى الإنذار: الإعلام مع التخويف والتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذارًا[١].

سبب وصف القرآن بـ(النذير):

قال الشنقيطي ﵀: "الإنذار يطلق في القرآن إطلاقين:

أحدهما: عام لجميع الناس، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[المدثر:١-٢]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[الفرقان:١].

وهذا الإنذار العام: هو الذي قُصِر على المؤمنين قصرًا إضافيًّا في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾[يس:١١] الآية؛ لأنهم هم المنتفعون به دون

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٧٩٧)، أضواء البيان (٢/ ٥).

غيرهم.

والثاني: إنذار خاص بالكفار؛ لأنهم هم الواقعون فيما أُنذِروا به من النكال والعذاب، وهو الذي يذكر في القرآن مبينًا أنه خاص بالكفار دون المؤمنين، كقوله: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾[مريم:٩٧]، وقوله هنا: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾[الأعراف:٢]"[1].

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[الفرقان:١].

اللام في: ﴿لِيَكُونَ﴾ للتعليل، بمعنى: لكي يكون للعالمين نذيرًا، وفيه تعظيم للنذارة، وفيه مناسبة لوصف القرآن بالفرقان، لارتباطه بالنذارة.

قال السعدي ﵀: "﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعاظم، وكَمُلت أوصافه، وكَثُرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمه أن نزَّل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام، والهدى والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع المرسلين.

﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ينذرهم بأس الله ونقمه، ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن من قبل نذارته وعمل بها كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٥).

السعادة الأبدية والملك السرمدي، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟! فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه وبركاته"[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾[الأحقاف:١٢].

قال السعدي: "﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ للكتب السابقة، شهد بصدقها وصدَّقها بموافقته لها، وجعله الله ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ ليسهل تناوله ويتيسر تذكره"[(٢)].

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ قال ابن جرير ﵀: "وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يقول: لينذر هذا الكتاب الذي أنزلناه إلى محمد ﷺ الذين ظلموا أنفسهم؛ بكفرهم بالله؛ بعبادتهم غيره.

وقوله: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ يقول: وهو بشرى للذين أطاعوا الله فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم إياه في الدنيا"[(٣)].

ومن أمثلة ما أورده القرآن من نذارات:

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾[غافر:١٥]، وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾[الزمر:١٦]، وقوله تعالى:

---

(١) تفسير السعدي (ص:٥٧٧).

(٢) تفسير السعدي (ص:٧٨٠).

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ١١٠).

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾[المدثر:٣٥-٣٦] إنها: أي جهنم.

من دلالات وصف القرآن بـ (النذير):

- بيان المنهج الدعوي العظيم، المتوازن في خطاب الناس بالإنذار والتخويف، وبالترغيب والتبشير، فكما يحتاج الناس إلى ما يرغبهم في الخير يحتاجون كذلك إلى ما يردعهم عن الشر.

- بيان خطأ من يزهِّد في الخطاب الوعظي، المبني على التحذير والتخويف من عقاب الله وعذابه، فالقرآن جاء منذرًا ومخوفًا ومحذرًا، ولولا أن هذا النوع من الخطاب ضروري لصلاح الناس لما كان من أوصاف القرآن (النذير).

- أن أكثر ما توجه إنذار القرآن إلى الكافرين والظالمين والطاغين، وذلك لحاجة هذا الصنف من الناس إلى التخويف، فتبشير أمثال هؤلاء يجرئهم على التمادي في باطلهم أكثر وأكثر.





١- قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران:١٣٨].

٢- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس:٥٧].

معنى الوصف:

جاء وصف القرآن بأنه موعظة في (٤) مواضع من القرآن.

ومعنى الموعظة: "كلام أو حالة يعرف منها المرء مواقع الزلل؛ فينتهي عن اقتراف أمثالها"(١).

قال الراغب رحمه الله: "الوعظ: زجر مقترن بتخويف. قال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب"(٢).

سبب وصف القرآن بـ(الموعظة):

وصِف القرآن بـ(الموعظة) لاشتماله على المواعظ التي تلين القلوب من زجر وترهيب، وتذكير وتخويف، ووعيد وتهديد.

وهو موعظة تسوق المؤمن إلى سبل الخير والرشاد، وتحذره من طرق

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٢٣٠).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص:٨٧٦).

الشيطان ومكائده، وتأمره بكل خير، وتنهاه عن كل شر.

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران:١٣٨].

قال ابن عاشور رحمه الله: "البيان: الإيضاح وكشف الحقائق الواقعة. والهدى: الإرشاد إلى ما فيه خير الناس في الحال والاستقبال. والموعظة: التحذير والتخويف"(١).

وقال محمد رشيد رضا رحمه الله: "إيضاح النكتة في جعل البيان للناس كافة، والهدى والموعظة للمتقين خاصة هو بيان أن الإرشاد عام، وأما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة فهو أنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقيقة، ويتعظون بما ينطبق عليهم من الوقائع، فيستقيمون على الطريقة، هم الذين تكمل لهم الفائدة والموعظة؛ لأنهم يتجنبون ويتَّقون نتائج الإهمال التي يظهر لهم أن عاقبتها ضارة، فليزن مسلمو هذا الزمان إيمانهم وإسلامهم بهذه الآيات، ولينظروا أين مكانهم من هدايتها، وما هو حظهم من موعظتها؟"(٢).

٢- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: ذكرى تذكركم عقاب

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٩٨).

(٢) تفسير المنار (٤/ ١١٨) مختصرًا.

الله، وتخوفكم وعيده من ربكم، وتزجركم عن الفواحش، لم يختلِقْها محمَّد ﷺ، ولم يفتعلها أحد، فتقولوا: لا نأمن أن تكون لا صحة لها، وهذه الموعظة هي القرآن الكريم.

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ودواء لما في الصدور من الجهل، يشفي به الله جهل الجهال، فيبرئ به داءهم، ويهدي به من خَلْقِه من أراد هدايته به، ويزيل الشبه والشكوك.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: محصل لها الهداية والرحمة من الله تعالى؛ وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه[١].

وقد وصف الله تعالى كتابه بأنه موعظة منه تعالى، وهذا يعني أنه ليس من عند البشر، وموعظته تشفي الصدور من الخرافة والشك والحيرة، وذلك لا يكون إلا لمن رزقه الله الإيمان، ورحمه من الضلال.

قال محمد رشيد رضا ؒ: "أجملت الآية الكريمة هذا الإصلاح القرآني لأنفس البشر في أربع قضايا أو مسائل نُكِّرن في اللفظ لتعظيم أمرهن، أو لبيان أنهن نوع خاص لم يعهد الناس مثلهن، في كمالهن المعنوي وبيانهن اللفظي:

الأولى: الموعظة الحسنة: وهي اسم من الوعظ أي: الوصية بالحق والخير، واجتناب الباطل والشر، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرقّ لها القلب، فتبعث على الفعل والترك .

الثانية: شفاء ما في الصدور: أي: شفاء جميع ما في القلوب من أدواء

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٩٣)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤).

الشـرك والكفـر والنفـاق، وسـائر الأمـراض النفسـية التي يشـعر صـاحبها ذو الضـمير الحـي بضـيق الصـدر، مـن شـكٍّ في الإيمـان، ومخالفـةٍ للوجـدان، وإضمارٍ للحقد والحسـد والبغـي والعـدوان، وحـبٍّ للباطـل والظلـم والشـر، وبُغضٍ للحق والعدل والخير.

الثالثة: الهدى: وهو بيان الحق المنقذ من الضـلال في الاعتقـاد والبرهـان، وفي العمل ببيان الحِكَم والمصالح في أحكام الأعمال.

الرابعة: الرحمة للمؤمنين: وهي ما تثمره لهم هداية القرآن، وتفيضه على قلـوبهم مـن رحمـة ربهـم الخاصـة، وهـي صـفة كمـال؛ مـن آثارهـا: إغاثـة الملهوف، وبذل المعروف، وكف الظلم، ومنع التعـدي والبغـي، وغيـر ذلـك من أعمال الخير والبر، ومقاومة الشر.

وهذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية، فالموعظة: التعـاليم التي تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية، وتزعجها إلـى مداواتها وطلـب الشـفاء منهـا، والشـفاء تخليـة يتبعهـا طلـب التحليـة بالصـحة الكاملة، والعافية التامة، وهو الهدى، ومن ثمراته هذه الرحمـة التـي لا توجـد علـى كمالهـا إلا في المـؤمنين المهتـدين، ولا يحرمهـا إلا الكـافرون الماديون"[1].

من دلالات وصف القرآن بـ (الموعظة):

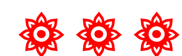
- أن من شعر بقسوة القلب، وجفـاف العيـن، وغفلـة الـنفس؛ فليلجـأ إلـى

(١) تفسير المنار (١١/ ٣٢٨-٣٣١).

القرآن؛ ليحرك قلبه، ويكسر قوته، ففيه أبلغ المواعظ وأعظمها تأثيرًا ونفعًا.

- أنه ينبغي للداعية أن يحرص على وعظ الناس بالقرآن قدر استطاعته، فإنه لن يجد موعظة خيرًا من موعظة القرآن، والله ﷻ يقول: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾[ق:٤٥].

- أن الموعظة ركن أصيل من وسائل الدعوة إلى الله ﷻ، لها شأنها في إزاحة الغشاوة عن القلوب، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[النحل:١٢٥]، فقدم المولى ﷻ الموعظة (مخاطبة القلوب) قبل المجادلة (مخاطبة العقول)، وخير المواعظ وأصحها وأهداها هي مواعظ القرآن الكريم، ثم مواعظ الرسول ﷺ، ثم مواعظ خير الأمة أصحاب رسول الله ﷺ، وكل موعظة تخالف هذا فلا خير فيها، وكم من الواعظين أرادوا خيرًا فضلُّوا وأضلّوا؛ حين خرجوا عن نهج القرآن ومواعظه، وأتوا بألفاظ وعبارات ومعانٍ تخالف كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.





١- قــال تعــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾[النساء:١٧٤].

٢- قال تعالى: ﴿۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾[الأعراف:١٥٦-١٥٧].

معنى الوصف:

جاء وصف القرآن بالنور في (٤) مواضع.

ومعنى النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار[(١)].

سبب وصف القرآن بـ(النور):

وصِف القرآن بـ(النور)؛ لأن بيانه في القلوب كبيان النور في العيون[(٢)]، وبه

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٨٢٧).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٢/ ١٦١).

تدرك غوامض الحلال والحرام[١]، فهو ينير للناس طريقهم ودربهم في هذه الحياة، ويبصرهم بمواقع الحق والباطل، والصواب والخطأ، فإن الحياة ملأى بالشهوات والشبهات والشياطين، الذين وصف الله ﷻ عداوتهم للبشر، وأمر البشر أن يتقوا شرهم، وأن يستعيذوا بالله منهم: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[فاطر:٦].

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾[النساء:١٧٤].

قال ابن جرير رحمه الله: "يا أيها الناس من جميع أصناف الملل، يهودِها ونصاراها ومشركيها.

﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يقول: قد جاءتكم حجة من الله تبرهن لكم بُطُولَ ما أنتم عليه مقيمون من أديانكم ومللكم، وهو محمد ﷺ، الذي جعله الله عليكم حجة قطع بها عذركم، وأبلغ إليكم في المعذرة بإرساله إليكم، مع تعريفه إياكم صحة نبوته، وتحقيق رسالته"[٢].

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ قال السعدي رحمه الله: "وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٨٣).
(٢) تفسير الطبري (٩/ ٤٢٨).

في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من

٢- **قال تعالى:** ﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ ﴾[الأعراف:١٥٦-١٥٧].

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ﴾ وهو محمد ﷺ، كان أميًّا، لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسِب، وهذا مشهور في الجاهلية قبل بعثته ﷺ، وهذا وصف للرسول ﷺ فيه تحطيم شبهات الكافرين.

﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ﴾ أي: يجدون صفته ونعته ونبوته.

﴿مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: الإيمان، ﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: عن الشرك.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: ما كانوا يحرِّمونه في الجاهلية؛ من البَحيرة والسائبة والوصيلة والحام(٢).

---

(١) تفسير السعدي (ص:٢١٧).

(٢) قال ابن جرير الطبري في جامع البيان (١١/ ١٣٢): "أما البحيرة فكانت الناقة إذا =

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ يعني: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والزنا وغيرها من المحرمات.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ العهد الثقيل. كان أُخِذ على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة.

﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾ يعني: الأثقال ﴿ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك مثل: قتل الأنفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض النجاسة عن الثوب بالمِقراض، وتعيين القصاص في القتل، وتحريم أخذ الدية، وترك العمل في السبت، وأن صلاتهم لا تجوز إلا في الكنائس، وغيرِ ذلك من الشدائد، وشُبِّهَت بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق[(١)].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي: عظَّموه ووَقَّروه.

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: القرآن والوحي الذي جاء به مُبَلِّغًا

= نَتَجُوها خمسة أبطن نحروا الخامس إن كان سقبًا، وإن كان رُبَعة شقُّوا أُذنها واستحيوها، وأما السائبة: فكان يسيِّب الرجل من ماله من الأنعام، فيُهْمَل في الحمى، فلا ينتفع بظهره ولا بولده ولا بلبنه ولا بشعره ولا بصوفه، وأما الوصيلة: فكانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن ذبحُوا السابع إذا كان جديًا، وإن كان عناقًا استحيوه، وإن كان جديًا وعناقًا استحيوهما كليهما، وأما الحامي: فالفحل إذا ركبوا أولاد ولده قالوا: قد حمى هذا ظهره، وأحرزه أولاد ولده فلا يركبونه، ولا يمنعونه من حِمى شجر، ولا حوض مَا شرع فيه، وإن لم يكن الحوض لصاحبه. ا.هـ. مختصرًا.

(١) ينظر: تفسير البغوي (٣/ ٢٨٨-٢٩٠) مختصرًا.

إلى الناس.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة[(١)].

فائدة جليلة:

لمَّا كان النبي ﷺ أُميًّا كان هذا أبلغَ في صدقه، وفيه هدمٌ لبعض شبهات المشركين، ومن تبعهم من المستشرقين، ومن تأثَّر بهم من أبناء العرب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾[النحل:١٠٣] فالنبي ﷺ لا يعرف لغة إلا العربية، ولا يقرأ مكتوبًا ولا يكتب حرفًا، فمن أين أتى بما جاء به من العلم والهدى؟![(٢)].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾[الأعراف:١٥٧].

قال ابن الجوزي ﷺ: "والنور الذي أنزل معه: القرآن"[(٣)].

وقال الزمخشري ﷺ: "فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وإنما أنزل مع جبريل؟ قلت: معناه أنزل مع نبوّته، لأنّ استنباءه كان مصحوبًا بالقرآن، مشفوعًا به، ويجوز أن يعلق بـ(اتبعوا)، أي: واتبعوا القرآن المنزل، مع اتباع النبي والعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه، أو واتبعوا القرآن كما

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (١٥/ ٣٨٠).

(٣) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ١٦١).

اتبعه، مصاحبين له في اتباعه"[١].

وقد جاء هذا الوصف للقرآن الكريم بين مقصدين عظيمين يكتنفانه:

الأول: رحمة الله التي وسعت كل شيء.

والثاني: الفوز بالفلاح في الدنيا والآخرة.

فطريق الرحمة والفلاح تأتي من هذا الكتاب المعبَّر عنه بالنور "المنبئ عن كونه ظاهرًا بنفسه ومُظهِرًا لغيره، ومُظهِرًا للحقائق، كاشفًا عنها"[٢]، "يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتدى به إذا تعارضت المقالات"[٣]، "واتباع النور تمثيل للاقتداء بما جاء به القرآن: شبَّه حال المقتدي بهدي القرآن بحال الساري في الليل إذا رأى نورًا يَلُوح له اتّبَعه؛ لعلمه بأنه يجد عنده منجاةً من المخاوف وأضرار السير"[٤].

ومن ناحية أخرى نجد أن هذه الآية تبين لنا أن عند بني إسرائيل الخبر اليقين منذ زمن موسى عليه السلام ببعثة رسولنا ﷺ، وبوصفه وبيان خصائص هذه الملة الحنيفية، وأن فلاح من أدركه منهم معلّقٌ على اتّباعه، والقيام بحقه من النصرة والتعظيم.

من دلالات وصف القرآن بـ (النور):

- إذا تأملنا تنوع أوصاف القرآن، نجد كثرة التأكيد على عظمة القرآن،

(١) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٦٦).
(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٢٨٠).
(٣) ينظر: تفسير السعدي (ص:٣٠٥).
(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٩/ ١٣٨).

وضرورة الرجوع إليه في مختلف القضايا، وخاصة الأمور الملتبسة التي قد يخفى الحق فيها على المرء، فينكشف للإنسان الحق في المتشابهات، والشبهات، والخفايا، والاختلافات بنور الفرقان الساطع، الحق، المبين.

- أن ملازمة القرآن تلاوة وتدبرًا وفهمًا وعملًا؛ من أعظم ما يولِّد النور في قلب العبد وعقله، فيرى ما لا يراه غيره، ويدرك ما لا يدركه الآخرون، ويبصر الأمور على حقائقها، التي قد لا تظهر لبقية الناس.

- أن الظلمات التي تعيشها البشرية اليوم من كفر، وظلم، وفساد، وانحلال أخلاقي، وحروب، وقتل، ودمار، كل هذه الظلمات لا يقوى على تبديدها إلا نور القرآن، الذي بدَّد ظلمات الجاهلية الأولى وأزالها.





الوصف السابع
الفرقـــــان

١- قـــال تعـــالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[آل عمران:٣-٤].

٢- قـــــال تعـــــــالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[الإسراء:١٠٦].

٣- قـــال تعـــــالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[الفرقان:١].

معنى الوصف:

جاء إطلاق وصف الفرقان على القرآن في (٣) مواضع، وجاء بالفعل (فرقناه) في موضع واحد.

والفُرقان مصدر (فَرَق)، وهو أصل يدل على تمييز وفصل بين شيئين(١).

سبب وصف القرآن بـ(الفرقان):

قال الرازي رحمه الله: "واختلفوا في تفسيره، فقيل: سمي بذلك؛ لأن نزوله كان متفرقًا، أنزله في نيف وعشرين سنة، ودليله قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[الإسراء:١٠٦]، ونزلت سائر الكتب جملة واحدة، وقيل: سمي بذلك؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والمجمل والمبين، والمحكم والمؤول، وقيل: الفرقان هو النجاة،

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٩٣)، القاموس المحيط (ص:٩١٦).

وهو قول عكرمة والسدي؛ وذلك لأن الخلق في ظلمات الضلالات فبالقرآن وجدوا النجاة، وعليه حمل المفسرون قوله: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾[البقرة:٥٣]"[١].

وقيل: "لأن كلام الله تعالى يفرق في العلم والاعتقاد بين الإيمان والكفر والحق والباطل، وفي الأحكام بين العدل والجور، وفي الأعمال بين الصحيح والفاسد والخير والشر"[٢].

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[آل عمران:٣-٤].

قال السعدي رحمه الله: "﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة، فهو المزكي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي: على موسى ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ على عيسى.

﴿مِن قَبْلُ﴾ إنزال القرآن"[٣].

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ٢٦١).

(٢) ينظر: تفسير المنار (٩/ ٥٣٨).

(٣) تفسير السعدي (ص:١٢١).

قال ابن الجوزي رحمه الله: "وفي الفرقان هاهنا قولان: أحدهما: أنه القرآن، قاله قتادة، والجمهور.

قال أبو عبيدة: سمي القرآن فرقانًا؛ لأنه فرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر. والثاني: أنه الفصل بين الحق والباطل في أمر عيسى حين اختلفوا فيه، قاله أبو سليمان الدمشقي"[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[الإسراء:١٠٦].

قال ابن كثير رحمه الله: "﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ فَصَلْناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا منجمًا على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس.

وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: (فرَّقناه) بالتشديد، أي: أنزلناه آية آية، مبينًا مفسرًا؛ ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم.

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: مهل.

﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: شيئًا بعد شيء"[(٢)].

٣- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[الفرقان:١].

أي: تبارك الذي نزّل الفصل بين الحق والباطل، فصلًا بعد فصل، وسورة

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٥٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٧).

بعد سورة، على عبده محمد ﷺ، ليكون محمد لجميع الجن والإنس الذين بعثه الله إليهم داعيًا إليه، نذيرًا: يعني منذرًا ينذرهم عقابه، ويخوفهم عذابه، إن لم يوحدوه، ولم يخلصوا له العبادة، ويخلعوا كل ما دونه من الآلهة والأوثان[(١)].

قال ابن عطية رحمه الله: "﴿تَبَارَكَ﴾ فعل مختص بالله تعالى، لم يستعمل في غيره، ولذلك لم يصرف منه مستقبل، ولا اسم فاعل، وهو صفة فعل، أي: كثرت بركاته، ومن جملتها إنزال كتابه الذي هو الفرقان بين الحق والباطل"[(٢)].

وقال ابن عاشور رحمه الله: "وإيثار اسم الفرقان بالذكر هنا للإيماء إلى أن ما سيذكر من الدلائل على الوحدانية وإنزال القرآن دلائل قيّمة تفرق بين الحق والباطل"[(٣)].

وأتبعه بالثناء على الله تعالى بكثرة الخير والبركة؛ فدل ذلك على أن القرآن منشأ الخيرات، وأعم البركات[(٤)]، وجعل الغاية من نزول الفرقان هو النذارة للعالمين؛ إذ العالمون أهواء مختلفة، وضلالات مختلطة، لا بد فيها من تبيان للحق من الباطل، والهدى من الضلال.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٧/ ٣٩٤).

(٢) تفسير ابن عطية (٤/ ١٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/ ٣١٧).

(٤) ينظر: تفسير الرازي (٢٤/ ٤٢٩).

من دلالات وصف القرآن بـ (الفرقان):

- **أن من أعظم الجهاد كشف الباطل وتمييز الحق عنه، والرد على شبهات المبطلين**، ولهذا نجد أن الله تعالى يقول في سورة الفرقان: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾[الفرقان:٥٢] **والمقصود: الجهاد بسلاح العلم، وتأمل في وصفه لهذا الجهاد بالكبير**، قال ابن القيم ﷺ: **"وهو جهاد خواص الأمة، وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه -وإن كانوا هم الأقلين عددًا- فهم الأعظمون عند الله قدرًا"**[1].

- أن القرآن كلام الله ﷻ، جاء ليميز الأمور ويوضحها، ويفرق بين الحق والباطل، ويزيل الالتباس الحاصل بينهما، ويكشف المشتبهات التي تدفع الناس للتأثر بالباطل، فمن أراد كشف الشبهات عن نفسه وعن غيره فليلجأ إلى القرآن الفرقان.

- أنه ينبغي للعبد أن يكون واضحًا في عقيدته، صريحًا في إيمانه، لا يقبل المداهنة والغبش في أمر الاعتقاد وأصول الدين، حتى يتضح الفرق بين أهل الإيمان وأهل الكفر والفجور والنفاق، فإن هذا من مقاصد القرآن الذي جاء فرقانًا.



---

(١) زاد المعاد (٣/ ٥).



١- قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢﴾ [الكهف: ١-٢].

٢- قال تعالى: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣﴾ [البينة: ٢-٣].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف للقرآن في موضعين اثنين.

ومعنى (قيم) أي: مستقيم، والقيم: السيد وسائس الأمر[(١)].

سبب وصف القرآن بـ(القيم):

وصف القرآن بأنه (قيم) لأنه مستقيم لا ميل فيه، ولا زيغ، ولا عوج، وقيل: قيّم: أي على ما قبله من الكتب، بمعنى أنه مهيمن عليها، وقيل: إنه قيّم بمصالح الخلق الدينية والدنيوية[(٢)].

والأصل العموم، فيشمل تلك المعاني، وغيرها.

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١

---

(١) ينظر: لسان العرب (١٢/ ٥٠٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (٣/ ٤٩٥)، أضواء البيان (٣/ ١٩٢-١٩٣).

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾[الكهف:١-٢].

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أثنى الله على نفسه بإنعامه على خلقه، وخَصَّ رسوله ﷺ بالذكر؛ لأن إنزال القرآن عليه كان نعمة عليه على الخصوص، وعلى سائر الناس على العموم[١]

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾﴾ أي: لم يجعل فيه اعوجاجًا، ولا زيغًا، ولا ميلًا، بل جعله معتدلًا مستقيمًا[٢]. قال الرازي رحمه الله: "قال أهل اللغة: العوج في المعاني كالعوج في الأعيان.

والمراد منه وجوه: أحدها: نفي التناقض عن آياته، كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء:٨٢]. وثانيها: أن كل ما ذَكَر اللهُ من التوحيد والنبوة والأحكام والتكاليف فهو حق وصدق، ولا خلل في شيء منها ألبتة"[٣].

﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيمًا، وفائدة الجمع بين نفى العِوَج وإثبات الاستقامة هو التأكيد، فرُبَّ مستقيمٍ مشهود له بالاستقامة، ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح.[٤]. قال السعدي رحمه الله: "فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث، وإثبات الاستقامة،

(١) ينظر: تفسير البغوي (٥/ ١٤١).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٣٥).
(٣) تفسير الرازي (٢١/ ٤٢٢).
(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ٥٦٤).

يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلِّ الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانًا وعقلًا؛ كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه، تزكي النفوس، وتطهرها وتنميها وتكملها، لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له، وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر أن يحمد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به"[١].

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: لمن خالفه وكذَّبه ولم يؤمن به، ينذره بأسًا شديدًا: عقوبة عاجلة في الدنيا، وآجلة في الآخرة من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: بهذا القرآن الذين صدَّقوا إيمانهم بالعمل الصالح.

﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: مثوبة عند الله جميلة، وهي الجنة[٢].

وقد ذكر الله تعالى هذا الوصف الجليل لكتابه، الذي هو كتاب كامل في نفسه، صحيح المعاني، سالم من الخطأ والاختلاف، قيّم على هداية الأمة وإصلاحها[٣]، وذلك في معرض الثناء على نفسه باستحقاقه جميع المحامد، ولكي يلهج المؤمن بحمد ربه من أعماق قلبه؛ ما عليه إلا أن يتأمل أجزل نعم الله تعالى على عباده المؤمنين، وهي إنزال القرآن، فهو سبب نجاتهم في

---

(١) تفسير السعدي (ص:٤٦٩-٤٧٠).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٥/ ١٤١)، تفسير ابن كثير (٥/ ١٣٥).

(٣) ينظر: تفسير الرازي (٢١/ ٤٢٣)، التحرير والتنوير (١٥/ ٢٤٨).

حياتهم الأبدية، وسبب فوزهم في الحياة العاجلة؛ بطيب الحياة، وانتظام الأحوال، والسيادة على الناس[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة:٢-٣].

قال ابن عاشور ﵀: " التلاوة: إعادة الكلام دون زيادة عليه ولا نقص منه، فيقرأ عليهم الرسول ﷺ كلامًا لا تبدل ألفاظه، ولا يزاد فيه ولا ينقص منه، وهو الوحي المنزل عليه.

والصحف: الأوراق والقراطيس التي تجعل؛ لأن يكتب فيها، ووصف الصحف بـ(مطهرة)، وهو وصف مشتق من الطهارة المجازية، أي كون معانيه لا لبس فيها، ولا تشتمل على ما فيه تضليل.

والمراد بالكتب: أجزاء القرآن، أو سوره فهي بمثابة الكتب"[(٢)].

قال الرازي ﵀: " أما القيّمة؛ ففيها قولان:

الأول: قال الزجاج: مستقيمة لا عوج فيها، تبين الحق من الباطل؛ من: قام، يقوم؛ كالسيد والميت، وهو كقولهم: قام الدليل على كذا إذا ظهر واستقام.

الثاني: أن تكون القيمة بمعنى القائمة؛ أي: هي قائمة مستقلة بالحجة والدلالة، من قولهم: قام فلان بالأمر، يقوم به؛ إذا أجراه على وجهه"[(٣)].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٥/ ٢٤٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٧٦-٤٧٧) مختصرًا.

(٣) تفسير الرازي (٣٢/ ٢٤٠-٢٤١).

من دلالات وصف القرآن بـ (القيّم):

- ذكر الله ﷻ في أكثر من آية، وبأساليب مختلفة أن القرآن حاكم على جميع الكتب السابقة بما فيها من أخبار وأحكام، فما أقرّه القرآن منها فهو المقبول، وما أنكره فهو باطل مردود، وهذا ميزان واضح في الحكم على كثير من أخبار بني إسرائيل وغيرها.

- لزوم إقامة الحياة بكل تفاصيلها وشؤونها على أساس هذا القرآن القيم، فهو الذي جاء بكل ما يُصلِح أحوال الناس، وهو القائم والحاكم عليها.

- أن ميزان الاستقامة هو هذا القرآن، فالمستقيم من الخلق هو الذي التزم أحكامه، وتأدب بآدابه، وسار على نهجه، ومهما كان الإنسان جيدًا في نظر الخلق فلن يستحق وصف الاستقامة ما لم يكن مستقيمًا على نهج القرآن القيّم.

- أن نعمة إنزال القرآن نعمة كبرى تستحق الشكر، وكذلك نعمة حفظه، وهي النعمة الثانية الكبرى المتممة للأولى، والله ﷻ نبّه عباده على هذه النعمة بالثناء على نفسه، قال الله ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾[الكهف:١]، فبدأ السورة بالحمد؛ ليدرك العباد الذين فتح الله على قلوبهم أهمية هذه النعمة وعظمتها، ثم قال: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾[الكهف:١]، وهذا تأكيد وتصريح بنعمة الحفظ، ودلالة على أنه لا يزاد فيه ولا ينقص منه.

فالآية دلّت على نعمتي الإنزال والحفظ تصريحًا.





قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[الشورى:٥٢].

معنى الوصف:

جاء وصف القرآن بأنه روح في هذه الآية فقط.

قال ابن فارس رحمه الله: " الراء والواو والحاء أصل كبير مطرد، يدل على سعة وفسحة واطراد. وأصل ذلك كله الريح، وأصل الياء في الريح الواو، وإنما قلبت ياء لكسرة ما قبلها؛ فالروح روح الإنسان، وإنما هو مشتق من الريح، وكذلك الباب كله. والروح: نسيم الريح"(١).

وقال ابن الأثير رحمه الله: "قد تكرر ذكر (الروح) في الحديث، كما تكرر في القرآن، ووردت فيه على معان، والغالب منها أن المراد بالروح الذي يقوم به الجسد، وتكون به الحياة، وقد أطلق على القرآن، والوحي، والرحمة، وعلى جبريل في قوله تعالى: ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾، وفيه: «تحابوا بذكر الله وروحه»(٢)، أراد ما يحيا به الخلق ويهتدون، فيكون حياة لهم، وقيل: أراد أمر

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٤٥٥).

(٢) هو عند أبي داود بلفظ: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم» وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٥٢٧).

النبوة، وقيل: هو القرآن."[١].

سبب وصف القرآن بـ(الروح):

ووصِف القرآن بالروح؛ لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير، والعلم الغزير[٢].

وقد شبهت هداية العقول بالقرآن بعد الضلالة بحلول الروح في الجسد؛ فيصير حيًّا بعد أن كان جثة[٣].

وأيضًا لكون القرآن سببًا للحياة الأخروية الموصوفة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[العنكبوت:٦٤][٤].

"فالقرآن الكريم روح تحيا به القلوب الميتة، كما تحيا الأرض بوابل السماء، تحيا بالقرآن القلوب المجدبة فتستنير بعد ظلامها، وتستقيم بعد نكستها وزيغها، فكما أن الجسد لا حياة له، ولا بقاء إلا بالروح، فكذا القلب والنفس والبدن، لا حياة طيبة ولا حياة سعيدة إلا بالإيمان بالقرآن والعمل به.

والقرآن وسنة الرسول ﷺ حياة من الجهل، وحياة من الكفر، وحياة من الشرك، وحياة من النفاق، وحياة من البدع، وحياة من جميع الذنوب

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٢٧١-٢٧٢).

(٢) ينظر: تفسير السعدي (ص:٧٦٢).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٥/ ١٥١).

(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٣٦٩).

والمعاصي، وحياة من الشك والريب، وحياة من الشهوات والشبهات.

وما من شك بأن القرآن روح وحياة للإنسانية أجمع، الإنسانية التي قتلها الغرور، وأماتها الجهل، ونخر في أعضائها السوس، وتسربت إليها الأمراض الفتاكة، فانتكست وتعثرت وتدهورت، لا صحة لها، ولا حياة طيبة إلا بالقرآن العزيز الذي سماه الله روحًا"[(١)].

بيان الآية:

هذه الآية خاتمة السورة العظيمة الجليلة: سورة الشورى، تحتاج إلى وقفات تدبر وتأمل في معانيها، ومن فتح الله عليه في التأمل في هذه الآية العظيمة يدرك بأن القرآن كتاب هداية من الله ﷻ لعباده، وهو من النعم الكبرى التي أنعم الله بها على البشر، فقد ذكر الله سبحانه بأنه أوحى إلى رسوله ﷺ، الذي لم يسع، ولم يطلب تلك النعمة الكبرى، بل الفضل كله من الله ﷻ.

وتأمل في تلك الأوصاف العظيمة، حيث بين الله ﷻ أنه روح تحيا به القلوب، فهو حياة للأحياء، ومع كونهم أحياء يرزقون لكنهم بحاجة إلى هذه الروح؛ لتحيا قلوبهم.

ثم بيّن أنه النور الذي يضيء الدروب للأحياء، ويحتاجونه لكي يزيل عنهم الظلمات التي سيطرت على القلوب، حتى تضيء دروب القلب.

ثم زكى رسوله ﷺ، وشهد له ﷺ بأنه بأفعاله، وصبره، وحسن خلقه،

---

(١) الهدى والبيان في أسماء القرآن (٢/ ٤٤-٤٥).

واجتهاده، يهدي إلى صراط مستقيم، إلى دين قيم واضح جلي، وكيف لا يكون ذلك والقرآن والنور يتنزل عليه، ولكن كما قال الله ﷻ: ﴿مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾[الشورى:٥٢]، فهذا النور يستفيد منه من أراد الله تعالى له أن يستضيء به.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أوحينا إلى سائر رسلنا ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ يعني: القرآن.

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾ قبل الوحي ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ الإيمان اليقيني المبني على العلم؛ يعني شرائع الإيمان، ومعالمه على التفصيل، وإلا فقد كان النبي ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم، وقد شهد الله بسلامة فطرة النبي ﷺ.

﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ يعني: القرآن ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ أي: نرشد به[(١)].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بأن تدعوهم إلى الله تعالى، وتبيّن لهم[(٢)].

وقد جاء هذا الوصف للقرآن الكريم في معرض بيان طريقة الوحي للرسل عليهم السلام، فبمثل هذه الطريقة المعهودة جاءك الوحي -ولم تكن طريقتك بِدْعًا من الرسل- روحًا يبث الحياة وينميها في القلوب، وقد جاءك هذا الوحي ولم يكن لك دراية بالكتب ولا بتفاصيل شرائع الإيمان؛ فكان

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٧/ ٢٠١)، تفسير ابن كثير (٧/ ٢١٧) بتصرف.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢١/ ٥٦١).

لك ولمن اتبعك -ممن أراد الله هدايته- نورًا في ظلمات الجاهلية، وعليك أن تبينه وتوضحه وتبلغه للناس، أما أن يهتدوا به فذاك من خصائص ربك ﷻ وفق حكمته.

"فجعل وحيه روحًا ونورًا، فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت، ومن لم يجعل له نورًا منه فهو في الظلمات، وما له من نور، فسماه روحًا لما يحصل به من الحياة الطيبة، والعلم والقوة.

وجعله نورًا لما يحصل به من الإشراق والإضاءة، وهما متلازمان، فحيث وُجدت هذه الحياة بهذا الروح وُجدت الإضاءة والاستنارة، وحيث وُجدت الاستنارة والإضاءة وُجدت الحياة.

فمن لم يقبل قلبه هذا الروح فهو ميت مظلم، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل"[(١)].

من دلالات وصف القرآن بـ (الروح):

- أن الحياة الحقيقية هي الحياة مع القرآن وبالقرآن، فهو روح الحياة وسر سعادتها، وإذا عاش الإنسان بعيدًا عن القرآن فهو ميت في صورة جسد يتحرك، فمهما بذل الإنسان من وقته للقرآن؛ فإنما هو يبذل لروحه وحياته، ولا يستكثر وقته مع القرآن إلا من لم يفقه هذه الحقيقة.

- أن القرآن ليس مجرد أخبار جامدة، أو أحكام صامتة، بل هو روح للحياة البشرية، ومن نظر إلى القرآن بهذه النظرة انفتح له من أسراره وعجائبه

---

(١) التفسير القيم (ص:٤٠٧).

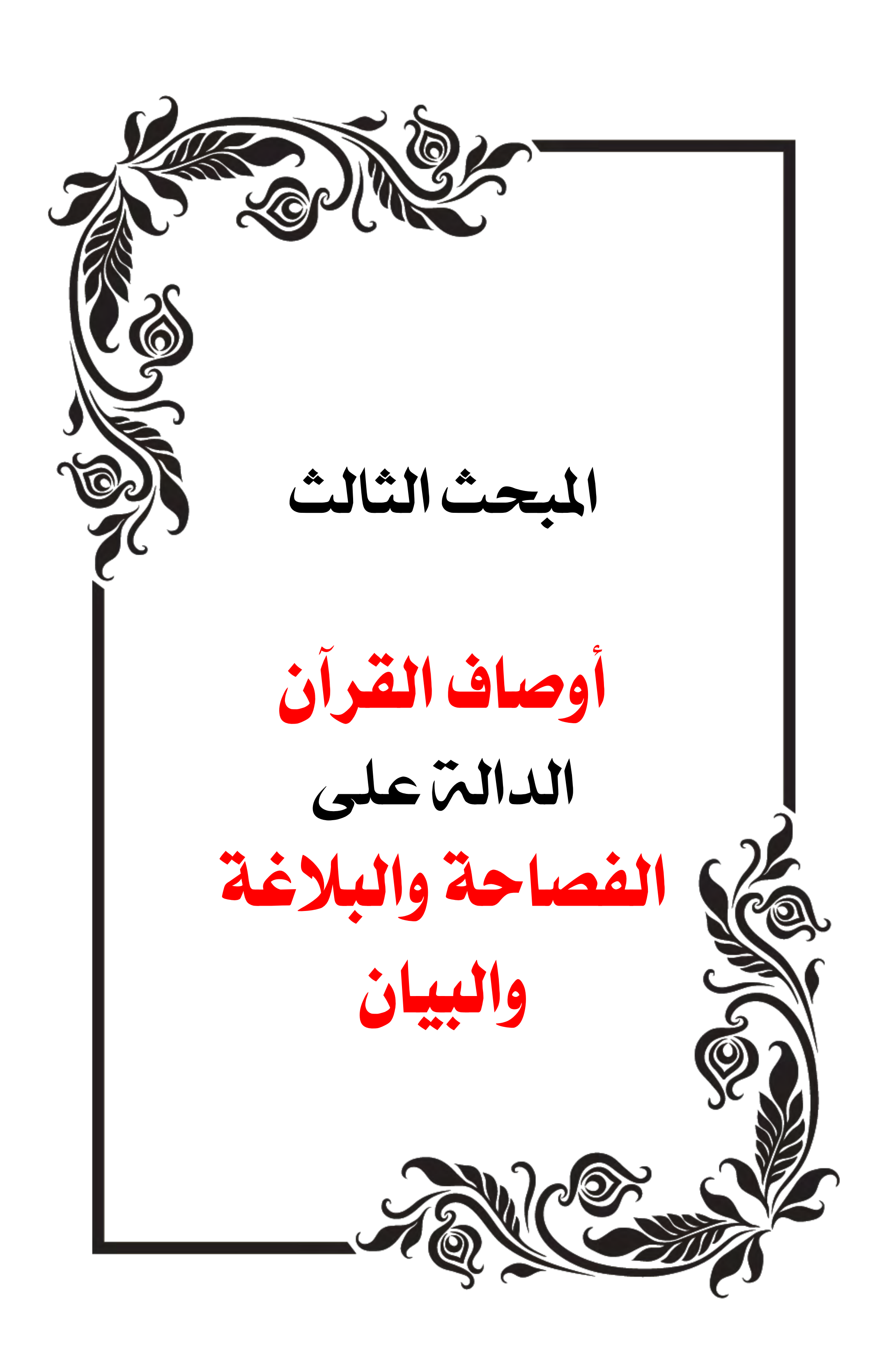
ووجد من نفحاته وآثاره ما لم يخطر له على بال.

- أن الله وصف القرآن بقوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[الشورى:٥٢]، على سبيل العموم، فيشمل روح كل ما فيه حياة، فهو روح للروح نفسها، وروح للنفوس البشرية، وروح للقلوب، وكذلك عموم وصف النور في قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾[الشورى:٥٢]، فهو نور يضيء القلوب والدروب.

ثم وصفه بأنه كتاب هداية: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ﴾[الشورى:٥٢]، أي: بالقرآن، فالقرآن كتاب هداية بلا ريب، والأصل فيه الهداية، فمن من سمع القرآن، ودرسه ولم يهتدِ فاعلم بأن السبب أن الله عز وجل صرفه عن القرآن؛ لأن الله قال: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾[الشورى:٥٢]، فالفاعل هنا رب العزة جل وعلا، لذلك قال: ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى:٥٢]، ولم يشأ الله هداية هؤلاء، فليس الخلل في الأصل وهو كتاب الهداية، لكن الخلل في قلوبهم التي لا تستحق الهداية، والتي طمس عليها فلم تهتدِ، نسأل الله العافية.

ثم بين الله عز وجل بأن هدي النبي ﷺ ودعوته متفقة مع هدي القرآن، فهو يدعو إلى المنهج السليم والحق القويم، فجعل الله المثال للمصطفى ﷺ، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[الشورى:٥٢]، بأخلاقك وآدابك التي تمثلت بها القرآن، حيث كان خلقه القرآن عليه الصلاة والسلام.





المبحث الثالث

أوصاف القرآن

الدالة على

الفصاحة والبلاغة

والبيان



وفيه الأوصاف التالية:

الوصف الأول: المبين

الوصف الثاني: العربي

الوصف الثالث: كلام الله وكلمات الله

الوصف الرابع: المفصَّل

الوصف الخامس: الحديث

الوصف السادس: القول

الوصف السابع: البلاغ

الوصف الثامن والتاسع: المتشابه والمثاني

الوصف العاشر: القصص

تمهيد

كان العرب في زمن بعثة النبي ﷺ قد بلغوا قمة وذروة البلاغة والفصاحة والبيان التي لم تصل إليها أمة قبلهم ولا بعدهم، وكانوا يتنافسون في نظم الشعر، وإلقاء الخطب، ونثر الكلام، كما يتنافسون في ميادين الحرب والقتال، بل أكثر، حتى صاروا يعلقون عيون أشعارهم ونفائسها على أستار الكعبة؛ تفاخرًا وتباهيًا، وأصبحت القبائل يرتفع شأنها بين العرب بقصيدة، ويصغر شأنها وتتهاوى مكانتها بقصيدة أخرى.

وفي وسط هذه المنافسة اللغوية الشديدة جاء القرآن معجزًا للعرب فيما برعوا فيه، وهو: الجانب اللغوي فيه، وجاء وصف القرآن بعدة أوصاف تشير إلى تميزه اللغوي من جهة كونه عربيًّا بيّنًا مفصلًا، وكذلك من جهة إثبات كونه كلامًا وقولًا حسنًا، وكذلك من جهة بعض الجوانب البلاغية، كالتشابه في الفصاحة، وحسن الحديث، وتثنية القول، وبديع القصص والأخبار.

وهذه جملة من الأوصاف التي تضمنت المعاني المشار إليها.



الوصف الأول
المبين

١- قال تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾[يوسف:١].

٢- قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾[النحل:٨٩].

٣- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾[النور:٣٤].

٤- قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩﴾[العنكبوت:٤٩].

معنى الوصف:

جاء وصف القرآن بأنه مبين في (١٢) موضعًا من القرآن.

والبيان هو الكشف عن الشيء[(١)]، وقيل: الإفصاح مع ذكاء[(٢)]، يقال: بان الشيء وأبان؛ إذا اتضح وانكشف[(٣)].

والمُبين من أبان بمعنى: ظهر، أي: ظهر إعجازه وكونه من عند الله تعالى، أو من أبان بمعنى: أظهر، أي: بيَّن للناس وأظهر لهم ما يحتاجون لمعرفته[(٤)].

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:١٥٧).

(٢) ينظر: القاموس المحيط (ص:١١٨٢).

(٣) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٣٢٨).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٩/ ٩٢).

قال ابن كثير ﷺ: "﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الواضح الجلي، الذي يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها"(١).

وتأكيدًا لمعنى البيان في القرآن؛ فقد جاءت تصريفات أخرى للفظ (البيان)، ووصف بها القرآن في قرابة (٢٠) موضعًا أخرى، فجاء وصف القرآن بأنه (آيات مبينات)، و(بينات) و(تبيان)، ولكل صيغة دلالة متميزة.

سبب وصف القرآن بـ(المبين):

قال الرازي ﷺ: "ووصفه بأنه مبين لأنه بيَّن فيه الحلال والحرام، أو لأنه بيَّن بفصاحته أنه من كلام الله دون كلام العباد، أو لأنه يبيّن صدق نبوة محمد ﷺ، أو لأنه يبيّن خبر الأولين والآخرين، أو لأنه يبيّن كيفية التخلص عن شبهات أهل الضلال"(٢)، ولا مانع من شموله لذلك كله، ويبقى اللفظ دلالة العموم.

وقال السعدي ﷺ: "ومن بيانه وإيضاحه: أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة، وأبينها، المبيّن لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة".

كذلك "ما يحتاجه العباد من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمّال، فهذا القرآن قد بيّنها غاية التبيين، وجلّاها للعباد"(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٥).

(٢) تفسير الرازي (٢٤/ ٥٧٧).

(٣) تفسير السعدي (ص:٣٩٣، ٦١١).

فهو بيّن واضح وضوحًا، يناسب كل إنسان، مهما كان عقله وذكاؤه وعلمه وعصره، فإذا قرأه أي إنسان عربي أو يجيد العربية أو تُلِي عليه أدرك منه معانٍ وعظات ومفاهيم، ووقف خاشعًا منبهرًا، وشعر أول ما شعر بأنه واضح جلي، لا غموض فيه ولا لبس، مهما كانت حصيلته من المعرفة(١).

"وأما كون آيات القرآن (بينات) فهي أنها بإعجازها البشر، وبقرن المسائل الاعتقادية فيها ببراهينها، والأحكام الأدبية والعلمية بوجوه منافعها، لا تحتاج إلى دليل آخر يدل على أنها هداية من الله تعالى، وأنها جديرة بالاتباع، بل هي دليل على نفسها عند صاحب الفطرة السليمة؛ كالنور يُظهِر الأشياء وهو ظاهر بنفسه، لا يحتاج إلى شيء آخر يظهره"(٢).

وأما كون آياته (مبينات) فقد قرئ بفتح الياء وبكسرها، قال ابن عطية ﷺ: "قرأ جمهور الناس «مبيَّنات» بفتح الياء، أي: بيَّنها الله تعالى وأوضحها، وقرأ الحسن وطلحة وعاصم والأعمش «مبيِّنات» بكسر الياء، أي: بيَّنت الحق وأوضحته"(٣).

وقال ابن جرير ﷺ: "والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان، وقد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء، متقاربتا المعنى، وذلك أن الله إذ فصّلها وبيَّنها صارت مبيِّنة بنفسها الحقَّ لمن التمسه من قِبَلها، وإذا بيَّنت ذلك لمن التمسه من قبلها، فيبين الله ذلك فيها، فبأي

---

(١) ينظر: أسماء القرآن وأوصافه في القرآن الكريم (ص:٢٥٨).

(٢) تفسير المنار (١/ ٣٢٦).

(٣) تفسير ابن عطية (٤/ ١٨٢).

القراءتين قرأ القارئ فمصيب في قراءته الصواب"[١].

وأما كونه (تبيانًا) فقال أبو السعود ﷺ: "التِّبيان كالتِّلقاء في كسر أوله، وكونه تبيانًا لكل شيء من أمور الدين باعتبار أن فيه نصًّا على بعضها، وإحالة لبعضها على السنة؛ حيث أمر باتباع النبي ﷺ وطاعته، وقيل فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾، وحثًّا على الإجماع، وقد رضي رسول الله ﷺ لأمته باتباع أصحابه، وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق الاجتهاد، فكانت السنة والإجماع والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب"[٢].

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾[يوسف:١].

قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الواضح الجلي، الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبيّنها[٣]، فليس فيه خفاء ولا لبس، ولا يمكن أن يقال فيه ظاهر وباطن.

"ووصف الكتاب هنا بـ(المبين)، إذ كانت القصة التي تضمنتها هذه السورة مفصِّلة مبيِّنة لأهم ما جرى في مدة يوسف عليه السلام بمصر؛ فقصة يوسف عليه السلام لم تكن معروفة للعرب قبل نزول القرآن إجمالًا، ولا تفصيلًا، بخلاف قصص الأنبياء: هود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب عليهم السلام

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٧٧).
(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ١٣٥-١٣٦).
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٥).

أجمعين، إذ كانت معروفة لديهم إجمالًا، فلذلك كان القرآن مبيّنًا إياها ومفصلًا»[١].

و"آيات هذه السورة هي آيات الكتاب البيِّن الظاهر بنفسه في حقيقته وإعجازه، وكونه ليس من كلام البشر، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين، ومصالح الدنيا[٢]. وإنما وصف القرآن بكونه مُبينًا لأنه معجزة قاهرة، وآية بينة لمحمد ﷺ، وفيه بيان الهدى والرشد، والحلال والحرام، وبُيِّنت فيه قصص الأولين، وشُرِحت فيه أحوال المتقدمين»[٣].

٢- قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾[النحل:٨٩].

قال الشنقيطي رحمه الله: "القرآن فيه بيان كل شيء، والسنة كلها تدخل في آية واحدة منه، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧]. قال الشافعي: ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، فإن قيل: من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسنة؟ قلنا: ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة؛ لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول ﷺ، وفرض علينا الأخذ بقوله"[٤].

وقال ابن عاشور رحمه الله: "﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ يفيد العموم، إلا أنه عموم عرفي في

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠٠).

(٢) تفسير المنار (١٢/ ٢٠٨).

(٣) تفسير الرازي (١٨/ ٤١٦).

(٤) أضواء البيان (٢/ ٤٢٨).

دائرة (ما لمثله تجيء الأديان والشرائع)؛ من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدني، وتبيين الحقوق، وما تتوقف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانية، وصدق الرسول ﷺ، وما يأتي في خلال ذلك من الحقائق العلمية والدقائق الكونية، ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم، وفي خلال ذلك كله أسرار ونكت من أصول العلوم والمعارف صالحة لأن تكون بيانًا لكل شيء على وجه العموم الحقيقي، إن سلك في بيانها طريق التفصيل واستنير فيها بما شرح الرسول ﷺ، وما قفاه به أصحابه وعلماء أمته، ثم ما يعود إلى الترغيب والترهيب من وصف ما أعد للطائعين، وما أعد للمعرضين، ووصف عالم الغيب والحياة الآخرة.

ففي كل ذلك بيان لكل شيء يقصد بيانه؛ للتبصر في هذا الغرض الجليل، فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه إلى عموم حقيقي بضمنه ولوازمه، وهذا من أبدع الإعجاز"[(١)].

فصل:

قد جاء في سورة النحل آيتان أخريان تدلان على بيان القرآن:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَآ﴾ فيه تعظيم لكتاب الله ﷻ بنسبة تنزيله إلى الله تعالى، كما أنه

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٣).

إشارة إلى أن هذا القرآن محفوظ.

وقوله ﷻ: ﴿إِلَيْكَ﴾ فيه تشريف للنبي ﷺ.

و﴿ٱلذِّكْرَ﴾: ولم يقل: القرآن؛ ليشمل الحكمة التي هي كلامه ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾[الأحزاب:٣٤]، والحكمة هي أقواله وأفعاله ﷺ.

وقال ابن عاشور ؒ: "وفي الاقتصار على إنزال الذكر عقب قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ إيماء إلى أن الكتاب المنزل على محمد ﷺ هو بينة وزبور معًا، أي: هو معجزة وكتاب شرع، وذلك من مزايا القرآن التي لم يشاركه فيها كتاب آخر، ولا معجزة أخرى"[1].

وقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، يبين حقيقة المهمة التي كُلِّف بها النبي ﷺ، وهي بيان القرآن، ولا شك أن الرسول ﷺ قد قام بهذا الواجب حق القيام ولم يُخِلّ به أبدًا، ولم يحصل منه تقصير أو تقاعس في القيام بهذه الوظيفة، فقد بيَّن القرآن لأصحابه وللأمة بأقواله وأفعاله وتقريراته وسيرته العطرة، التي تمثلت في أخلاقه وسلوكه مع الموافق والمخالف، حتى لم تجد عائشة ؓ وصفًا يعبر عن هذه الأخلاق إلا أن قالت: «خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»[2]، وهذا يدل على أن سلوك النبي ﷺ وسيرته هو البيان العملي الواقعي للقرآن. وقد نجح النبي ﷺ في أداء هذه المهمة، وفي بيان القرآن؛ حتى ترك الأمة «على مثل البيضاء؛ ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥١٢) برقم: (٧٤٦).

إلا هالك»[١].

وهذا المعنى الوارد في هذه الآية تؤكده الآية الثانية، وهي:

قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قال ابن جرير رحمه الله: "يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وما أنزلنا يا محمد عليك كتابنا، وبعثناك رسولًا إلى خلقنا؛ إلا لتبين لهم ما اختلفوا فيه من دين الله، فتعرّفهم الصواب منه، والحقّ من الباطل، وتقيم عليهم بالصواب منه حجة الله الذي بعثك بها"[٢].

فكل ما وقع من اختلاف بين اليهود والنصارى، وما اختلف فيه المشركون، وما اختلف فيه عباد الأوثان، وما جهلوه من توحيد الله سبحانه وتعالى وتعظيمه وتوقيره عز وجل، كل ذلك قد جاء لبيانه.

قال ابن عاشور رحمه الله: "فالقرآن جاء مبينًا للمشركين ضلالهم؛ بيانًا لا يترك للباطل مسلكًا إلى النفوس، ومفصِحًا عن الهدى إفصاحًا لا يترك للحيرة مجالًا في العقول، ورحمة للمؤمنين بما جازاهم عن إيمانهم من خير الدنيا والآخرة.

والإتيان بصيغة القصر في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ ﴾ لقصد الإحاطة بالأهم من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها"[٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ١٦) برقم: (٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨٠٥) برقم: (٤٣٦٩) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٢٣٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ١٩٦) مختصرًا.

وقال الرازي ﵀: "وصف القرآن بكونه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ لا ينفي كونه كذلك في حق الكل، كما أن قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[البقرة:٢] لا ينفي كونه هدى لكل الناس، كما ذكره في قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[البقرة:١٨٥] وإنما خص المؤمنين بالذكر من حيث إنهم قبلوه فانتفعوا به، كما في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾[النازعات:٤٥]؛ لأنه إنما انتفع بإنذاره هذا القوم فقط، والله أعلم"[(١)].

٣- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾[النور:٣٤].

قال السعدي ﵀: "﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحات الدلالة، على كل أمر تحتاجون إليه من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة"[(٢)].

وقال الطبري ﵀: "﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يقول: مبيّنات لمن سمعها وتدبرها أنها من عند الله"[(٣)].

٤- قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[العنكبوت:٤٩].

قال الزمخشري ﵀: "وهما من خصائص القرآن: كون آياته بيّنات الإعجاز، وكونه محفوظًا في الصدور يتلوه أكثر الأمة ظاهرًا، بخلاف سائر

---

(١) تفسير الرازي (٢٠/ ٢٣١).

(٢) تفسير السعدي (ص:٥٦٨).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٤٦٨).

الكتب، فإنها لم تكن معجزات، وما كانت تُقرأ إلا من المصاحف"[(١)].

من دلالات وصف القرآن بـ (المبين):

- أن ارتباط وصف القرآن بالبيان، مع ذكر كونه عربي اللسان؛ فيه إشارة إلى أن أحد أهم أوجه بيانه هو كونه عربيًّا، فمن أراد معرفة بيان القرآن فعليه باللغة العربية.

- وضوح القرآن وسهولته على الفهم في معظمه، فآياته واضحة المعنى والدلالة، وهذا لأجل أن يفهمه الناس ويتدبروه ويعملوا به، خلافًا لمن يتوهم صعوبة القرآن على الفهم؛ فيصده ذلك الوهم عن تدبر آياته، ومن خفي عليه شيء في فهم القرآن فليرجع إلى سيرة النبي ﷺ وأقواله، فهي المبينة لما خفي، والله أعلم.

- أن من أراد أن يُقْنِع الناس بالحق فأفضل الطرق لذلك هي الطريقة القرآنية؛ لأنها أبين وأوضح وأجلى طريق، ومن ظن أن طريقة أخرى هي أفضل من الطريقة القرآنية فقد أخطأ وأساء تقدير القرآن المبيّن حق قدره.

- أن كون القرآن مبينًا، فذلك يفيد في أن الحجة لا تقوم إلا بعد البيان فما لم يتبين للمخاطب وجه الخطاب فلن تقوم عليه الحجة والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[النساء: ١١٥]، فالتبيُّن الذي به يزول الاشتباه شرط في إقامة الحجة.

۞ ۞ ۞

---

(١) الكشاف للزمخشري (٣/ ٤٥٩).



الوصف الثاني
العـــــربي

١- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾[يوسف:٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾[الرعد:٣٧].

٣- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾[فصلت:٣].

معنى الوصف:

جاء هذا الوصف للكتاب العزيز في (١١) موضعًا من القرآن.

والعربي: الفصيح البيّن من الكلام[1]، قال ابن فارس ﷺ: "فأما الأمة التي تسمى: العرب؛ فليس ببعيد أن يكون سميت: عربًا من هذا القياس؛ لأن لسانها أعرب الألسنة، وبيانها أجود البيان"[2]، وكونه عربي أي أنه بلسان العرب ولغتهم[3].

سبب وصف القرآن بـ(العربي):

وصف القرآن بالعربي ليس فقط لأنه نزل باللسان واللغة العربية، ولكن أيضًا لأنه بلغ أعلى درجات الفصاحة العربية التي ما بلغها كتاب عربي غيره.

وإنما كان اختيار اللغة العربية كما قال ابن كثير ﷺ: "لأن لغة العرب

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٥٥٧).

(٢) مقاييس اللغة (٤/ ٣٠٠).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (١٩/ ٣٩٦).

أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه"(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ (٢)"، وعن الصحابة أخذ القرآن خيرة طلابهم من التابعين وعنهم أتباع التابعين فأصبح مسلسلا بالإسناد الزاكي إلى المصطفى ﷺ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[الشورى:٧] اللام في قوله: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ للتعليل، أي: لكي تنذر، وهذا إشارة لسبب اختيار اللغة العربية، حيث إن الإنذار لا يتحقق بلغة أخرى مثل ما يتحقق باللغة العربية؛ لأن المفردات القادرة على تصوير المشاهد من أحداث القيامة، والبعث، والنشور، والحساب، والجنة، والنار لا توجد في لغة مثل ما توجد في اللغة العربية.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٧٩) (٣٦٠٠)، قال ابن القيم في "الفروسية" (٢٩٩): ثابت عن ابن مسعود.

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾[يوسف:٢].

أي: إنا أنزلنا هذا الكتاب المبين قرآنًا عربيًّا على العرب؛ لأن لسانهم وكلامهم عربي، فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه ويفقهوا منه[(١)].

وختم الآية بقوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ إشارة إلى أن تعلم اللغة العربية والفصاحة ينمي العقل، وهذا يظهر ويُشاهَد على الطلاب الذين يحفظون القرآن من خلال تفوقهم في مراحلهم الدراسية، وهذا دليل وبرهان واضح على أثر القرآن في تنمية القوة العقلية، فحفظ القرآن يؤدي إلى معرفة الكثير من المفردات التي يحفظها الطفل؛ فتعطيه قوة عقلية أكثر من غيره.

٢- قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾[الرعد:٣٧].

قال ابن عاشور ﷺ: "الحكم: هنا بمعنى الحكمة، كما في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢﴾[مريم:١٢]، والمقصود أنه بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأجملها وأسهلها، وفي ذلك إعجازه، فحصل لهذا الكتاب كمالان: كمال من جهة معانيه ومقاصده، وهو كونه حكمًا، وكمال من جهة ألفاظه، وهو المكنى عنه بكونه عربيًّا، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله؛ لأن الحكمة أشرف المعقولات؛ فيناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتعبير عن الحكمة"[(٢)].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٣/ ٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٦٠).

٣- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾[فصلت:٣].

يقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أي: كتابٌ جامع للمصالح الدينية والدنيوية، بُيِّنت معانيه، ووُضِّحت أحكامه، بطريق القصص والمواعظ والأحكام والأمثال، في غاية البيان والكمال، ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ أي: في حال كونه قرآنًا عربيًّا، واضحًا جليًّا نزل بلسان العرب ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لقومٍ يفهمون تفاصيل آياته، ودلائل إعجازه، فإنه في أعلى طبقات البلاغة، ولا يتذوق أسراره إلا من كان عالمـًا بلغة العرب[١].

من دلالات وصف القرآن بـ (العربي):

- أفضلية اللغة العربية على غيرها من اللغات؛ لأن القرآن نزل بها، مما يدعو إلى الاعتزاز والاحتفاء والافتخار بها.

- الآيات كثيرة في بيان عربية القرآن، وأنه حجة على العرب، ولا يمكن تفسيره بغير الدلالات العربية، فلا تُفَسَّر دلالاته من خلال إشارات غير مفهومة أو حدس أو رؤى منامية، بل يُفَسَّر القرآن بالقرآن أو بتفسير النبي ﷺ أو تفسير الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنه نزل باللغة التي يفهمونها، وكان الرسول ﷺ هو المعلّم والمزكّي لهم بنص القرآن، وليس في القرآن ظاهر ولا باطن بما لا تفهمه العرب من لغتها، ولا يخفى عليك، ولا يخفى عليك أيها القارئ الكريم! بأن الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم من قريش، وقد بلغوا الذروة في الفصاحة، ومثلهم الأنصار، وكل عرب ذاك العصر كان كلامهم في النثر والشعر حجة في اللغة.

---

(١) صفوة التفاسير (٣/ ١٠٧).

- الحث على التوسع في تعلم اللغة العربية، ومعرفة قواعدها وأصولها ومعانيها؛ لأن فهم القرآن العربي معتمد على فهم اللغة العربية، وكلما كان الشخص أكثر معرفة بها كان أعمق فهمًا للقرآن ومعانيه، والعلم النافع العظيم في هذا الكتاب لا يتأتى إلا لمن هو عالم باللسان العربي، بل إن غاية نذارة القرآن بما فيه من الوعيد لا تتحقق إلا بالعلم باللغة العربية، فالآيات الواصفة للقرآن بالعربي تحث على إتقان العربية؛ لكي نصل إلى كل هذه الغايات المذكورة، قال ابن فارس ﷺ: "إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا، وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله ﷺ عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله جل وعز، وما في سنة رسول الله ﷺ من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بُدًّا"[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت:٣] إشارة لهذا المعنى حيث ختم الآية بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أن اللغة العربية ضرورية لمن أراد أن يصير عالمًا ويستحق هذا اللقب. قال السعدي ﷺ: "أي: لأجل أن يتبيّن لهم معناه، كما تبيّن لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والْغَيّ من الرشاد"[(٢)].



(١) الصاحبي في فقه اللغة (ص:٥٠).

(٢) تفسير السعدي (ص:٧٤٤).

الوصف الثالث
كلام الله وكلمات الله

١- قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾[الأنعام:١١٥].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾[التوبة:٦].

٣- قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الكهف:٢٧].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف للقرآن في قرابة (١٠) مواضع من القرآن، بصيغة (كلام الله) و(كلمة الله) و(كلمات الله).

(الكَلِم) يدل على نطقٍ مفهمٍ، ومنه الكلام والكَلِمَة[١]، وهو يدل على معنى التأثير، قال الراغب ﵀: "الكلْمُ: التأثير المدرك بإحدى الحاسّتين، فَالْكَلَامُ: مدرك بحاسّة السّمع، والْكَلْمُ: بحاسّة البصر"[٢].

والكلام: هو القول، وقيل: بينهما فرق[٣].

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ١٣١).
(٢) المفردات في غريب القرآن (ص:٧٢٢).
(٣) لسان العرب (١٢/ ٥٢٣).

سبب وصف القرآن بـ(كلام الله):

وصف القرآن بالكلام؛ لأنه كلام تكلم الله ﷻ به، كما هي عقيدة أهل السنة فيه(١).

ولأنه يؤثِّر في ذهن السامع فائدة لم تكن عنده(٢)، وهذا باعتبار أن أصل (كلم) يدل على التأثير كما تقدم.

بيان الآيات:

١- **قال تعالى:** ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾[الأنعام:١١٥].

قال ابن جرير رحمه الله: "﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، يعني: القرآن، سماه: (كلمة)، كما تقول العرب للقصيدة من الشعر يقولها الشاعر: (هذه كلمة فلان)"(٣).

وقال الرازي رحمه الله: "كل ما حصل في القرآن نوعان: الخبر والتكليف.

أما الخبر: فالمراد كل ما أخبر الله عن وجوده أو عن عدمه، ويدخل فيه الخبر عن وجود ذات الله تعالى، وعن حصول صفاته، ويدخل فيه الإخبار عن صفات التقديس والتنزيه، كقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾[الإخلاص:٣]، وكقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة:٢٥٥]، ويدخل فيه الخبر عن أقسام

---

(١) ينظر: عقيدة السلف لابن أبي زيد (ص:٣٥)، لمعة الاعتقاد (ص:١٨)، شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص:١٢٧).

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٤١).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٦٢).

أفعال الله، وكيفية تدبيره لملكوت السماوات والأرض، وعالمي الأرواح والأجسام، ويدخل فيه كل أمر عن أحكام الله تعالى في الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، ويدخل فيه الخبر عن أحوال المتقدمين، والخبر عن الغيوب المستقبلة، فكل هذه الأقسام داخلة تحت الخبر.

وأما التكليف: فيدخل فيه كل أمر ونهي توجه منه سبحانه على عبده، سواء كان ذلك العبد مَلَكًا، أو بشرًا، أو جنيًّا، أو شيطانًا، وسواء كان ذلك في شرعنا أو في شرائع الأنبياء عليهم السلام المتقدمين، أو في شرائع الملائكة المقربين الذين هم سكان السماوات والجنة والنار والعرش وما وراءه مما لا يعلم أحوالهم إلا الله تعالى.

وإذا عرفت انحصار مباحث القرآن في هذين القسمين فنقول: قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ إن كان من باب الخبر ﴿وَعَدْلًا﴾ إن كان من باب التكاليف، وهذا ضبط في غاية الحسن"[1].

وقال السعدي رحمه الله: "﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق، وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها، ولا اقتراح أحسن منها.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والماضي والمستقبل"[2].

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ١٢٥).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٧٠).

وقال القرطبي رحمه الله: "ودلت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن؛ لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه؛ لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شيء من الأمور كلها"(١).

٢- قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾[التوبة:٦].

أي: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم، أي: استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله (٢)، ولم يبيّن سبب الاستجارة، لأن ذلك مختلف الغرض، وهو موكول إلى مقاصد العقلاء؛ فإنه لا يستجير أحد إلا لغرض صحيح(٣).

﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأعذه وآمنه(٤)، وجيء بحرف)إن(التي شأنها أن يكون شرطها نادر الوقوع للتنبيه على أن هذا شرط فرضي؛ لكيلا يزعم المشركون أنهم لم يتمكنوا من لقاء النبي ﷺ فيتخذوه عذرًا للاستمرار على الشرك إذا غزاهم المسلمون(٥).

﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن تقرؤه عليه، وتذكر له شيئًا من أمر

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٧١).
(٢) ينظر: تفسير البغوي (٤/ ١٤).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/ ١١٨).
(٤) ينظر: تفسير البغوي (٤/ ١٤).
(٥) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/ ١١٧)

الدين تقيم عليه به حجة الله[١]، والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شيء آخر في الفهم؛ لكونهم من أهل اللسان والفصاحة[٢].

﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ أي: إن لم يسلم أبلغه الموضع الذي يأمن فيه وهو دار قومه، فإن قاتلك بعد ذلك فقدرت عليه فاقتله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون دين الله تعالى وتوحيده، فهم محتاجون إلى سماع كلام الله[٣].

قال محمد رشيد رضا ﵀: "الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ، وهي مخصصة لما في قوله تعالى قبلها: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[التوبة:٥] إلى آخره من معنى العموم، فهي تستثني منهم من طلب منهم الأمان، ليعلم ما أنزله الله وأمر به من دعوة الإسلام، ذلك بأن بعض المشركين لم تبلغهم الدعوة بلاغًا تامًّا مقنعًا، ولم يسمعوا شيئًا من القرآن.

وهو الآية المعجزة للبشر الدالة بذاتها على كونه من عند الله، لا من كلام محمد الأمي ﷺ أو لم يسمعوا منه ما تقوم به الحجة، وإنما أعرضوا وعادوا الداعي وقاتلوه؛ لأنه جاء بتفنيد ما هم عليه من الشرك، وما كان عليه آباؤهم منه، وقد طُبِعوا على نعرة العصبية لهم والنضال دونهم، حتى إنه لو لم تتضمن الدعوة الحكم بجهلهم، وتسفيه أحلامهم، لَمَا احتموا عليها كل ذلك الاحتماء، وقابلوها بكل ذلك العداء، ويليها في ذلك تحقير آلهتهم، وأما

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١١٣).
(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/ ٤٤).
(٣) ينظر: تفسير البغوي (٤/ ١٤).

اختلاف العقيدة وحده فلم يكن يقتضي عندهم كل ذلك.

وسماع كلام الله يحصل بالقليل والكثير منه، ولكن المراد الذي يقتضيه المقام أن يسمع من كلام الله تعالى ما يراه هو، ونراه نحن كافيًا للعلم بدعوة الإسلام، أو القدر الذي تقوم به الحجة منه، وهو ما يتبيّن به بطلان الشرك، وحقيقة التوحيد والبعث، وصدق الرسول ﷺ في تبليغه عن الله ﷻ.

وكان العربي منهم يفهم القرآن، ويشعر من نفسه بأنه معجز للبشر، ويفهم حججه العقلية والعلمية على التوحيد والرسالة والبعث، فإذا ألقى إليه السمع وهو شهيد، لا يلبث أن يظهر له الحق في هذه الأصول، فإن لم تصده العصبية، والتزام العداوة للداعي لا يلبث أن يؤمن، فإن لم يفعل كان له شأنه وحريته، ولكن يُمنع من مساكنة المسلمين في دار الإسلام، والحال والدار ما علمنا"(١).

فائدة:

جاء هذا الوصف لهذا الكتاب في معرض بيان استجارة المشرك المحاد لله تعالى وطلبه للأمان، وبهذا يتبيّن أن من غايات الجهاد إسماع الكافرين القرآن، والصدع به في أوساط بلدانهم، فإن سمحوا للمسلمين بالدعوة إلى الله ولم يعترضوا، فهذا لب وغاية صلح الحديبية لمن تأمل في الشروط بين رسول الله ﷺ وكفار قريش، وإن أتى أحد منهم مستجيرًا فيُجار ليسمع كلام الله تعالى، ويتعلَّم، ولا يُجاهَد بالسيف إلا من حارب هذا الدين، وحال دون

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ١٥٩- ١٦٠) بتصرف.

سماع الناس لكلام رب العالمين.

٣- قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الكهف:٢٧].

قال ابن الجوزي رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ في هذه التلاوة قولان: أحدهما: أنها بمعنى القراءة، والثاني: بمعنى الاتّباع. فيكون المعنى على الأول: اقرأ القرآن، وعلى الثاني: اتبعه واعمل به"(١).

وقال الرازي رحمه الله: "اعلم أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله ﷺ: إن أردت أن نؤمن بك فاطرد من عندك؛ هؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك(٢)، والله تعالى نهاه عن ذلك ومنعه عنه، وأطنب في جملة هذه الآيات في بيان أن الذي اقترحوه والتمسوه مطلوب فاسد واقتراح باطل، ثم إنه تعالى جعل الأصل في هذا الباب شيئًا واحدًا، وهو أن يواظب على تلاوة الكتاب الذي أوحاه الله إليه وعلى العمل به، وأن لا يلتفت إلى اقتراح المقترحين وتعنت المتعنتين؛ فقال: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾"(٣).

وقال السعدي رحمه الله: "﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ أي: لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذًا تعوذ به، فإذا تعيّن أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعيّن أن يكون هو المألوه المرغوب إليه في السراء والضراء،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٧٩).

(٢) القصة أخرجها مسلم (٤/ ١٨٧٨) برقم: (٢٤١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) تفسير الرازي (٢١/ ٤٥٤-٤٥٥).

المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب"(١).

من دلالات وصف القرآن بـ (كلام الله):

- أن تعظيم القرآن يكون بقدر تعظيم الله تعالى، فالكلام يُعَظَّم بقدر المتكلم به، ومن انتقص القرآن وأساء إليه فإنما ينتقص المتكلم به وهو الله ﷻ، ولهذا ينبغي الحذر عند الحديث عن القرآن وآياته، فالحديث فيها هو حديث عن الله تعالى.

- أن القرآن كلام الله وخطابه لنا، فهو باقٍ مستمر إلى قيام الساعة، وكلما قرأه العبد شعر أن ربه سبحانه يكلمه ويخاطبه، وهذا الشعور يربطه بربه ﷻ ويجعله على صلة دائمة به، فالقرآن هو الحبل الذي يصل العبد بربه جل في علاه.

والاعتقاد بأن القرآن هو كلام الله ﷻ هي عقيدة أهل السنة. قال ابن تيمية ﵀: "ومن الإيمان به وبكتبه: الإيمان بأن القرآن كلام الله، منزل، غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، هو كلام الله حقيقة، لا كلام غيره، وهو كلام الله؛ حروفه ومعانيه"(٢).

- أنه لا ينبغي تقديم أي كلام أو قول على القرآن؛ لأن القرآن كلام الله، وليس لأحد كلام بعد كلام الله، فهو يعلو ولا يُعلى عليه.



---

(١) تفسير السعدي (ص:٤٧٥).

(٢) العقيدة الواسطية (ص: ٨٩) مختصرًا.



١- قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾[الأنعام:١١٤].

٢- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[الأعراف:٥٢].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف بهذا اللفظ (المفصَّل) مرة واحدة في القرآن، وجاء بصيغة الفعل والمصدر (فُصِّلَت)، (فصلناه)، (نفصل)، (تفصيل)، في (١٠) مواضع من القرآن.

ومعنى التفصيل: "التبيين والتوضيح. مشتق من الفصل، وهو تفرق الشيء عن الشيء، ولما كانت الأشياء المختلطة إذا فصلت يتبيّن بعضها من بعض أطلق التفصيل على التبيين"(١).

وحقيقته: "جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولًا بعضها من بعض بما يزيل الاشتباه، واختلاط بعضها ببعض في الأفهام، وليس معناه ذكر كل نوع منها على حدته، ولا التطويل ببيان جميع فروعه، ففي القرآن تفصيل كل شيء نحتاج إليه في أمر ديننا: أسهب حيث ينبغي الإسهاب، وأوجز حيث

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٢٦٠).

يكفي الإيجاز"[١].

سبب وصف القرآن بـ(المفصل):

قال الماوردي ﷺ: "في المفصَّل أربعة تأويلات:

أحدها: تفصيل آياته لتبيان معانيه، فلا تُشْكِل.

والثاني: تفصيل الصادق من الكاذب.

والثالث: تفصيل الحق من الباطل، والهدى من الضلال، قاله الحسن.

والرابع: تفصيل الأمر من النهي، والمستحب من المحظور والحلال من الحرام"[٢].

وقيل: جُعِل فصولًا من الأحكام، والدلائل، والمواعظ، والقصص، أو فصل فيه مهمات العباد في المعاش والمعاد[٣].

وقيل: جعلت فصولًا، سورة سورة، وآية آية، وفرِّقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة[٤].

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٩٣).

(٢) تفسير الماوردي (٢/ ١٦٠).

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/ ١٨٢).

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٧٧).

ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾[الأنعام:١١٤].

قال مشركو قريش للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَمًا، إن شئت من أحبار اليهود، وإن شئت من أحبار النصارى؛ ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك؛ فنزلت عليه هذه الآية[(١)].

وقد جاء قبل هذه الآية عدد من الآيات التي فيها تعظيم الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[الأنعام:٩١]، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾[الأنعام:٩٥] ثم جاء الأمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يتبع الوحي الذي جاءه من الله تعالى ولا يخرج عنه، فقال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[الأنعام:١٠٦] وكل هذا تأكيد على أن الأمر لله ﷻ أولًا وآخرًا، وأن الواجب على العباد اتباع الوحي الذي جاءهم من عند الله ﷻ، وفي هذا السياق جاءت هذه الآية.

قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ أي: قل لهم يا محمد: أفغير الله أطلب قاضيًا بيني وبينكم[(٢)].

قال القرطبي ؒ: "الحكم أبلغ من الحاكم، إذ لا يستحق التسمية بحَكَم إلا من يحكم بالحق؛ لأنها صفة تعظيم في مدح، والحاكم صفة جارية على الفعل، فقد يُسمَّى بها من يحكم بغير الحق"[(٣)].

---

(١) ينظر: تفسير الماوردي (٢/ ١٥٩).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٣/ ١٨٠).

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٧٠).

وقال ابن عاشور ﷺ: "والحَكَم: الحاكم المتخصص بالحُكْم الذي لا ينقض حكمه، فهو أخص من الحاكم، ولذلك كان من أسمائه تعالى: الحَكَم، ولم يكن منها: الحاكم"[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ أي: وهو الذي أنزل إليكم القرآن المبين الذي بان فيه الحق من الباطل، والأمر من النهي، والحلال من الحرام[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: والذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى، يعلمون أن القرآن منزل بالحق، بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين[٣].

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: من الشاكّين أنهم يعلمون ذلك[٤]، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه[٥]، ولم يكن لرسول الله ﷺ أن يشك أو يمتري، وإنما فائدة ذلك تبيين عِظَم ما كان يلقاه مع أصحابه من شدة الكيد والتكذيب والمعارضة، حتى لو كان قُدِّر أن يشك أو يمترى لكان ذلك في تلك الفترة العصيبة التي مروا بها في العهد المكي.

جاء هذا الوصف في سياق رد المولى ﷻ على من يبتغي غير الله حكمًا،

---

(١) التحرير والتنوير (٨/ ١٤).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٦٩).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٢).

(٤) ينظر: تفسير البغوي (٣/ ١٨١).

(٥) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٢).

فالله هو الحَكَم، وحُكْمُه موجود في هذا الكتاب المفصّل المبين للحق من الباطل والهدى من الضلال والحلال من الحرام.

هذا الأسلوب الشيق البليغ الذي يدل على رِضَا الله تعالى لهذا الكتاب أن يكون حَكَمًا؛ يؤكد أن فيه ما يغني عن تحكيم غير الله تعالى في أي شأن من شؤون الحياة، إذ أنه يشتمل على أصول ومبادئ يقوم عليها نظام الحياة ومجتمع البشرية في شتى المجالات، فالله ﷻ بهذا الرضا لم يترك شيئًا غامضًا بلا حل، ولم يحوج العباد لمصدر آخر غير الوحي لحل مشكلاتهم.

٢- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[الأعراف:٥٢]

قال محمد رشيد رضا ؒ: "أي: ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن، كامل التبيان، وهو القرآن، فصّلنا آياته تفصيلًا على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من العلم والعمل؛ لتزكية أنفسهم، وتكميل فطرتهم، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، حال كونه أو لأجل أن يكون بذلك منار هداية عامة، وسبب رحمة خاصة لقوم يؤمنون به إيمان إذعان، يبعث على العمل بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه" ثم ذكر أمثلة من تفصيل القرآن لقضايا العقيدة والعبادة والعلم، ثم قال: "فبمثل هذا التفصيل كان الإسلام دين العلم والعقل، وكان القرآن ينبوع الهدى والحكمة والرحمة، فيا حسرة على المحرومين من رحمته! ويا شقاء الطاعنين في هدايته!"[١].

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٩٣).

وهذه الآية من الآيات التي فيها دلالة عظيمة على إتقان القرآن وإحكامه، فقوله سبحانه: (جئناهم) (فصلناه) نسب الفعل إلى نفسه ﷻ، و(بكتاب) أتى به منكرًا دلالة على تعظيمه، وهو (كتاب) أي: مكتوب، حتى يظل محفوظًا يتداوله الناس ويتناقلونه على مر الدهور وفي كل مكان.

ثم قال: ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ "عَلى عِلْمٍ منا بوجه تفصيله"[(١)]، وقيل: "مشتملًا على علم كثير"[(٢)].

من دلالات وصف القرآن بـ (المفصل):

- أن القرآن جاء مناسبًا وملبيًا حاجة البشر لصلاح حياتهم في كل زمان ومكان، فقد فصَّله الله تعالى -وهو العليم بما يحتاج إليه البشر- لصلاحهم في دنياهم وأخراهم.

- أن دعوى بعض الناس أنهم لا يجدون في القرآن جوابًا للأمور المهمة في حياتهم؛ سببها إما ضعف فهمهم للقرآن، وقلة تدبرهم له، وإلا فقد جاء القرآن تبيانًا لكل شيء مفصلًا تفصيلًا، وإما أن هذا الأمر ليس من المهمات كما يظنون، والجهل به لا يضر حياتهم، ولهذا لم يتحدث القرآن عنه، أو أن القرآن لم يتحدث عن تلك الجزئيات، لأنها داخلة في القواعد الكلية التي جاء بها، والتي لا تخفى على العلماء.

- القرآن يحوي قواعد ومبادئ كلية وعامة تُرد إليها الفروع والجزئيات،

---

(١) روح المعاني (٤/ ٣٦٦)

(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٣١).

فما استجد في حياة الناس من أحكام ومعاملات وحاجيات يتم ربطها بمقاصد القرآن وكلياته، واستنباط أحكامها من خلال الأحكام والقواعد الكلية، فالقرآن مستودع هذه الكليات ومصدرها، فهي مقدمة بعين الاعتبار، وهذه الكليات تتعلق بجانب الاعتقاد والأحكام والآداب والأخلاق، وتنبثق منها التشريعات التفصيلية والتطبيقية، كما جاءت هذه الكليات بتصور عام للكون والإنسان والحياة، وتحديد القيم والغايات والمقاصد، وذكرت صور الفساد الفكرية والنفسية والسلوكية بشكل عام أيضًا.





الوصف الخامس
الحديث

١- قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾[الكهف:٦].

٢- قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾[الأنبياء:٢].

٣- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[الزمر:٢٣].

معنى الوصف:

ورد وصف القرآن بـ(الحديث) و(المُحْدَث) و(أحسن الحديث) في (١٢) موضعًا من القرآن.

والحديث والمُحْدَث مأخوذ من (حدث)، وهو كون الشيء لم يكن، يقال: حدث أمر بعد أن لم يكن، ويقال لكلّ ما قرب عهده: محدث، والحديث ما يُتَحدَّث به ويُنْقَل؛ لأنه كلام يحدث منه الشيء بعد الشيء[(١)].

سبب وصف القرآن بـ(الحديث):

وصِف القرآن بالحديث لأن وصوله إلى البشر حديث، أو لأن الله تعالى تحدَّث به، وخاطب به العباد[(٢)]، "فالقرآن حديث تحدث الله به، حديث عظيم، حديث شريف، حديث كله عجب وأعاجيب، كله جمال وبهاء، كله

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٣٦)، المفردات في غريب القرآن (ص:٢٢٢).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٢/ ٢٦١).

حِكَم وأحكام، كله ترغيب وترهيب، ووعد ووعيد"(١).

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦ ﴾[الكهف:٦].

من فرط شفقة النبي ﷺ داخَلَه الحزن لامتناعهم عن الإيمان، فهوّن الله ﷻ عليه الحال، وأشار له أن يلطف بنفسه، وألا يكون كفر الكافرين سببًا في هلاكه ﷺ.

قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ ﴾ (باخع): أي مُهلِك نَفسَك بحزنِك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ ﴾ يعني: القرآن(٢).

﴿أَسَفًا ﴾ أي: فلعلك قاتلٌ نفسَك أسفًا وحزنًا عليهم، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، وما يستحق هؤلاء أن تَحزن عليهم وتأسف.

"والمقصود أن يقال للرسول ﷺ: لا يعظم حزنك وأسفك بسبب كفرهم، فإنَّا بعثناك منذرًا ومبشرًا؛ فأما تحصيل الإيمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه، والغرض تسلية الرسول ﷺ عنه"(٣).

---

(١) ينظر: الهدى والبيان في أسماء القرآن (١/ ٢٠٩-٢١٠).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٣٧).

(٣) ينظر: تفسير الرازي (٢١/ ٤٢٦).

فائدة جليلة:

أعمال القلوب فضلها وشأنها عظيم، ويكفي أن الإخلاص هو أصل الأعمال وهو في القلب، وأعمال القلوب هي في القلب غير ظاهرة، وفي هذه الآية وغيرها، أخبر الله ﷻ عن هذا العمل الجليل الكبير في قلب النبي ﷺ، وهو حمل همّ الدعوة إلى الله ﷻ، وحزنه وأسفه الشديد على من لا يؤمن، حتى كادت أن تذهب نفسه عليهم حسرات، فنهاه الله ﷻ عن ذلك لأن الهداية من الله، فالله يهدي من يشاء: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[فاطر:٨].

فاللهم ارزقني وقارئ هذا الكلام وأمة النبي ﷺ التأسي بالنبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا.

٢- قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾[الأنبياء:٢].

وَصَف الله تعالى القرآن في هذه الآية بأنه ذكر جديد، يتنزل شيئًا فشيئًا، ولله في ذلك الحكمة البالغة من تثبيت قلب النبي ﷺ والتدرج في التشريع، وذكر السبيل التي يفترض أن يكون المتلقي فيها لهذا القرآن بمعرض التوبيخ لمن فعل ضدها؛ فهؤلاء المشركون يستمعون القرآن في حال اللهو باللذات، أو الاشتغال بالدنيا، أو التشاغل بالقدح في القرآن والإعراض عنه[1]، "وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها، وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته

(١) ينظر: تفسير الماوردي (٣/ ٤٣٦).

وإعراضه"[(١)].

قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي: ما يأتيهم ذكر من ربهم جديد في النزول، وتلاوة جبريل على النبي ﷺ، فإنه كان ينزل سورة بعد سورة، وآية بعد آية، كما كان ينزله الله تعالى عليه في وقت بعد وقت[(٢)]، وهذا الذكر الجديدُ "نزولُه متكرِّر، وهو كناية عن عدم انتفاعهم بالذكر كلما جاءهم، بحيث لا يزالون بحاجة إلى إعادة التذكير وإحداثه مع قطع معذرتهم؛ لأنهم لو سمعوه مرة واحدة فلم يعبؤوا به لانتحلوا لأنفسهم عذرًا أنهم كانوا ساعتئذ في غفلة، فلما تكرر حَدَثان إتيانِه تبيَّن لكل منصف أنهم مُعْرِضون عنه صدًّا"[(٣)].

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: استمعوه لاعبين، لا يعتبرون ولا يتَّعِظون[(٤)]، مع أن الموقف جدٌّ، وهم لا يشعرون بخطورته، وكلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار، واستمعوه وهم هازلون يلعبون، وهذا الانشغال واللهو هم مسؤولون عنه ولا يكون عذرًا لهم؛ لأن الواجب عليهم كان الإنصات، وترك اللهو واللعب.

٣- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[الزمر:٢٣].

قال ابن عاشور ﵀: "ومعنى كون القرآن أحسن الحديث أنه أفضل

---

(١) ينظر: التفسير القيم (ص:٤٧).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١١/ ٢٦٧)، تفسير ابن كثير (٥/ ٣٣٢).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٧/ ١١).

(٤) ينظر: تفسير البغوي (٥/ ٣٠٦).

الأخبار؛ لأنه اشتمل على أفضل ما تشتمل عليه الأخبار من المعاني النافعة والجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والاستدلال، والتنبيه على عظم العوالم والكائنات، وعجائب تكوين الإنسان، والعقل، وبث الآداب، واستدعاء العقول للنظر والاستدلال الحق، ومن فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه البالغين حد الإعجاز، ومن كونه مصدِّقًا لما تقدمه من كتب الله ومهيمنًا عليها.

وفي إسناد إنزاله إلى الله استشهاد على حسنه، حيث نزّله العليم بنهاية محاسن الأخبار والذكر"[1].

من دلالات وصف القرآن بـ (الحديث):

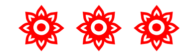
- أن القرآن ليس كتابًا قديمًا بعيدًا عن حاجة البشر وعما يحقق لهم من المصالح والخير في دينهم ودنياهم، بل هو كتاب حديث، اشتمل على كل ما يمكن أن يحتاج الناس إليه؛ لصلاح حياتهم إلى قيام الساعة.

- أن حداثة القرآن وجِدَته لا تنحصر في نزوله من عند الله تعالى، بل كلما استمع العبد إليه أو قرأه، وجد فيه شيئًا جديدًا لم يكن يجده من قبل، فالقرآن الكريم يعتبر حديثًا مع مضي القرون على إنزاله على الحبيب ﷺ، وهذا مرتبط أيضًا بكونه أحسن الحديث، ولهذا حصل الجمع بين الوصفين في هذا المبحث، فهو أحسن الحديث؛ لكونه كلام الله، ولكونه يبقى حديث العهد دائمًا، لا يمل سامعه، فلا يشبع منه التالي ولا السامع، فهو بالنسبة لاشتياق تاليه وسامعه كأنه قريب حديث، وهذا يظهر جليًّا حتى في سورة الفاتحة التي

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٨٥).

تُقرأ عشرات المرات في اليوم والليلة، في الصلوات وغيرها، ومع هذا نجد عند سماعها حصول الاشتياق والرغبة لها من جديد، وتتجدد معانيها بالتأمل والتدبر فيها وكأنها حديثة العهد.

- أن في هذه الآيات وأمثالها بيان للحداثة الحقيقة، وهي الحداثة التي تنبع من القرآن الموصوف بـ(الحديث)، الذي أنزله الله ﷻ لتستقيم الفطرة الإنسانية، فالقرآن الكريم يحافظ على الفطرة أن تغرق في أوحال الشهوات، والانحرافات العقلية التي تصادم الحقائق الكونية في خلق الإنسان وفي الكون، وإذا انساق الهوى مع تلك الشهوات، فإن الفطرة تنتكس في الأوحال، كما قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾[التين:٤-٥])، ولا يغيّر من حقيقة هذه الانتكاسة تسميتها: حضارة، أو تقدّمًا، أو حداثة، فحقيقتها أنها انسياق خلف الهوى والشهوات واتباع للشيطان.





١- قـال تعـالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون:٦٨].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل:٥].

معنى الوصف:

ورد وصف القرآن بـ(القول) معرَّفًا، وبأنه (قول رسول) و(قول ثقيل) و(قول فصل)، كل هذا في (٧) مواضع من القرآن.

والقول: هو الكلام على الترتيب، وهو كل لفظ قال به اللسان، تامًّا كان أو ناقصًا[١].

سبب وصف القرآن بـ(القول):

وصِف القرآن بـ(القول)؛ لأن الناس خوطبوا به[٢]، فهو كلام الله تعالى وقوله وخطابه للناس أجمعين.

بيان الآيات:

١- قـال تعـالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون:٦٨].

---

(١) ينظر: لسان العرب (١١/ ٥٧٢).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٣٩).

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ أي: يتدبروا.

﴿ٱلْقَوْلَ﴾ يعني: ما جاءهم من القول -وهو القرآن- فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد ﷺ[(١)].

﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ المعنى: أليس قد أُرسل الأنبياء إلى أممهم كما أُرسل محمَّدٌ ﷺ؟![(٢)].

يصف الله تعالى كتابه بهذا الوصف في معرض الإنكار على المشركين في عدم تفهمهم له، وتدبرهم له، وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خُصُّوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسولٍ أكمل منه ولا أشرف، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضي عنهم[(٣)].

إن هذه الاستفهامات إحصاء لمثار ضلالهم وخطئهم، واحتجاج عليهم، وقطع لمعذرتهم، وإيقاظ لهم بأن صفات الرسول كلها دالة على صدقه، فالاستفهام عن عدم تدبّرهم فيما يتلى عليهم من القرآن وهو المقصود بالقول -وأصل التدبّر من النظر في دُبُر الأمر، أي فيما لا يظهر منه للمتأمل بادئ ذي بدء- معناه: أنهم لو تدبّروا قول القرآن لَعَلموا أنه الحق؛ بدلالة

(١) ينظر: تفسير البغوي (٥/ ٤٢٣).
(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٢٦٧).
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٤٨٣).

إعجازه، وبصحة أغراضه، فما كان استمرار عنادهم إلا لأنهم لم يدّبّروا القول، وهذه إحدى العلل التي غمرت بهم في الكفر.

والاستفهام المقدر بعد (بل) معناه: أجاءهم دين لم يأت آباءهم الأولين؟ وهو الدين الداعي إلى توحيد الإله وإثبات البعث(١).

إنَّ الاستهداء بالقرآن واجب على كل مكلف في كل زمان ومكان، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر، وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به، ولا شك أن كل من له معرفة -ولو قليلة- باللغة العربية، فإنه يفهم من القرآن ما يهتدي به، ومن كان أميًّا أو أعجميًّا فإنه ينبغي له أن يسأل القارئين أن يقرؤوا له القرآن ويفهموه معناه.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾[المزمل:٥].

قال الرازي ﵀: "ذكروا في تفسير (الثقيل) وجوهًا، أحدها: وهو المختار عندي: أن المراد من كونه ثقيلًا عظم قدره، وجلالة خطره، وكل شيء نفُس وعظُم خطره، فهو ثقيل، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء.

وثانيها: قالوا: المراد بالقول الثقيل القرآن، وما فيه من الأوامر والنواهي، التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين عامة، وعلى رسول الله خاصة، لأنه يتحملها بنفسه ويبلغها إلى أمته.

وثالثها: روي عن الحسن: أنه ثقيل في الميزان يوم القيامة، وهو إشارة إلى كثرة منافعه، وكثرة الثواب في العمل به.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٨/ ٨٧- ٨٨).

ورابعها: المراد أنه ﷺ كان يثقل عند نزول الوحي إليه، روي أن الوحي نزل عليه وهو على ناقته فثقل عليها، حتى وضعت جرانها، فلم تستطع أن تتحرك[1].

وخامسها: قال الفراء: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: ليس بالخفيف ولا بالسفساف، لأنه كلام ربنا ﷻ.

وسادسها: قال الزجاج: معناه: أنه قول متين في صحته وبيانه ونفعه، كما تقول: هذا كلام رزين، وهذا قول له وزن، إذا كنت تستجيده وتعلم أنه وقع موقع الحكمة والبيان.

وسابعها: قال أبو علي الفارسي: إنه ثقيل على المنافقين، من حيث إنه يهتك أسرارهم، ومن حيث إنه يبطل أديانهم وأقوالهم.

وثامنها: أن الثقيل من شأنه أن يبقى في مكانه ولا يزول، فجعل الثقيل كناية عن بقاء القرآن على وجه الدهر، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[الحجر:٩].

وتاسعها: أنه ثقيل بمعنى أن العقل الواحد لا يفي بإدراك فوائده ومعانيه بالكلية، فالمتكلمون غاصوا في بحار معقولاته، والفقهاء أقبلوا على البحث عن أحكامه، وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعاني، ثم لا يزال كل متأخر

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٤) برقم: (٣٨٦٥) من حديث عائشة ﵂، وصححه ووافقه الذهبي. والجران هو باطن العنق، والمعنى بركت حتى مدت عنقها على الأرض. ينظر: شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (١١/ ٣٤٤٥).

يفوز منه فوائد ما وصل إليها المتقدمون، فعلمنا أن الإنسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله، فصار كالحمل الثقيل الذي يعجز الخلق عن حمله.

وعاشرها: أنه ثقيل لكونه مشتملًا على المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والفرق بين هذه الأقسام مما لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون، المحيطون بجميع العلوم العقلية والحكمية، فلما كان كذلك لا جرم كانت الإحاطة به ثقيلة على أكثر الخلق"(١).

والله سبحانه وتعالى أول ما أنزل على الرسول ﷺ هذه السورة، وهذه الآية، كان ساعة التلقي فيها ثقل، ويبقى الأمر في القرآن على عمومه بهذا الثقل، ويستمر حتى يوم القيامة في وضع الموازين، فإنه من أثقل الأعمال التي تثقل بها موازين العبد، ويبقى له –أي: للقرآن– قيمته في الترقي في المنازل يومئذٍ في جنات النعيم، حيث يقال لقارئ القرآن: «اقرأ وارتق» (٢).

من دلالات وصف القرآن بـ (القول):

- أن أعظم قضية ينبغي أن يستشعرها المرء وهو يتلو القرآن: أن يدرك بأن هذا كلام الله ﷻ، وهذا قول الله ﷻ، وليس قول بشر، فهو أحسن الحديث، وبالتالي يكون لديه إحساس وشعور داخلي بعظمة هذا الكلام وهذا القرآن، وأن كل حرف ولفظ فيه له دلالة، فهو بحاجة إلى التأمل فيه والتدبر والتفكر في معانيه ودلالاته، فهو ليس كسائر الأقوال.

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ٦٨٣-٦٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٣) برقم: (١٤٦٤) سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٧٧) برقم: (٢٩١٤) وصححه الألباني.

- بالمقارنة بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[المزمل:٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾[الإنسان:٢٧]، نستفيد إشارة لطيفة، وهي أن من أراد السلامة في اليوم الثقيل فعليه أن يأخذ بالقول الثقيل الذي أنزل على محمد ﷺ.

- أن من الدلالات العظيمة لكون القرآن قولًا ثقيلًا أن فيه من الفوائد والمعاني ما لا ينحصر، ولهذا كتب العلماء آلاف المجلدات في تفسير القرآن وفي علومه، ولا زالوا يكتبون في هذا، علاوة على ما كتبوه في الفقه والآداب والسلوك وغيرها من العلوم مما استفادوه من القرآن، وهذا كله يبين الثقل العظيم الذي جعله الله ﷻ في محكم التنزيل.



الوصف السابع
البـــــلاغ

١- قـــال تعـــالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[إبراهيم:٥٢].

٢- قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[الأنبياء:١٠٦].

٣- قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأحقاف:٣٥].

معنى الوصف:

جاء هذا الوصف في (٣) مواضع من القرآن.

والبلاغ: اسم مصدر التبليغ[(١)]، وكذلك البلاغ يأتي بمعنى: الكفاية[(٢)]، وكذلك يأتي بمعنى البلغة، وهو ما يتبلغ به من الزاد، ومن البلاغة بمعنى الفصاحة[(٣)].

سبب وصف القرآن بـ(البلاغ):

قال السيوطي رحمه الله في سبب وصف القرآن بالبلاغ: "لأنه أبلغ به الناس ما أمروا به ونهوا عنه، أو لأن فيه بلاغة وكفاية عن غيره" ثم نقل عن أبي الحسن

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٣/ ٢٥٤).
(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:١٤٤).
(٣) ينظر: مختار الصحاح (ص:٣٩).

الرماني أنه سئل: كل كتاب له ترجمة فما ترجمة كتاب الله؟ فقال: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾[إبراهيم:٥٢]"[١].

وقال السعدي رحمه الله: "أي: يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد"[٢].

وقيل: بلاغ: كفاية في العظة والتذكير[٣].

ومن اللطائف في وصف القرآن بالبلاغ أن جميع المواضع التي جاء فيها هذا الوصف تشترك في ثلاثة أمور:

١- جاء اللفظ منكّرًا، لإفادة التعظيم.

٢- جاء هذا الوصف في أواخر السور.

٣- جميع هذه السور افتتحت بالحديث عن القرآن: سورة إبراهيم ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾[إبراهيم:١]، وسورة الأنبياء ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾[الأنبياء:٢]، وسورة الأحقاف ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾[الأحقاف:١-٢][٤].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٤٣).

(٢) تفسير السعدي (ص:٤٢٨).

(٣) ينظر: تفسير أبي السعود (٥/ ٦٢).

(٤) ينظر: أسماء القرآن وأوصافه في القرآن الكريم (ص:١٥٤).

بيان الآيات:

١- قـــال تعـــالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢ ﴾[إبراهيم:٥٢].

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا ﴾ أي: هذا القرآن.

﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: تبليغ وعظة.

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ وليُخَوَّفُوا.

﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: ليَسْتدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى، فالغاية الأساسية للبلاغ والإنذار إنما هي أن يعلم الناس أن الله واحد ﷻ.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: ليَتَّعظ أولو العقول[(١)].

جاء هذا الوصف في معرض صفات رتِّبت ترتيبًا عقليًّا، "بحسب حصول بعضها عقب بعض، فابتدئ بالصفة العامة، وهي حصول التبليغ، ثم ما يعقب حصول التبليغ من الإنذار، ثم ما ينشأ عنه من العلم بالوحدانية لما في خلال هذه السورة من الدلائل، ثم بالتذكير في ما جاء به ذلك البلاغ، وهو تفاصيل العلم والعمل.

وهذه المراتب هي جامع حكمة مما جاء به الرسول ﷺ، موزعة على من بلَّغ إليهم، ويختص المسلمون بمضمون قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾[إبراهيم:٥٢]"[(٢)].

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٤/ ٣٦٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٥٥).

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[الأنبياء:١٠٦].

قال البغوي رحمه الله: "﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: في هذا القرآن.

﴿لَبَلَٰغًا﴾ وصولًا إلى البُغْيَة، أي: من اتبع القرآن، وعمل به وصل إلى ما يرجوه من الثواب، وقيل: بلاغًا أي: كفاية. يقال: في هذا الشيء بلاغ وبُلْغة أي: كفاية"[١].

وقال السعدي رحمه الله: "أي: يتبلغون به في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته، فوصلهم إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وليس للعابدين، الذين هم أشرف الخلق، وراءه غاية؛ لأنه الكفيل بمعرفة ربهم، بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبالإخبار بالغيوب الصادقة، وبالدعوة لحقائق الإيمان، وشواهد الإيقان، المبين للمأمورات كلها، والمنهيات جميعًا، المعرف بعيوب النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان، وبيان مداخله على الإنسان، فمن لم يغنه القرآن، فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه، فلا كفاه الله"[٢].

٣- قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الأحقاف:٣٥].

قال ابن جرير رحمه الله: "وقوله ﴿بَلَٰغٌۚ﴾ فيه وجهان: أحدهما أن يكون معناه: لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ذلك لبث بلاغ، بمعنى: ذلك بلاغ لهم في الدنيا

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ٣٢٠).

(٢) تفسير السعدي (ص:٥٣٢).

إلى أجلهم، ثم حذفت (ذلك لبث)، وهي مرادة في الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها، والآخر: أن يكون معناه: هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية، إن فكَّروا واعتبروا فتذكروا"(١).

من دلالات وصف القرآن بـ (البلاغ):

- أن من الوسائل العظيمة في الدعوة: إبلاغ القرآن للناس جميعًا، وإيصاله لكل إنسان على هذه الأرض، بل هذا هو أساس الدعوة إلى الله تعالى، ولهذا قال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»(٢)، ومن ذلك إنشاء القنوات التي تبث القرآن وتُسمِعه للناس على مدار الساعة، فإنها من البلاغ العظيم.

- أن من أراد الوصول إلى الله تعالى فإن القرآن هو الزاد الذي يتبلغ به في سفره، وفيه الكفاية والتمام، ولن يجد هذه الكفاية في غير القرآن.

- النبي ﷺ كان خلقه القرآن، فمن ابتغى غير هدي النبي ﷺ، ورغب عن سنته فقد ضل ضلالًا بعيدًا. قال النبي ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٣)، فهل أدرك من انحرف في العبادة، وخرج عن هدي النبي ﷺ، وأحدث عبادات وبدعًا، هل أدرك هذه المعاني الكبار؟



---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٠) برقم: (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٢) برقم: (٥٠٦٣)، ومسلم (٢/ ١٠٢٠) برقم: (١٤٠١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الوصف الثامن والتاسع
المتشابه والمثاني

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾[الزمر:٢٣].

معنى الوصف:

ورد وصف القرآن بأنه متشابه في موضعين من القرآن، وورد وصفه بالمثاني في هذا الموضع فقط.

أما التشابه فهو مأخوذ من الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ، وحقيقتها في المماثلة من جهة الكيفية، كاللون والطعم، وكالعدالة والظلم، والشبهة: هو أن لا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه[(١)].

وأما المثاني فهو مأخوذ من الثني، وهو تكرير الشيء مرتين[(٢)].

سبب وصف القرآن بـ(المتشابه):

جاء وصف القرآن بأنه متشابه على وجهين:

الوجه الأول: المماثلة، وعلى هذا جاء قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾[الزمر:٢٣].

الوجه الثاني: الاشتباه وعدم الوضوح، وعلى هذا جاء قول الله تعالى:

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٤٤٣).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٣٩١).

﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[آل عمران:٧].

أما الوجه الأول؛ فقد وصِف القرآن به لتشابه ألفاظه من جهة الفصاحة، والبلاغة، والإحكام، والإعجاز(١)، وكذلك من جهة المعاني يشبه بعضه بعضًا في الحسن والحكمة، ويصدق بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف(٢)، والوصف بالتشابه بهذا المعنى هو الذي يطلق على القرآن كله.

وأما الوجه الثاني؛ فقد وصف به بعض القرآن وليس كله، وذلك الاشتباه ليس في أصل المعنى، وإنما هو اشتباه في فهم الناظر في القرآن.

وقد وصف الله كتابه بأنّه محكم، فقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[هود:١]، وبأنه متشابه، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾[الزمر:٢٣].

فحيث جعل الكل محكمًا، أراد أن الكل حق ليس فيه عبث ولا هزل، وحيث جعل الكل متشابهًا أراد أن بعضه يشبه بعضًا في الحق والصدق وفي الحسن(٣).

وحيث جمع سبحانه بين الوصفين كقوله سبحانه: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[آل عمران:٧]، فالإحكام هو الإتقان وعدم تطرق النقص والاختلاف، وهو ما عرف المراد منه، والمتشابه ما غمض ودق واحتاج إلى بيان، ومنه متشابه لفظي، وآخر متشابه معنوي(٤).

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/ ١٢٣).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٢٤٩).

(٣) ينظر: تفسير البغوي (٣/ ٨)

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٦-٧).

وقيل: المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهًا واحدًا، والمتشابه ما احتمل أوجهًا، وقيل غير ذلك(١).

سبب وصف القرآن بـ(المثاني):

وصِف القرآن بأنه مثاني لما ثُني من قصصه، وأنبائه، وأحكامه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه، وقيل: لأنه يثنى في التلاوة، ويحتمل أن يكون مشتقًا من الثناء؛ لأنه يثنى فيه على الله.

وهذا يتضمن امتنانًا على الأمة بأن أغراض كتابها مكررة فيه؛ لتكون مقاصده أرسخ في نفوسها، وليسمعها من فاته سماع أمثالها من قبل.

ويتضمن أيضًا تنبيهًا على ناحية من نواحي إعجازه، وهي عدم الملل من سماعه، وأنه كلما تكرر غرض من أغراضه زاده تكرره قبولًا، وحلاوة في نفوس السامعين(٢).

بيان الآية:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٤)، مناهل العرفان (٢/ ٢٧٢).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٧/ ٣٥١)، تفسير ابن جزي (٢/ ٢٣٠)، الكشاف للزمخشري (٤/ ١٢٣)، التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٨٧).

فتلاه عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله! لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ الآية، فتلاها رسول الله ﷺ زمانًا، فقالوا: يا رسول الله! لو حدثتنا فأنزل الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[(١)].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، وسمي حديثًا؛ لأن رسول الله ﷺ كان يحدّث به قومه وأصحابه[(٢)]، ووصفه بأحسن الحديث؛ لفصاحته وإعجازه، ولأنه أكمل الكتب، وأكثرها إحكامًا[(٣)].

﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ يشبه بعضُه بعضًا في الحسن، ويُصَدِّق بعضُه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف.

﴿مَّثَانِيَ﴾ يُثَنَّى فيه ذكر الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والأخبار والأحكام.

﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ والاقشعرار تغيُّر في جلد الإنسان عند الوَجَل والخوف.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: إذا ذُكِرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، وإذا ذُكِرت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم، والمعنى: أن قلوبهم تقشعر من الخوف، وتلين عند الرجاء[(٤)].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: هذه صفة من هداه

(١) ينظر: أسباب النزول (ص:٢٦٩)، الصحيح المسند من أسباب النزول (ص:١٢٠).
(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٢٤٨).
(٣) ينظر: تفسير الماوردي (٥/ ١٢٢).
(٤) ينظر: تفسير البغوي (٧/ ١١٥).

الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾[(١)].

من دلالات وصف القرآن بـ (المتشابه والمثاني):

- أن في وصف الله تعالى كتابه بأنه متشابه ومثاني -في معرض بيان الهداية التي ينشدها كل مسلم، ويدعو لأجلها في كل ركعة من صلاته في فاتحة الكتاب- إشارة إلى أن سبيل الهداية هو: التدبر في هذا الكتاب العزيز، ملاحظًا فيه الجمع بين آياته، فيضم الشبيه إلى شبيهه، ويلاحظ تصديق بعضه لبعض، فلا اختلاف ولا تضاد، ويتأمل تكرار الوعد والوعيد بصفاته المتنوعة، وكذا أوامره ونواهيه، فمن قرأ هذا الكتاب بهذه الطريقة فهو مهتد، وعلامة اهتدائه أن يجد جلدَه مقشعرًا عند الوعيد، وقلبَه ليِّنًا عند الوعد، والله أعلم.

- أن تأثير القرآن يعظم مع التكرار والتثنية، ولهذا ينبغي للداعية أن يكرر القرآن على الناس قدر استطاعته، ويجعل هذا منهجًا له في الدعوة إلى الله تعالى، كما كان النبي ﷺ يفعل في أحوال عديدة، ومنها: تكرار قراءة سورة (ق) على المنبر في كل جمعة[(٢)].

وفي هذا الحديث إشارة إلى بيان سبب قلة خطب النبي ﷺ التي نقلت إلينا، وذلك أن أكثر ما يكون في خطبه ﷺ تلاوة القرآن.

❁ ❁ ❁

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٩٥).

(٢) عن بنت لحارثة بن النعمان رضي الله عنها قالت: «ما حفظت (ق) إلا من في رسول الله ﷺ، يخطب بها كل جمعة». أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٥) برقم: (٨٧٣).

الوصف العاشر
أحسن القصص

١- قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾[يوسف:٣].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾[النمل:٧٦].

معنى الوصف:

ورد وصف القرآن بـ(القصص)، وأنه (يقصّ) في (٤) مواضع، وفيها خلاف هل المقصود بها قصص معين، أم قصص القرآن كله.

والْقَصُّ: تتبّع الأثر، والْقَصَصُ: الأخبار المتتبّعة، يقال: تقصّص الخبر إذا تتبّعه[1].

سبب وصف القرآن بـ(أحسن القصص):

وصف الله كتابه بهذا الوصف؛ "لأنه يجب اتباعه، أو لأن القرآن يَتَتَبَّع قصص المتقدمين"[2].

"وجعل هذا القصصَ أحسنَ القصص؛ لأن بعضَ القصص لا يخلو عن حُسنٍ ترتاح له النفوس، وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه، وإعجاز أسلوبه، وبما يتضمنه من العِبَر والحِكَم، فكل قصص

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٦٧١)، لسان العرب (٧/ ٧٤).

(٢) تفسير الرازي (٢/ ٢٦٢).

في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن"(١).

كما أن وصف القرآن بالقصص وأحسن القصص فيه دلالة على صدق النبي ﷺ وأنه رسول الله حقًّا، إذ كيف جاء بهذا القصص البديع مع كونه أميًّا، ولم يخالط العلماء؟ فلا شك إذن أنه من عند الله تعالى(٢).

وليس أحسن القصص محصورًا في قصة يوسف عليه السلام، بل قد ورد في القرآن الكريم الكثير من القصص الحسن، ومنها قصص مختصرة وردت في قصار السور، منها:

-قصة أصحاب الفيل، وهي من أحسن القصص، وفيها عبرة وعظة.

- قصة أبي لهب، فيها عظة وعبرة، وفيها بيان وقع الأذى على النبي ﷺ من ذوي القربى، وموقف ذوي القربى من دعوته ﷺ.

-وكذلك في سورة الضحى(٣)، وسورة الانشراح(٤)، وغيرها الكثير.

فالقرآن الكريم مليء بالقصص عن النبي ﷺ وأصحابه.

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠٣- ٢٠٤).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٢٤/ ٥٧٠-٥٧١).

(٣) كقصة انقطاع الوحي وفتوره، وادعاء قريش أن رب محمد قد قلاه وتركه. أخرجها البخاري (٦/ ١٧٢) برقم: (٤٩٥٠)، ومسلم (٣/ ١٤٢٢) برقم: (١٧٩٧) من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(٤) كحادثة شق صدره ﷺ. أخرجها مسلم (١/ ١٤٧) برقم: (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾[يوسف:٣].

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ وذلك لصِدقِها، وسلاسة عبارتها، ورونق معانيها.

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ ﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذاك محض مِنَّة من الله وإحسان.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحي الله إليك، ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا[(١)].

"والغفلة: انتفاء العلم؛ لعدم توجه الذهن إلى المعلوم، والمعنى المقصود من الغفلة ظاهر، ونكتة جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كل من لم ينتفع بالقرآن؛ فدخل في هذا الفضل أصحابُه، والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم.

ومفهومُ ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ مقصود منه التعريض بالمشركين المعرضين عن هدى القرآن"[(٢)].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص:٣٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠٤).

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل:٧٦].

قال ابن جرير رحمه الله: "يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلته إليك يا محمد يقصّ على بني إسرائيل الحقّ في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها، وذلك كالذي اختلفوا فيه من أمر عيسى، فقالت اليهود فيه ما قالت، وقالت النصارى فيه ما قالت، وتبرأ لاختلافهم فيه هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وغير ذلك من الأمور التي اختلفوا فيها، فقال جلّ ثناؤه لهم: إن هذا القرآن يقصّ عليكم الحق فيما اختلفتم فيه فاتبعوه، وأقرّوا لما فيه، فإنه يقص عليكم بالحقّ، ويهديكم إلى سبيل الرشاد"(١).

ولعل من مناسبة مجيء هذه الآية في أواخر سورة النمل التي قصَّ الله ﷻ فيها قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام: أن القصة المذكورة في هذه السورة تخالف من عدة أوجه ما هو موجود في كتب بني إسرائيل، حيث ذكروا أن ملكة سبأ إنما جاءت زائرة لتتعرف على مملكة سليمان دون أن يذكروا دعوته لها للإسلام، والرسالة العظيمة التي أرسلها لها داعيًا ومحذرًا، ثم إنهم ذكروا رجوعها إلى مملكتها دون أن يذكروا إسلامها، فجاءت القصة في القرآن على أكمل وأتم وجه وأحسنه(٢).

من دلالات وصف القرآن بـ (أحسن القصص):

- أن من الأساليب الدعوية والتربوية المؤثرة استخدام القصة في إيصال

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ٤٩٤).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٠/ ٣١).

الحق والمعاني الفاضلة، والتحذير من السوء والضلال، وتكذيب المرسلين، وبيان عاقبة المجرمين والظالمين... وهذه المعاني تكررت في القرآن حتى وصِف القرآن بأنه (قصص)، فلا ينبغي للداعية إهمال هذا الأسلوب، مع ضرورة الاستفادة من القصص التي ذكرها الرسول ﷺ عن الماضين، وكذلك ما يشنف الأسماع من أخباره هو وسيرته ﷺ، فهي ملأى بالقصص الماتعة المعبِّرة، ذات العبرة والفائدة.

- أن الأسلوب القرآني في إيراد القصص هو أفضل وأحسن أساليب القص، وحري بكل أديب وقاصّ أن يتعلم هذا الأسلوب حتى يكتب للناس شيئًا نافعًا مفيدًا.

- أن كل ما اختلفت فيه الكتب السابقة من القصص فالحق فيه هو ما جاء به القرآن، ولهذا لا بد من التمييز عند تفسير آيات القصص بين ما دلَّ عليه القرآن، وبين ما أُخِذ عن بني إسرائيل، ففيه الكثير من الأخطاء والتبديل والتغيير.





المبحث الرابع

أوصاف القرآن
الدالة على
البركة وكثرة الفضل والخير



وفيه الأوصاف التالية:

الوصف الأول: **الرحمة**

الوصف الثاني: **البشير والبشرى**

الوصف الثالث: **المبارك**

الوصف الرابع: **الشفاء**

الوصف الخامس: **الكريم**

الوصف السادس: **الخير**

تمهيد

القرآن كلام الله تعالى، نزل من عنده ﷻ وحيًا، أوحاه إلى جبريل عليه السلام؛ لينزل به على قلب محمد ﷺ في أشرف البقاع والأزمنة، فما الظن بكتاب حُفَّ بالخير من كل جانب؟!

إن القرآن كتابٌ مُلِيء خيرًا، ففيه البركة، والرحمة، والخير، والشفاء، والبشرى، وهو كتابٌ كريم، من أقبل عليه أغدق له في العطاء، فسبحان من تكلَّم به وأنزله!

وفيما يلي جملة من الأوصاف التي جاءت في محكم التنزيل دالة على هذه المعاني.



١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[الأعراف:٥٢].

٢- قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[العنكبوت:٥١].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف في (١٢) موضعًا في القرآن، جاء في (١٠) منها مقرونًا بوصف الهدى (هدى ورحمة).

معنى الرحمة في لغة العرب يشتمل على كل معاني الإحسان من رِفق، ولُطْف، وعَطْف، وقرابة(١).

سبب وصف القرآن بـ(الرحمة):

سبب وصف القرآن بالرحمة أنه سبب لحصول الرحمة للخلق في الدنيا والآخرة، فهو رحمة من الكفر والشرك والنفاق، ورحمة من الظلم والفسوق، ورحمة من الجور والطغيان، ورحمة من زيغ القلوب وأمراضها، ورحمة من كل فتنة ومحنة وشر وبلاء، ورحمة من الهم والغم، ومن عذاب السعير(٢).

---

(١) ينظر: لسان العرب (١٢/ ٢٣٠).

(٢) ينظر: الهدى والبيان في أسماء القرآن (١/ ٢١٣).

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف:٥٢].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ يعني: القرآن.

﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: بيناه بإيضاح الحق من الباطل، على علم منّا بما يصلحكم مما أنزلناه فيه[١].

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ أي: جعلنا القرآن هاديًا، وذا رحمة للمؤمنين الذين يعملون به ويتبعونه[٢].

فيقسم الله تعالى على أنه أنزل القرآن مفصلًا للحق، مميزًا له عن غيره[٣]، ثم بيَّن أن الغاية من ذلك: الهدى والرحمة، فالقرآن "رحمة عامة للبشر الذين تنتشر فيهم هدايته، وتنفذ فيهم شريعته، حتى الخاضعين لأحكامها من غير المؤمنين به؛ فإنهم يكونون آمنين في ظلها على أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، أحرارًا في عقائدهم وعباداتهم، مساوين للمؤمنين بها في حقوقهم ومعاملاتهم، عائشين في وسطٍ خالٍ من الفواحش والمنكرات التي تفسد الأخلاق، وتولّد الأمراض.

وأما المؤمنون به فهو رحمة لهم في الدنيا والآخرة جميعًا، هكذا كان وهكذا يكون"[٤].

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٢/ ١٢٦)

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٠/ ٩)، تفسير البغوي (٣/ ٢٣٥).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢٤٠).

(٤) تفسير المنار (٨/ ١٨١-١٨٢).

٢- **قال تعالى:** ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[العنكبوت:٥١].

قال القرطبي ﵀: "هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ﴾[العنكبوت:٥٠] أي: أو لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحر، ونحن لا نعرف السحر، والكلام مقدور لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة.

وقيل: إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: أُتِي النبي ﷺ بكتف فيه كتاب، فقال: "كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم"، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾. أخرجه أبو محمد الدارمي في مسنده[(١)]، وذكره أهل التفسير في كتبهم. وفي مثل هذا قال ﷺ لعمر ﵁: «لو كان موسى بن عمران حيًّا لما وسعه إلا اتباعي»[(٢)]، وفي مثله قال ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[(٣)] أي: يستغني

---

(١) أخرجه الدارمي (١/ ٤٢٥) برقم: (٤٩٥) من حديث يحيى بن جعدة، والحديث مرسل رجاله ثقات كما قال الزهراني في القطوف الدانية فيما انفرد به الدارمي عن الثمانية (ص:١٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢/ ٤٦٨) برقم: (١٤٦٣١) من حديث جابر ﵁. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ١٧٤) برقم: (٨٠٩): (رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، وفيه مجالد بن سعيد، ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما).

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ١٥٤) برقم: (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة ﵁.

به عن غيره"[١].

وقال السعدي ﷺ: "﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به.

﴿أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرده وهو أمي، من أكبر الآيات على صدقه، ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه إياهم آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهرًا علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قلَّ فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يُخفِه، ولم يثن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟

ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع، ثم هيمنته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونَفْيُ ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل: (ليته لم يأمر به)، ولا نهى عن شيء فقال العقل: (ليته لم ينه عنه)، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسايرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به؛ فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٣٥٥).

يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له، فلذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾، وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية"(١).

من دلالات وصف القرآن بـ (الرحمة):

- أن في جميع المواضع التي جاء فيها وصف القرآن بالرحمة جاء هذا مقيدًا بأنه رحمة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾[البقرة:٩٧]، ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾[الأنعام:٩٩]، ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾[البقرة:١١٨]، ﴿لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾[النحل:٨٩]، ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾[لقمان:٣]، إلا في موضع واحد جاءت الرحمة فيه مطلقة، وهو قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾[الأنعام:١٥٧]، وهذا يدل على أن حصول الرحمة بالقرآن مشروط بوجود الإيمان، وكلما زاد تحقق الإيمان في العبد كلما وجد من آثار رحمة القرآن ما هو أكثر، ولكن هذا لا ينافي كون القرآن رحمة لكل الناس ابتداءً، فقد قال سبحانه عن رسوله ﷺ وهو من جاء به من عنده: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[الأنبياء:١٠٧]، فإن الرحمة بالقرآن تحصل لمن تحقق فيه شرط الإنصات الحسي والمعنوي، فيرحمه الله بهذا القرآن، ويشهد لهذا الواقع والتاريخ، كحال الذين أرسل إليهم النبي ﷺ بالقرآن فسمعوه وأنصتوا، فدخل الإيمان في قلوبهم، وكحال الجن لما أنصتوا وأمر بعضهم بعضًا

(١) تفسير السعدي (ص:٦٣٣-٦٣٤).

بالإنصات، فحصلت لهم الرحمة، وألقى الله ﷻ في قلوبهم الإيمان، فعادوا إلى قومهم منذرين[(١)]، ومن هذا ما حصل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع آيات من القرآن فكانت سببًا في إسلامه[(٢)]، وشواهد هذا كثيرة.

- أنه لم يرد هذا الوصف إلا في السور المكية، وهذا لما فيه من ترغيب المشركين فيه وفي الإسلام الذي يؤدي إلى حصول الرحمة والطمأنينة، وأيضًا فيه حجة عليهم، إذ كيف يعرضون عن هذا الكتاب، وهو يحمل الرحمة لهم[(٣)].

وهذا فيه فائدة دعوية مهمة وهي التركيز على بيان مظاهر الرحمة في القرآن عند دعوة الكفار والمشركين؛ ليكون هذا سببًا لترغيبهم فيه وإقبالهم عليه.

- أن من رحمة الله تعالى بالبشر أن جعل لهم هذا القرآن هاديًا ومرشدًا كافيًا لا يحتاجون بعده إلى شيء، ليكون منهج حياتهم الأوحد فلا يتشتتون، ولا يضطربون ويتحيرون بين المناهج والأفكار المختلفة المتناقضة، كما هو حال البشرية اليوم؛ حين أعرضت عن القرآن، فذاقت الأهوال بسبب شتات الأفكار وتعدد المناهج.

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٦٠-١٦١) برقم: (٤٩٢١) ومسلم (١/ ٣٣١) برقم: (٤٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣) برقم: (١٠٧).

(٣) أسماء القرآن وأوصافه في القرآن الكريم (ص:٣٠٤).

الوصف الثاني
البشير والبشرى

١- قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾[البقرة:٩٧].

٢- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾[فصلت:٣-٤].

معنى الوصف:

جاء وصف القرآن بأنه (بشير) و(مبشِّر) و(بشرى) و(يبشر) في (٨) مواضع من القرآن.

والبشر: ظهور الشيء مع حسن وجمال، ومنه البشارة، وهو إخبار الشخص بخبر سار، وغالبًا ما يكون هذا في الخير[١].

سبب وصف القرآن بـ(البشير):

وصِف القرآن بأنه بشير لتضمنه العديد من البشارات، فهو "بشير للمؤمنين، وبشير للمسلمين، بشير لهم بالعز والنصر والتمكين، بشير لهم بكل خير وفضيلة، بشير لهم بالمجد والفخار، بشير لهم بالعافية والسلامة والسعادة، بشير لهم بخيري الدنيا والآخرة، بشير للمؤمنين بالثواب العظيم والأجر الكبير"[٢].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٢٥١).

(٢) الهدى والبيان في أسماء القرآن (١/ ٢٧٨).

بيان الآيات:

١- **قال تعالى:** ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾[البقرة:٩٧].

جاء في سبب نزول هذه الآية حديث طويل عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه سؤالات اليهود للنبي ﷺ عن أمور لا يعلمها إلا نبي وإجابته لهم، فلما رأوا أنه لم يعد لهم حجّة قالوا: وأنت الآن فحدِّثْنا من وليُّك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: «فإن وليّي جبريل عليه السلام، ولم يبعث الله نبيًّا قط إلا وهو وليّه»، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليُّك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك!!، قال: «فما يمنعكم من أن تصدِّقوه؟»، قالوا: إنه عدوّنا!، قال: فعند ذلك قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فعند ذلك ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ الآية[1].

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: "﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي: قل لهم أيها الرسول: من كان عدوًّا لجبريل، فإن شأن جبريل كذا؛ فهو إذًا عدو لوحي الله الذي يشمل التوراة وغيرها، ولهداية الله تعالى لخلقه، وبشراه للمؤمنين على ما يأتي في بيان ذلك. قال شيخنا[2] في تقييد تنزيله (بإذن الله): وإذا كان يناجي روحك، ويخاطب قلبك بإذن الله لا افتياتًا من نفسه،

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٢) برقم: (٢٥١٤)، وحسن شعيب الأرنؤوط الحديث بشواهده.

(٢) أي: محمد عبده.

فعداوته لا يصح أن تَصُدّ عن الإيمان بك، وليس للعاقل أن يتخذها تَعِلَّة ويَنْتَحلها عُذرًا، فإن القرآن من عند الله لا من عنده"[(١)].

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: لم يكن تنزيلُه عن اختيار منك أو إرادة، فاختار الله لهذا التنزيل القلبَ دون غيره الذي هو موضع التلقي، وهو الذي يَفْقه بعد التلقي، ويستقر هذا الكتاب فيه ويحفظ، وخَصَّ القلب بالذكر؛ لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف[(٢)]، و"المراد أن لا موجب لعداوته؛ لأنه واسطة أذنه الله بالنزول بالقرآن، فهم بمعاداته إنما يعادون الله تعالى"[(٣)]، ودلت الآية على شرف جبريل عليه السلام وذمّ مُعاديه[(٤)]، والمقصود الردّ على اليهود في عداوة جبريل عليه السلام، فلا ينبغي لأحد أن يعاديه؛ لأنه نزله على قلبك فهو مستحق للمحبة[(٥)].

قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: أنزل القرآن مقارنًا لحالة لا توجب عداوتهم إياه؛ لأنه أنزله مُخبِرًا عن صِدق ما تقدّمه من الكتب التي هي التوراة والإنجيل، وهذا التصديق "ثابت محقّق لا يشوبه شيء من التكذيب ولا التخطئة"[(٦)].

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٢٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (١/ ١٨٣).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٦٢١).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (٢/ ٣٦).

(٥) ينظر: تفسير ابن جزي (١/ ٩١- ٩٢).

(٦) التحرير والتنوير (١/ ٦٢٢).

قال تعالى: ﴿وَهُدَىٰ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نَزَّل اللهُ القرآنَ "هاديًا من الضلالات والبدع التي طرأت على الأديان، فألقت أهلها في حضيض الهوان، والعاقل لا يرفض الهداية التي تأتيه وتنقذه من ضلال هو فيه؛ لأن الواسطة في مجيئها كان عدوًّا له من قبل، فإن هذا الرفض من عمل الغبي الجاهل الذي لا يعرف الخير بذاته، وإنما يعرفه بمن كان سببًا في حصوله"(١).

"فحصل من الأوصاف الخمسة للقرآن -وهي أنه منزل من عند الله بإذن الله، وبأنه منزل على قلب الرسول، وأنه مصدق لما سبقه من الكتب، وأنه هادٍ أبلغ هدى، وأنه بشرى للمؤمنين- الثناء على القرآن بكرم الأصل، وكرم المَقَرّ، وكرم الفئة، ومَفِيض الخير على أتباعه الأخيار خيرًا عاجلًا، وواعدٌ لهم بعاقبة الخير"(٢).

وقوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون منه مباشرة، وأما غير المؤمنين فإنهم ينتفعون به في جلاء ما على قلوبهم من الغشاوة وإقامة الحجة فيعرفون بذلك الحق، فيكون نافعًا لهم نفعًا عظيمًا، والتوفيق والهداية من الله تعالى.

٢- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ [فصلت:٣-٤].

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦٢٢- ٦٢٣).

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: بُيِّنَت معانيه وأُحْكِمت أحكامه[١].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ أي: فصَّلناه قرآنًا باللسان العربي؛ لكي يعلمه هؤلاء[٢] مباشرة؛ فلا لبس فيه، ولا خفاء، ولا أسرار لا يعلمها إلا الكهان، وكان هذا التفصيل المحكم وفق الأغراض والأهداف، ووفق أنواع الطبائع والعقول، ووفق البيئات والعصور، ووفق الحالات النفسية وحاجاتها المتنوعة.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين. "والبشير: اسم للمبشِّر، وهو المخبِر بخبر يسرُّ المخبَر، والنذير: المخبِر بأمر مخوّف، شَبَّه القرآن بالبشير فيما اشتمل عليه من الآيات المبشرة للمؤمنين الصالحين، وبالنذير فيما فيه من الوعيد للكافرين وأهل المعاصي"[٣].

قال السعدي ؒ: "أي: بشيرًا بالثواب العاجل والآجل، ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يُتَلَقَّى بالقبول، والإذعان، والإيمان، والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين"[٤].

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾ أي: أكثر قريش، فهم لا يفهمون

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ١٦١).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٧/ ١٦١).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٣٢).

(٤) تفسير السعدي (ص:٧٤٤).

منه شيئًا مع بيانه ووضوحه[١]؛ لأنهم لا يصغون إليه بسبب الكِبر[٢]، وكثير من الناس اليوم يشابهون كفار قريش.

من دلالات وصف القرآن بـ (البشير والبشرى):

- أن منهج التبشير منهج قرآني عظيم، وينبغي على الدعاة إلى الله ﷻ والمربين لأولادهم أو لغيرهم الأخذ بهذا المنهج، فالنفوس لأجل أن تعمل وتتحرك تحتاج للمحفزات والدوافع القوية، ومن أقوى الدوافع: معرفة ثمار العمل، وهذه وظيفة التبشير الذي يذكر لهم الخير الذي سيتحقق لهم من وراء العمل الصالح.

- تُبْرِز لنا هذه الآيات حقيقةً، يجب أن تكون نَصْب أعيننا وهي: أنه لا يمكن أن يهتدي بهذا الكتاب حق الاهتداء ويحصل على البشرى منه إلا من عَمَر قلبَه الإيمانُ، فالإيمان مفتاح الهداية بهذا الكتاب.

- أن من أعظم مزيلات الهم والحزن والقلق والإحباط: قراءة القرآن البشير، والتدبر في آياته ومعانيه، ومن تأمل بشريات القرآن، وفَقِهَها فلن يبقى في قلبه حزن ولا يأس مهما كان.



(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ١٦١).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٧/ ١٦١).



الوصف الثالث
المبارك

١- قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥].

٢- قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء:٥٠].

٣- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

معنى الوصف:

جاء وصف القرآن بأنه مبارك في (٤) مواضع من القرآن.

وأصل البركة: الزيادة والنماء، وهي ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمبارك: ما فيه ذلك الخير[١].

سبب وصف القرآن بـ(المبارك):

وصَف القرآن بأنه مبارك لاشتماله على جميع معاني البركة، إنه مبارك في أصله، باركه الله وهو ينزله من عنده، ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل، وهو قلب محمد الطاهر الكريم الكبير، ومبارك في حجمه ومحتواه، فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر، ولكنه يحوي من المدلولات، والإيحاءات، والمؤثرات، والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام، في أضعاف أضعاف حيزه

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:١١٩).

وحجمه! ومن المستحيل أن يعبِّر البشر في مثل هذا الحيز- ولا في أضعاف أضعافه- عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات، ومفهومات، وموحيات، ومؤثرات! وأن الآية الواحدة تؤدي من المعاني، وتقرر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئًا متفردًا لا نظير له في كلام البشر.

وإنه لمبارك في أثره، وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطابًا مباشرًا عجيبًا لطيف المدخل، ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل، ذلك أن به من الله سلطانًا، وليس في قول القائلين من سلطان!(١).

وكذلك بركة القرآن في قوة حجته عند أهل القبلة الذين يدركون أمر الله ونهيه، ويدركون أن القرآن كلام الله فيعظمونه ويقدسونه، فإذا جاء الاستدلال بالقرآن رأيتهم يخضعون للنص، ويسلِّمون له، وينقادون له، ويعتقدون أن هذا من البركة، والله ﷻ يُحِلُّ البركة في قلوبهم، فتجد أن انصياعهم، واتباعهم للقرآن يعقبه بشرى لهم وفرح.

بيان الآيات:

١- **قال تعالى:** ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾[الأنعام:١٥٥].

قال السعدي رحمه الله: "﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم.

---

(١) الأساس في التفسير (٣/ ١٧١٠).

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحِكَم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفّرة عن فعله وعواقبها الوخيمة.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ فيما يأمر به وينهى، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه.

﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمرًا.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن اتبعتموه ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب، علمًا وعملًا"(١).

فاتباع هذا القرآن بركة، وهو يؤدي إلى تقوى الله التي تؤدي إلى الرحمة.

و(لعل) في قوله ﷻ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾[الأنعام:١٥٥]، تدل على تحقق الوقوع، وحصول الرحمة(٢).

وقد تكرر الخبر عن القرآن بالبركة في ذات السورة (الأنعام) في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[الأنعام:٩٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[الأنبياء:٥٠].

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن، وهو ذكر لمن تذكر به، مبارك، كثير الخير، يتبرك به، ويطلب منه الخير.

---

(١) تفسير السعدي (ص:٢٨٠).

(٢) ينظر: جمال القراء وكمال الإقراء (ص: ٣٤٩)، البرهان في علوم القرآن (١/ ١٨٣) و(٤/ ٣٩٤).

﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: أفأنتم يا أهل مكة له جاحدون؟! وهذا استفهام توبيخ وتعيير لهم[١]، "ووصف القرآن بالمبارك يعم نواحي الخير كلها؛ لأن البركة زيادة الخير، فالقرآن كله خير من جهة بلاغة ألفاظه وحسنها وسرعة حفظه وسهولة تلاوته، وهو أيضًا خير لما اشتمل عليه من أفنان الكلام والحكمة والشريعة واللطائف البلاغية، وهو في ذلك كله آية على صدق الذي جاء به؛ لأن البشر عجزوا عن الإتيان بمثله، وتحداهم النبي ﷺ بذلك فما استطاعوا، وبذلك اهتدت به أمم كثيرة في جميع الأزمان، وانتفع به من آمنوا به وفريق ممن حُرِموا الإيمان، فكان وصفه بأنه مبارك وافيًا، على وصف كتاب موسى عليه السلام بأنه فرقان وضياء، وزاده تشريفًا بإسناد إنزاله إلى ضمير الجلالة"[٢].

وقد وصف الله تعالى القرآن الكريم في هذه الآية "بوصفين جليلين: كونه ذِكْرًا يُتَذَكَّر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية.

وكونه مباركًا يقتضي كثرة خيراته ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكرًا مباركًا، وجب تلقيه بالقبول والانقياد، والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها،

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٥/ ٣٢٢)، زاد المسير في علم التفسير (٣/ ١٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٩٠-٩١).

واستخراج بركته، بتعلّم ألفاظه ومعانيه"[١].

٣- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾[ص:٢٩].

قال السعدي رحمه الله: "﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجلّ كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأملوا أسرارها وحِكَمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيه مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، **وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.**" [٢].

وقال ابن عاشور رحمه الله: "والتذكر: استحضار الذهن ما كان يعلمه، فجعل القرآن للناس ليتدبروا معانيه ويكشفوا عن غوامضه بقدر الطاقة، فإنهم على تعاقب طبقات العلماء به لا يصلون إلى نهاية من مكنونه، ولتذكرهم الآية بنظيرها وما يقاربها، وليتذكروا ما هو موعظة لهم وموقظ من غفلاتهم"[٣].

من دلالات وصف القرآن بـ (المبارك):

- أنه لا بد من مزيد الاعتناء والاهتمام بكتاب الله تعالى قراءةً، وتعلُّمًا،

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص:٥٢٥).
(٢) تفسير السعدي (ص:٧١٢).
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥٢).

وتعليمًا، وعملًا، فكلما ازداد الإنسان عناية بكتاب الله تعالى كلما عظمت البركة التي يجدها في حياته، وما أجمل تلك الشهادة التي سطرها الفخر الرازي ﵀ حين قال: "قال أهل المعاني: كتاب مبارك، أي: كثيرٌ خيره، دائمٌ بركته ومنفعته، يبشر بالثواب والمغفرة، ويزجر عن القبيح والمعصية ... وقد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه، والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة.

ثم قال: يقول مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي: وأنا قد نقلت أنواعًا من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم"[١].

قال الألوسي ﵀ معلقًا على كلام الرازي ﵀: "ولقد شاهدنا والحمد لله ﷻ ثمرة خدمتنا له في الدنيا، فنسأله أن لا يحرمنا سعادة الآخرة إنه البر الرحيم"[٢].

وقال محمد رشيد رضا ﵀ معلقًا على كلام الرازي ﵀ كذلك: "فليعتبر بهذا من يضعون جُلَّ أوقاتهم في طلب العلم الديني بعلوم الكلام وغيرها، مما يعدّون الرازي الإمام المطلق فيها، لعلهم يرجعون إلى كتاب الله تعالى ويهتدون به، ويطلبون السعادة من فيضه دون غيره"[٣].



(١) تفسير الرازي (١٣/ ٦٤-٦٥).

(٢) روح المعاني (٤/ ٢٠٩).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٥١٦-٥١٧).

الوصف الرابع
الشفـــاء

١- قــال تعــالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧].

٢- قــال تعــالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢].

٣- قــال تعــالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت:٤٤].

معنى الوصف:

جاء وصف القرآن بأنه شفاء في (٣) مواضع من القرآن.

و(الشفا) طرف الشيء وحرفه، والشِّفَاء من المرض: موافاة شفا السّلامة، وصار اسمًا للبرء[(١)].

"وحقيقته: زوال المرض والألم، ومجازه: زوال النقائص والضلالات"[(٢)].

سبب وصف القرآن بـ(الشفاء):

وصِف القرآن بالشفاء؛ لأن فيه الشفاء من الوسوسة، والقلق، والحَيرة،

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٤٥٩).

(٢) التحرير والتنوير (١١/ ٣٠١).

وفي القرآن شفاء من الهوى، والدَّنَس، والطمع، والحسد، ونزغات الشيطان، وفيه شفاء وعصمة للفكر من الانحراف، والشطط، هذا على مستوى الفرد؛ أما على مستوى الأمة ففيه شفاء لكل الأدواء والعِلَل التي تعصف بالمجتمعات فتفرّقها، وتجعلها تتناحر فيما بينها، فيأتي هذا الشفاء بالاجتماع، والسلام، والطمأنينة، والأمن.

قال ابن القيم ﷺ: "فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة"(١).

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧].

قال ابن عاشور ﷺ: "الأوصاف الثلاثة الأُوَل (موعظة وشفاء وهدى) ثابتةٌ للقرآن في ذاته، سواء في ذلك من قَبِلها وعمل بها، ومن أعرض عنها ونبذها، إلا أن وصفه بكونه هدى لَمَّا كان وصفًا بالمصدر المقتضي للمبالغة بحيث كأنه نفس الهدى؛ كان الأنسب أن يراد به حصول الهدى به بالفعل، فيكون في قران الوصف الرابع، والوصف الرابع -وهو الرحمة- خاص بمن عمل بمقتضى الأوصاف الثلاثة الأول، فانتفع بها فكان القرآن رحمة له في الدنيا والآخرة، وهو ينظر إلى قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢]، فقيد: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ(رحمة) بلا شبهة، وقد خصَّه به جمهور المفسرين، ومن المحققين من

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٢٢).

جعله قيدًا لـ (هدى ورحمة) ناظرًا إلى قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:٢] فإنه لم يجعله هدى لغير المتقين، وهم المؤمنون.

والوجه أن كونه (موعظة) وصف ذاتي له؛ لأن الموعظة هي الكلام المحذِّر من الضر، ولهذا عقبت بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فكانت عامة لمن خوطب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وأما كونه (شفاء) فهو في ذاته صالح للشفاء، لكن الشفاء بالدواء لا يحصل إلا لمن استعمله.

وأما كونه (هدى ورحمة) فإن تمام وصف القرآن بهما يكون بالنسبة لمن حصلت له حقيقتهما، وأما لمن لم تحصل له آثارهما، فوصف القرآن بهما بمعنى صلاحيته لذلك، وهو الوصف بالقوة في اصطلاح أهل المنطق، وقد وقع التصريح في الآية الأخرى بأنه ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء:٨٢]، وصرح في آية البقرة [٢] بأنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾، فالأظهر أن قيد ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ راجع إلى (هدى ورحمة) معًا؛ إلى قاعدة القيد الوارد بعد مفردات، وأما رجوعه إلى شفاء فمحتمل؛ لأن وصف شفاء قد عقب بقيد: ﴿لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ فانقطع عن الوصفين اللذين بعده، ولأن تعريف ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ باللام يقتضي العموم، فليحمل الشفاء على معنى الدواء الذي هو صالح للشفاء للذي يتناوله، وهو إطلاق كثير"[1].

٢- قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾[الإسراء:٨٢].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هذا القرآن المنزل

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٠٢-٢٠٣).

على محمد ﷺ يُذْهِب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة[(١)].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ زيادة الخسارة للظالم من حيث إن كل آية تنزل يتجدد منهم تكذيب، ويزداد لهم خسارة[(٢)].

قال ابن القيم ﷺ: "ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة، فما الظن بكلام رب العالمين، الذي فضله على كل كلام كفضل الله على خلقه، الذي هو الشفاء التام، والعصمة النافعة، والنور الهادي، والرحمة العامة الذي لو أنزل على جبل؛ لتصدع من عظمته وجلالته. قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الإسراء:٨٢]، و(من) هاهنا لبيان الجنس، لا للتبعيض، هذا أصح القولين"، ثم يستطرد في بيان أثر الرقية بالفاتحة فيقول: "فما الظن بفاتحة الكتاب التي لم ينزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مثلها... فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية، والثناء على الله، وتفويض الأمر كله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلب النعم، وتدفع النقم من أعظم الأدوية الشافية الكافية، وقد قيل: إن موضع الرقية منها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة:٥]، ولا ريب أن هاتين الكلمتين

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١١٢).

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٥/ ١٢٣).

من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانة، والافتقار والطلب، والجمع بين أعلى الغايات، وهي عبادة الرب وحده، وأشرف الوسائل -وهي الاستعانة به على عبادته- ما ليس في غيرها، ولقد مرّ بي وقت بمكة سقمت فيه، وفقدت الطبيب والدواء، فكنت أتعالج بها آخذ شربة من ماء زمزم، وأقرؤها عليها مرارًا، ثم أشربه فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الانتفاع"[١].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن من أنواع هجر القرآن "هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها؛ فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وهذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾"[٢].

و"في القرآن الكريم نوعان من الإعجاز الطبي:

أما الأول: فهو إعجاز وصفي، بمعنى أن القرآن وصف أدوية لعلاج الأمراض البدنية والنفسية، في وقت لم يكن الناس يدركون هذا أو بعضه؛ فحرّم الخنزير، والدم، والميتة، والمنخنقة، والخمر، والزنا، واللواط، وإتيان النساء في المحيض، ولا شك في أن مثل هذه الأشياء من مصادر الأمراض الخطيرة.

ووصف العسل وأخبر أن فيه شفاء، وحرَّم أيضًا اتباع الشهوات،

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٦٢-١٦٤).

(٢) الفوائد (ص:٨٢).

والحسد، والحقد، والغضب واليأس، وغير ذلك لما تجلبه لصاحبها من أمراض نفسية، ووصف العلاج لنحو هذا: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[البقرة:٤٥]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[الرعد:٢٨]، وكذلك قوله سبحانه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾[التوبة:٥١]، وهذه الآيات من النوع الثاني.

الثاني: هناك نوع آخر لا يشارك القرآن فيه كتاب سواه، ذلكم الإعجاز هو أن يصبح القرآن نفسه دواء للمرض، وشفاء للداء بإذن الله، لا أن يصف الدواء، والنصوص كثيرة على أن القرآن نفسه شفاء، وقد وصَف الله القرآن بأنه شفاء، ولم يصفه بأنه دواء، ذلكم أن الشفاء هو ثمرة الدواء والهدف منه، أما الدواء فقد يفيد، وقد يضر.

وقد وردت في السنة أدعية قرآنية كثيرة، يقرؤها المسلم عند كل شأن من شؤونه: عند نومه، وعند يقظته، وعند سفره، وعند وصوله، وعند دخوله، وعند خروجه، في مرضه، وفي صحته، وهي ثابتة في كتب السنة مبيّنة لمن أرادها.

فكم من مسلم إذا تكالبت عليه الهموم توضأ وتطهر، ثم انتحى زاوية في بيته، وأخذ المصحف يتلو ويتلو فتنزاح عنه الهموم وتنجلي، فيقوم وكأنما نشط من عقال.

وكم من مسلم اضطجع على جنبه الأيمن عند نومه، وقرأ على نفسه بضع آيات، وكأنما يمد بها طريقًا إلى ربه، ويبتغي بها رضاه، فينام قرير العين، آمنًا بحفظ الله ورعايته.

وكم من مسلم أصابته الوحشة، واستولى عليه الخوف؛ فآنس نفسه بآيات، فوجدها نعم الأنيس، أزالت وحشته وأذهبت خوفه.

وكم من مسلم اضطرب وارتعد فتلا آيات، فأنزل الله عليه سكينته، وآمن روعته.

وكم من مسلم التمس الشيطان إلى قلبه سبيلًا، وألقى إليه بالشبهات والشكوك، فما تكاد تنقدح شرارتها حتى يدعوه داعي الإيمان إلى ترتيل آيات من القرآن، فتقضي على كل شبهة، وتقطع كل شك فيعود قلبه مطمئنًا.

وكم من مسلم ناله الفقر ومسه الجوع، فوجد في القرآن غناه، وفي تلاوته غذاءه.

وكم من مسلم كاد أن يطغيه غناه، وتذهب به بهجته، فأنقذه الله بالقرآن يتلوه، فانكشف له الستار، وتذكر نعمة ربه؛ فابتغى ما عند الله بما عنده.

فإن جرَّب أحد شيئًا من هذا فاستعصى عليه أو لم يجد؛ فلينظر في حاله، وليفتش عن العلة في نفسه، فإنه من قِبَلِه هو أُتِي"(١).

من دلالات وصف القرآن بـ (الشفاء):

- أهمية الاستشفاء بالقرآن، وعدم إهمال التداوي به للأمراض الحسية والمعنوية. يقول ابن القيم رحمه الله: "وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبدًا، **وكيف تقاوم الأدواء**

(١) خصائص القرآن الكريم لفهد الرومي (ص:١١٠-١١٦) مختصرًا.

كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه، والحمية منه لمن رزقه الله فهمًا في كتابه، فمن لم يشفه القرآن، فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله"(١).

- ضرورة الاستقامة على أوامر القرآن وتوجيهاته وهديه؛ حتى يتحقق الشفاء للأفراد والمجتمعات من سائر الأدواء التي تكدِّر حياتهم ومعيشتهم؛ فيحيون حياة طيبة، فإن الشفاء لا يتحقق إلا بالامتثال لتوجيهات الطبيب وإرشاداته(٢).



---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١١/ ٣٠٢).



قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧﴾[الواقعة:٧٧].

معنى الوصف:

جاء هذا الوصف في موضع واحد من القرآن.

والكرم: شرف الشيء في ذاته[(١)]، وكثير الخير والبركة، وهو اسم جامع لصفات المدح[(٢)].

سبب وصف القرآن بـ(الكريم):

وصِف القرآن بـ(الكريم)؛ لأنه لا يُستفاد من كتاب من الحكم والعلوم ما يستفاد منه، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه[(٣)].

وهو كريم على المؤمنين؛ لأنه كلام ربهم، وشفاء صدورهم، وكريم على أهل السماء؛ لأنه تنزيل ربهم ووحيه، وقيل: (كريم) أي: غير مخلوق[(٤)]، وقيل: (كريم)؛ لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأمور، وقيل: لأنه يكرم حافظه، ويعظم قارئه[(٥)].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ١٧٢).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٢٩/ ٤٢٩)، تفسير أبي السعود (٥/ ٣٥٩).

(٣) ينظر: تفسير الرازي (٢/ ٢٦٤)، تفسير السعدي (ص:٨٣٦).

(٤) وهو يقرر هذا في تفسيره كما هو الحال عند أهل السنة قاطبة.

(٥) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٢٢٤).

والكريم: النفيس الرفيع في نوعه، وهذا تفضيل له على سائر الكتب المُنَزَّلة من عند الله، فقد فاقها في استيفاء أغراض الدين، وأحوال المعاش والمعاد، وإثبات المعتقدات، وفاقها في دحض الباطل دحضًا لم يشتمل على مثله كتابٌ سابق، وخاصة الاعتقاد، وفاقها في وضوح معانيه، وكثرة دلالته مع قلّة ألفاظه، وفي فصاحته، وحسن آياته، وحسن مواقعها في السمع، وذلك من آثار ما أراد الله به من عموم الهداية به، والصلاحية لكل أمة، ولكل زمان[1]، فلا حاجة له إلى غيره؛ لأنه يعطي ولا يأخذ، ولا يقبل الزيادة أو النقص.

والقرآن كثير الكرم، كلُّ من طلب منه مقصوده وجده، وإنه مغنٍ كلَّ من لاذَ به، وإغناءُ المحتاج غايةُ الكرم[2].

ومن عظمة هذه الصفة أنه مع كونها وردت في آية واحدة في القرآن، إلا أنها هي التي أصبحت قرينة للقرآن، فتجد مكتوبًا على كل مصحف في طبعات عامة الدول: (القرآن الكريم)، وأصبحت عرفًا مشهورًا في المجتمعات المسلمة، فإذا نطق أحدهم اسم القرآن، قال: القرآن الكريم، بل من قال: (القرآن) دون أن يثني عليه بـ(الكريم) قد يعاتبه بعض العامة، ولو قال: (القرآن المبارك) أو (القرآن العزيز)، وما شابه ذلك من الأوصاف التي جاءت في القرآن، فقد يستغرب بعض العامة ذلك، فسبحان الله الذي جعل هذه الصفة للقرآن ملازمة.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٣٢- ٣٣٣).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (٢٨/ ١٢٢).

بيان الآية:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾[الواقعة:٧٧].

أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ[١] ﴿كَرِيمٞ﴾ أي: له كَرَمٌ وشرف وقَدْر رفيع؛ لاشتماله على أمهات الحِكَم والأحكام، وما تنطبق عليه حاجات الأنام على الدوام[٢].

قال الرازي رحمه الله: "قوله: ﴿كَرِيمٞ﴾ فيه لطيفة، وهي أن الكلام إذا قرئ كثيرًا يهون في الأعين والآذان، ولهذا ترى من قال شيئًا في مجلس الملوك لا يذكره ثانيًا، ولو قيل فيه، يقال لقائله: لِمَ تكرر هذا؟! ثم إنه تعالى لما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ﴾ أي: مقروء، قُرِئ، ويُقْرأ، قال: ﴿كَرِيمٞ﴾ أي: لا يهون بكثرة التلاوة، ويبقى أبد الدهر كالكلام الغض والحديث الطري"[٣].

فوَصْفُ القرآنِ بالكَرَم براءة له من أن يكون قولَ كاهن أو مجنون، أو أن يكون من أساطير الأولين، أو يكون قد تَنَزَّلت به الشياطين، فهو كريم؛ لأنه كلام الله وكفى.

من دلالات وصف القرآن بـ (الكريم):

- أنه لا بد من توقير القرآن واحترامه، ومن مظاهر هذا: التطهر الحسي والمعنوي عند حمله أو لمسه أو قراءته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٥٤٤).

(٢) ينظر: تفسير القاسمي (٩/ ١٢٨).

(٣) تفسير الرازي (٢٩/ ٤٢٩).

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة:٧٨-٧٩].

- أنه لا بد من الإقبال على القرآن والانتهال من معينه وعلومه وآدابه، فإن من كرم القرآن أن كل من طلب منه شيئًا أعطاه، "فالفقيه يستدل به ويأخذ منه، والحكيم يستمد به ويحتج به، والأديب يستفيد منه ويتقوى به، وكثير من الناس لا يفهم من العلوم شيئًا، وإذا اشتغل بالقرآن سهل عليه حفظه"(١).

- أنه لا بد من الإكثار من قراءة القرآن؛ فإنه يكرم قارئه بأنواع من العطايا، ومنها مضاعفة الأجور، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(٢).



(١) تفسير الرازي (٢٩/ ٤٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥) برقم: (٢٩١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١١٠٤) برقم: (٦٤٦٩).



قال تعالى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ ﴾[النحل: ٣٠].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف للقرآن في موضع واحد فقط، وهو هذه الآية.

ومعنى الخير: هو ما يرغب فيه الكلّ، كالعقل، والعدل، والفضل، والشيء النافع، وضدّه: الشرّ(١).

سبب وصف القرآن بـ(الخير):

وصف القرآن بـ(الخير)؛ لأنه خير، ونزل بالخير الشامل لكل خير في الدنيا، وكل خير في الآخرة(٢).

بيان الآية:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ ﴾[النحل: ٣٠].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ (الذين اتقوا): هم المؤمنون الذين خافوا الله في الدنيا؛ فاتقوا عقابه بأداء فرائضه، وتجنب معاصيه، "وُصفوا بالتقوى إشعارًا بأنَّ ما صدرَ عنهم من الجواب ناشئ عن التقوى"(٣)، وهذا

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٠٠).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١٤/ ١٤١).

(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ١١٠).

فيه تزكية للصحابة وثناء عظيم عليهم، وذلك أن الله جزاهم الحسنى في الدنيا بإحسانهم وتقواهم وحسن جوابهم لمن سألهم، وشهد لهم في الآخرة بأن لهم الجنة، التي هي دار أهل التقوى والإيمان.

قال القرطبي ﵀: "وكان يَرِد الرجل من العرب مكة في أيام الموسم، فيسأل المشركين عن محمد ﵇ فيقولون: ساحر، أو شاعر، أو كاهن، أو مجنون، ويسأل المؤمنين فيقولون: أنزل الله عليه الخير والهدى، والمراد: القرآن"[(١)].

فكان جوابهم: ﴿قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ أي: أنزل خيرًا، أي: رحمة وبركة وحُسْنًا لمن اتبعه وآمن به[(٢)]، "والمعنى أن المؤمنين سئلوا عن القرآن، ومن جاء به، فأرشدوا السائلين ولم يترددوا في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه، وهو كلمة: (خيرًا) المنصوبة، فإن لفظها شامل لكل خير في الدنيا، وكل خير في الآخرة"[(٣)].

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ و(الذين أحسنوا): هم المتقون، جزاؤهم حسنة؛ لأنهم أحسنوا[(٤)] مع ربهم، ومع أنفسهم، ومع أهليهم، ومع بقية الناس، وحسنتهم في الدنيا، وهي ما رزقهم من خيرها وطاعته فيها[(٥)]،

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١٠٠).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ١٤١).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٤/ ١٤٢).

(٥) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٥٥٧).

وهذه من ثمار العمل بالقرآن.

﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: ولدار الآخرة خير لهم من الدنيا، فإذا كانت لهم في الدنيا حسنة، فلهم في الآخرة أحسن، وخير الآخرة هو النعيم الدائم(١)، ومن أعظم حسنات الدنيا الشعور بالطمأنينة.

من دلالات وصف القرآن بـ (الخير):

- أنه لا بد من الحرص على قراءة القرآن وفهمه وحفظه وجمعه، فإن من حاز القرآن فقد حاز الخير كله.

- أن أفضل جواب يمكن أن يُقَدَّم للمشككين في القرآن والطاعنين فيه هو بيان خيرية القرآن، وما اشتمل عليه من جوانب الخير المتعددة في كل المجالات والقضايا، فيُعرَّف بها من كان جاهلًا، ويُخْصَم بها من كان معاندًا.

- رجاحة عقول الصحابة ﵃، وبلاغتهم، وفصاحتهم، حيث أثبت الله ﷻ إجابتهم في محكم التنزيل، ووصف الذين أجابوا بالمتقين، عليهم رضوان الله تعالى، وكيف لا يكونون كذلك وهم طلاب رسول الله ﷺ، وقد أثنى الله على عقولهم، وعلى بواطنهم، كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[الحجرات:٧](٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٤/ ١٤٢).

(٢) وللمزيد يمكن الرجوع إلى كتابي: ثناء المولى سبحانه وتعالى على أصحاب نبيه ﷺ في القرآن الكريم.



المبحث الخامس

أوصاف القرآن
الدالة على
العظمة والهيمنة



وفيه الأوصاف التالية:

الوصف الأول: **العظيم**

الوصف الثاني: **المجيد**

الوصف الثالث: **العزيز**

الوصف الرابع: **العلي**

الوصف الخامس: **المهيمن**

تمهيد

للقرآن سلطة وسطوة عظيمة على النفوس، وله قوة وتأثير عجيب، وما ذاك إلا لأنه كتاب عظيم، وهذه العظمة تتجلى في مظاهر وأوصاف عديدة، من أبرزها: العظمة البالغة، والمجد الرفيع، والعزة التي لا ترام، والعلو على كل كلام، والهيمنة على كل كتاب على هذه الأرض قديمًا كان أم حديثًا، وهذه أوصاف لم تجتمع لكتاب في الدنيا إلا للقرآن العظيم.

وفيما يلي تفصيل هذه الأوصاف وبيانها.



قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾[الحجر:٨٧].

معنى الوصف:

ورد وصف القرآن بأنه عظيم في هذا الموضع، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾[ص:٦٧].

والعظيم في اللغة: صفة مشبّهة لمن اتصف بالعظمة، والعظمة: معناها الكِبَر، والاتساع، وعلو الشأن، والارتفاع، يقال: عَظُمَ أي: كَبُر واتّسع وعلا شأنه وارتفع، والعِظَم خلاف الصِّغَر، والتعظيم معناه: التبجيل، والعظمة، والكبرياء(١).

سبب وصف القرآن بـ(العظيم):

وصف القرآن بكونه عظيمًا؛ لأنه "عظيم في أسلوبه، وعظيم في روعته، وعظيم في معناه، وعظيم في جمال تركيبه، وعظيم في حكمته، وعظيم في وعده ووعيده، وعظيم في ترغيبه وترهيبه، وعظيم في أحكامه، وعظيم في أمره ونهيه، وعظيم في أخباره وأقاصيصه وأمثاله"(٢).

وتتبين عظمة هذا الكتاب الكريم في تأثيره العجيب على البشر، فهو يُغيِّر عقائدهم، سلوكهم، أفكارهم، تعاملهم، قلوبهم، منذ نزوله إلى يومنا هذا،

---

(١) ينظر: لسان العرب (١٢/ ٤٠٩-٤١٠)، مقاييس اللغة (٤/ ٣٥٥).

(٢) الهدى والبيان في أسماء القرآن (٢/ ٣٤).

إلى قيام الساعة.

وفي أنه لـم يختص بـه جنس دون جنس، ولا قومية دون قومية، ولا بلد دون بلد، ولا قبيلة دون قبيلة، فهـو لـيس خاصًّـا بقريش ولا العـرب، بـل هـو للبشر جميعًا.

وتتمثل عظمته في بناء العقائد الربانية، التي تؤمن بالله ﷻ، وتؤكد على أن الخلق كله خلق الله: الكون، والأفلاك، والبشر والجن، والإنس، والله ﷻ هو رب العالمين.

وهذا البناء الذي لم يكن معهودًا لدى العرب هو الذي غيَّرهم، وغيَّر سَيْر تاريخ البشر وواقعهم.

وتتمثل عظمته في إنشائه للقيم المنطلقة منه ومن السنة، ومن الإيمان باليوم الآخر، ليوجِد الرقابة الذاتية للناس على سلوكهم؛ خوفًا من الوقوف بين يدي الله ﷻ، وهذا التأثير غيَّر العرب من قبائل يأكل بعضها بعضًا، وترى أن الحلال ما حلَّ في يدها، والحرام ما عجزت عن الوصول إليه، إلى جيل فريد فتح الله عليهم ما حولهم من البلاد، فتأثر أهل تلك البلاد بهم أيَّما تأثر، وفي أسرع من الخيال تحولت هذه الدول إلى الإسلام، فأصبحت مصر فسطاط المسلمين، وتعلّم أهلها العربية في عقدين، وكذلك بلاد الشام كلها، والعراق، وأطراف إيران، ومناطق شاسعة في الأناضول.

سطوة القرآن وتأثيره على من أنصت له:

على مر العصور كان لهذا القرآن العظيم تأثيره الكبير على الناس، فأسلم الكثيرون، وتغيرت أحوالهم بمجرد سماعهم للقرآن، ولما أنصتوا له حسيًّا

ومعنويًّا، ولم يكن في قلوبهم الغل والكبر، فتح الله على قلوبهم وهداهم للإسلام، والأمثلة على هذا لا تعد ولا تحصى، فمنهم أبو ذر الغفاري وأخيه أنيس[(١)]، والطفيل بن عمرو الدوسي[(٢)]، وهكذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما روى الإمام أحمد[(٣)]، وغيرهم كثير، وكذلك في عصرنا الراهن؛ فهذا إبراهيم خليل الذي كان قسيسًا يدعو إلى النصرانية، يتغير حاله عندما يسمع قول الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ فينشرح صدره للإسلام، ويتحول إلى داعية نشيط للإسلام، يسلم على يديه الكثير من شباب النصارى[(٤)].

وهذا كات ستيفنز (المغني البريطاني المشهور) الذي أسلم، وأصبح اسمه: يوسف إسلام، وكان سبب إسلامه آيات القرآن، ومن أكثرها تأثيرًا عليه البسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[(٥)].

وأيضًا الدكتور موريس بوكاي، الذي درس القرآن دراسة علمية، وتبين له أن كل ما فيه من آيات متعلقة بالفلك، والحيوان، والنبات، والتناسل البشري يتوافق مع معارف العلم الحديث، فكان هذا سبب إسلامه[(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩١٩-١٩٢٢) برقم: (٢٤٧٣).
(٢) أخرجه الأصبهاني في دلائل النبوة (٢٣٨-٢٣٩) برقم: (١٩١).
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣) برقم: (١٠٧).
(٤) ينظر: بالقرآن أسلم هؤلاء، عبد العزيز الغزولي (ص:١٣١-١٣٣).
(٥) بالقرآن أسلم هؤلاء، عبد العزيز الغزولي (ص:٩١-٩٣).
(٦) بالقرآن أسلم هؤلاء، عبد العزيز الغزولي (ص:٨٥).

وهذا جيفري لانج (البروفسور في الرياضيات)، والذي كان سبب إسلامه أوائل الآيات في سورة البقرة، وخاصة قصة خلق آدم عليه السلام[(١)].

وغيرهم الكثير والكثير من العظماء، والعلماء، والمثقفين، والمبدعين، والسياسيين، والعسكريين الذين أدهشتهم عظمة القرآن فخضعوا لها وذلوا، وانقادوا للحق الذي تضمنه هذا القرآن العظيم، وهذا لا يزال إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

بيان الآية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾[الحجر:٨٧].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ أي: ولقد أعطيناك يا محمد فاتحة الكتاب التي تُثَنَّى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة[(٢)]، وقيل في السبع المثاني: هي السبع الطوال.

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: وأعطيناك القرآن العظيم القَدْر؛ لأنه كلام الله تعالى ووحيه[(٣)]، وهذا من باب عطف العام على الخاص، لكثرة ما في المثاني من التوحيد، وعلوم الغيب، والأحكام الجليلة، وتثنيتها فيها[(٤)].

وقد جاء في سبب نزول الآية أن سبع قوافل وافت من بُصرى

---

(١) ينظر: كتاب "حتى الملائكة تسأل"، لجيفري لانج (ص:٤٣ وما بعدها) والذي حكى فيه ذلك.

(٢) ينظر: تفسير البغوي (٤/ ٣٩٠).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٥٤٣).

(٤) ينظر: تفسير السعدي (ص:٤٣٤).

وأذْرِعات[(١)] ليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البَزّ، وأوعية الطِّيْب، والجواهر، وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها فأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع القوافل[(٢)].

وجاء وصف القرآن بكونه عظيمًا بعد أن أمر الله تعالى النبي ﷺ بالصبر على أذى قومه، وأن يصفح عنهم صفحًا جميلًا[(٣)]، فبيّن الله سبحانه أن أهم وسيلة إلى ذلك أن يرتبط بكتاب الله تعالى إعادةً وتكرارًا لآياته وصوره؛ مستحضرًا جلالة قدر هذا الكتاب عند الله، فإنه إن فعل ذلك أُعِين على الصبر والأذى، وأثمر لديه أن لا يمتد بصره ولا تتحرّك نفسه لشيء زائل في هذه الأرض من أعراضها الزوائل، ولا يحفل بمصير أهل الضلال، ولا يهمّه شأنهم في كثير ولا قليل، إنما يمضي في طريقه مع الحق الأصيل.

من دلالات وصف القرآن بـ (العظيم):

- أنه لا بد من تعظيم القرآن الذي عظّمه الله تعالى، وإجلالِه وتقديرِه، فهو كلام الله ﷻ، وتعظيمه هو من تعظيم الله ﷻ، وهذا التعظيم اهتم به الفقهاء رحمهم الله تعالى، وفصّلوا في أحكام من يخالف مقتضيات هذا التعظيم، وبيّنوا خطورة الاستخفاف بالقرآن، وبحثوا كثيرًا من مسائل هذا الباب في كتاب الردة، نسأل الله العافية والسلامة.

---

(١) بصرى وأذرعات: موضعان بالشام، ينظر: لسان العرب (٤/ ٦٨)، (٨/ ٩٧).

(٢) ينظر: أسباب النزول (ص:٢٨٣).

(٣) ينظر: تفسير الرازي (١٩/ ١٥٨).

- أنه لا بد من الاستغناء بهذا القرآن العظيم عن السفاسف وتوافه الأمور، قال السعدي رحمه الله: "ولذلك قال بعده: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[الحجر:٨٨] أي: لا تعجب إعجابًا يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واغترَّ بها الجاهلون، واستَغْنِ بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم"(١).

- عظمة القرآن تدل دلالة قاطعة على كماله، وعدم القدرة على الزيادة على ما فيه، أو النقصان منه، وفيها تأكيد على حفظ الله سبحانه وتعالى لهذا القرآن.



(١) تفسير السعدي (ص:٤٣٤).



١- قال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾[ق:١].

٢- قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١﴾[البروج:٢١].

معنى الوصف:

جاء هذا الوصف للقرآن مرتين، مرة معرَّفًا (المجيد)، ومرة منكَّرًا (مجيد)، وكلاهما يفيد التعظيم.

والمجيد في اللغة: من المجد، وهو الرفيع الكريم العالي[(١)]، وقيل: السّعة في الكرم والجلال[(٢)].

وقد جاء وصف القرآن بالمجد مطلقًا غير مقيد، فهو يشمل الشرف والمجد كله.

سبب وصف القرآن بـ(المجيد):

وصِف القرآن بـ(المجيد) لشرفه[(٣)]، وقيل: لكثرة ما يتضمّن من المكارم الدّنيويّة والأخرويّة[(٤)].

قال السعدي ﷺ: "المجيد أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه،

(١) ينظر: لسان العرب (٢/ ٢٩٣).
(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٧٦٠).
(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٤٣).
(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٧٦١).

كثير البركات، جزيل المبرَّات.

والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا: هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمّها وأحسنها، وهذا موجب لكمال اتباعه، وسرعة الانقياد له، وشكر الله على المنّة به، ولكن أكثر الناس، لا يقدِّر نِعَم الله قدرها"[1].

بيان الآيات:

١- قال تعالى: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾[ق:١].

قال ابن كثير رحمه الله: "أي: الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد"[2].

٢- قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١﴾[البروج:٢١].

أي: يقول تكذيبًا منه جلَّ ثناؤه للقائلين للقرآن: هو شعر وسجع: ما ذلك كذلك، بل هو قرآن كريم على الله[3]، "فالمجيد المتّصفُ بقوة المجد، والمجد -ويقال: المُجادة-: الشّرف الكامل، ويدخل في كمال مجده أنه يفوق كلَّ كلام، مثل ما أوحى الله به إلى محمد ﷺ من أقوال الله تعالى (المعبَّر عنه في اصطلاح علمائنا بالحديث القدسي)، فإنّ القرآن يفوق ذلك

(١) تفسير السعدي (ص:٨٠٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٥).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٢٨٦)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٥/ ١١٦).

كله؛ لما جعله الله بأفصح اللغات، وجعله معجزًا لبلغاء أهل تلك اللغة عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

ويفوق كل كلام من ذلك القبيل بوفرة معانيه وعدم انحصارها، وأيضًا بأنه تميَّز على سائر الكتب الدينية بأنه لا ينسخه كتاب يجيء بعده، وما يُنْسَخ منه إلا شيء قليل، ينسخه بعضه"(١).

من دلالات وصف القرآن بـ (المجيد):

- أن أعظم وسيلة لنيل المجد هي العمل بالقرآن والأخذ به، "لأن من علم معانيه وعمل بما فيه مَجُد عند الله تعالى وعند الناس"(٢).

- أن العزة والقوة والفخر في هذا القرآن المجيد، فمن أوتي القرآن المجيد واستقرت آياته في سويداء قلبه، استشعر العزة وافتخر بإسلامه، وأدرك عظمة القرآن وصدق رسول الله ﷺ، فلا يجد بعد ذلك حرجًا في أن يضحي بنفسه رخيصة في الدفاع عن القرآن والسنة والدين.



---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٧٦- ٢٧٧).

(٢) تفسير أبي السعود (٨/ ١٢٥).



قـال تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾[فصلت:٤١-٤٢].

معنى الوصف:

جاء وصف القرآن بهذا الوصف في موضع واحد، وهو الآية المذكورة.

والعزيز في اللغة: هو القوي الشديد الغالب، الذي لا يُغلب، قال الزّجّاج: هو الممتنع فلا يغلبه شيء، وقال غيره: هو القوي الغالب كل شيء[(١)].

قال الراغب رحمه الله: "وعَزَّ الشيءُ: قَلَّ، اعتبارًا بما قيل: كلّ موجود مملول، وكلّ مفقود مطلوب.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾[فصلت:٤١]، أي: يصعب مناله، ووجود مثله"[(٢)].

سبب وصف القرآن بـ(العزيز):

وصِف القرآن بـ(العزيز) لأنه غالب بقوة حجته وفصاحته وبيانه كل ما سواه من الكتب السماوية والفصحاء والبلغاء الذين نزل القرآن بينهم.

وقد وصف الله تعالى كتابه بأنه كتاب عزيز في معرض تهديد من كفر به، وجحد كونه من عند الله تعالى؛ ليبين لهم فظاعة ما وقعوا فيه، وخسارتهم في

---

(١) ينظر: لسان العرب (٥/ ٣٧٤).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص:٥٦٤).

هذه الحال، إذ أنه كتاب عزيز، لا مثل له، حيث قد عجزوا عن الإتيان بمثله.

كتاب عزيز غالب لشُبَه المبتدعين والكفار.

عزيز لا يقدر على معارضته أحد.

فما كان وصفه هكذا فالأصل أن يؤمَن به ويُتَّبَع، لا أن يُكفَر به ويُستَبدل بتقليد الآباء والأهواء، ودليل صدقه فيه، فها أنتم قد غُلِبتم وقُهِرتم بحججه وبراهينه تارة، وتارة أخرى بعدم قدرتكم على الإتيان بمثله، ولو أنصفتم أنفسكم لكان ذلك كافيًا لأن تؤمنوا به وتصدقوه[١].

بيان الآية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

أي: إن الذين كفروا بالقرآن حين جاءهم مجزيون على كفرهم بالهلاك والعذاب[٢]، والملاحظ أن الآية ذكرت ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ لكن لم يُذْكر الخبر، وفائدة ذلك تبشيع فعلتهم تلك وشناعتها، وكأنه لا يوجد وصف يمكن أن يُخْبَر به عنها، "والكفر بالقرآن يشمل إنكار كل ما يوصف به القرآن من دلائلِ كونِهِ من عند الله، وما اشتمل عليه مما خالف معتقدهم ودين شركهم، وذلك بالاختلاقات التي يختلقونها كقولهم: سحر، وشعر، وقول كاهن، وقول مجنون، ولو نشاء لقلنا مثل هذا، وأساطير الأولين، وقلوبنا في

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٧/ ٥٦٨) .

(٢) ينظر: تفسير الماوردي (٥/ ١٨٥).

أكنة، وفي آذاننا وقر"[١].

وكلام الفقهاء فيما يحصل به الكفر بالقرآن عجيب وكثير، يدل على عظمة القرآن في قلوبهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾ قال ابن الجوزي ﷺ: "فيه أربعة أقوال: أحدها: منيع من الشيطان لا يجد إليه سبيلًا، قاله السدي. والثاني: كريم على الله، قاله ابن السائب. والثالث: منيع من الباطل، قاله مقاتل. والرابع: يمتنع على الناس أن يقولوا مثله، حكاه الماوردي"[٢]، وهذه الأقوال متوافقة وليست متعارضة، وقد جمع بينها ابن جرير ﷺ فقال: "أي: وإن هذا الذكر لكتاب عزيز بإعزاز الله إياه، وحفظه من كل من أراد له تبديلًا، أو تحريفًا، أو تغييرًا، من إنسي وجني وشيطان مارد"[٣].

وقال ابن عاشور ﷺ: "وقد أجري على القرآن ستة أوصاف ما منها واحد إلا وهو كمال عظيم.

الوصف الأول: أنه ذكر، أي: يذكِّر الناس كلهم بما يغفلون عنه، مما في الغفلة عنه فوات فوزهم.

الوصف الثاني: من معنى الذكر أنه ذكر للعرب، وسمعة حسنة لهم بين الأمم، يخلد لهم مفخرة عظيمة، وهو كونه بلغتهم، ونزل بينهم.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٠٧).
(٢) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٤).
(٣) تفسير الطبري (٢١/ ٤٧٩).

الوصف الثالث: أنه كتاب عزيز، والعزيز: النفيس، وأصله من العزَّة وهي المَنَعة؛ لأن الشيء النفيس يُدَافع عنه ويُحْمَى عن النبذ، فإنه بين الإتقان وعلو المعاني ووضوح الحجة، ومثل ذلك يكون عزيزًا، والعزيز أيضًا: الذي يَغلِب ولا يُغلَب، وكذلك حجج القرآن.

الوصف الرابع: أنه لا يتطرقه الباطل، ولا يخالطه صريحه ولا ضمنيه، أي: لا يشتمل على الباطل بحال. فمثَّل ذلك بـ ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ والمقصود استيعاب الجهات، تمثيلًا لحال انتفاء الباطل عنه في ظاهره وفي تأويله بحال طرد المهاجم ليضر بشخص يأتيه من بين يديه، فإنْ صَدَّهُ خَاتَلَهُ فأتاه من خلفه؛ فمعنى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ لا يوجد فيه ولا يداخله، وليس المراد أنه لا يُدْعَى عليه الْبَاطِلُ.

الوصف الخامس: أنه مشتمل على الحكمة، وهي المعرفة الحقيقية؛ لأنه تنزيل من حكيم، ولا يصدر عن الحكيم إلا الحكمة.

الوصف السادس: أنه تنزيل من حميد، والحميد هو مستحق الحمد الكثير، فالكلام المنزل منه يستحق الحمد، وإنما يُحْمَد الكلام إذ يكون دليلًا للخيرات وسائقًا إليها، لا مطعن في لفظه ولا في معناه، فيحمده سامعه كثيرًا؛ لأنه يجده مجلبة للخير الكثير، ويحمد قائله لا محالة؛ خلافًا للمشركين.

وفي إجراء هذه الأوصاف إيماء إلى حماقة الذين كفروا بهذا القرآن وسفاهة آرائهم إذ فرَّطوا فيه، ففرَّطوا في أسباب فوزهم في الدنيا وفي الآخرة"[1].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٣٠٩) مختصرًا.

وفي هذه الآية ردٌّ على قولهم في أول السورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾[فصلت:٢٦] فجاء الجواب هنا أن القرآن عزيز لا يُغْلَب.

من دلالات وصف القرآن بـ (العزيز):

- صيانة القرآن وحفظه، وعدم تطرق التحريف أو التبديل إليه، وهذا الوصف من أقوى الأدلة على حفظ المولى ﷻ للقرآن.

- أنه لا بد من تطهير النفس والقلب لمن أراد أن يحظى بفهم القرآن وحفظه وتثبيته في صدره، فإن الكتاب العزيز لا يستقر في مكان يجتمع فيه مع قذارات المعاصي والذنوب والسيئات.

- أنه لا بد من الإكثار من تلاوة القرآن ومراجعته حتى لا يتفلت من قلب الحافظ له؛ فإن إهمال القرآن سبب لذهابه، فهو كتاب عزيز، والعزيز لا بد من إكرامه والحفاوة به حتى يقبل الضيافة.

- أن العزيز عزيز كاسمه، فهو الذي يُطْلَب، ويُسْعى إليه، وتبذل لأجله الأوقات والأموال.

❁ ❁ ❁



الوصف الرابع
العلي

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الزخرف:٤].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف في القرآن مرة واحدة في هذه الآية.

وهذا الأصل اللغوي (علي) يدل على السمو، والعلو والارتفاع[١].

سبب وصف القرآن بـ(العلي):

وصف القرآن بـ(العلي)؛ لأنه رفيع القدر بين الكتب، ولكونه عاليًا عن وجوه الفساد والبطلان[٢].

بيان الآية:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الزخرف:٤].

﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي: القرآن.

﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: اللوح المحفوظ.

﴿لَدَيْنَا ﴾ أي: عندنا.

﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة، وشرف، وفضل.

﴿حَكِيمٌ ﴾ أي: محكَم، بريء من اللبس والزيغ[٣]، فلا يمكن لأحد

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ١١٢).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٨/ ٣٩)، تفسير الرازي (٢٧/ ٦١٨).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢١٨).

كائنًا من كان أن ينال من هذا القرآن المحكم العلي بحذف أو زيادة أو استنقاص لمكانته، فهل أدرك من استهان بالقرآن العزيز العلي الحكيم هذه المعاني التي وصف الله تعالى بها كتابه؟

ووصَف الله تعالى كتابه بهذا الوصف في معرض القَسَم، فالله تعالى أقسم بكتابه الموصوف بالبيان والوضوح، وهذا مستقر عند المخاطَبين به، وهم فصحاء العرب وبلغاؤهم، ثم كان المقسَم عليه عربيةَ القرآنِ ومكانتَه وشرفه عند الله تعالى التي ينكرونها عنادًا، فبيّن لهم هذه المكانة العظيمة أنه مثبت في أصل كل الكتب السماوية، وهو اللوح المحفوظ، وهو عند الله تعالى عالٍ على كل الكتب السماوية، عالٍ عن وجوه الفساد والبطلان، ذو حكمة بالغة، راسخ في هذين الوصفين(١). وهذه المكانة ينالها من قام بهذا الكتاب، فهو طريق العلو في الدرجات عند الله، وطريق الفصاحة والبلاغة لطالبيها.

هذا الاقتران بين الوصفين (العلي الحكيم) في قوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الزخرف:٤]، له دلالات كثيرة؛ فإن القرآن مع علوه، ورفعة منزلته وقدره وشرفه هو (حكيم) أيضًا، فهي تزكية للقرآن من كل الجوانب (تزكية للمضمون)؛ فهو عليّ بذاته، علي بمحتواه من أخبار وقصص وأمرٍ ونهي، وقبل هذا كله محتواه من بيان عظمة الخالق ﷻ، ودعوة الخلق لتوحيد الخالق ﷻ، وأنه هو رب العالمين، المستحق للثناء وحده ﷻ.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٧/ ٦١٨)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٧/ ٣٨٠-٣٨١).

وعندما تتأمل القرآن الكريم بصفاته كلها، يعطيك شعورًا بأن القرآن كائن حي، هو بذاته منبع حياة، ولذا وصفه الله ﷻ بأنه نور، ووصفه الله بأنه روح، ووصفه الله بأنه مهيمن، ووصفه الله بأنه حكيم، ووصفه الله بأوصاف كثيرة تبين عظمة هذا القرآن، وتأثيره على العقل البشري، وعلى النفس البشرية، لترتقي بهذا القرآن وتتزكى به، فتصبح في أعلى المقامات.

من دلالات وصف القرآن بـ (العلي):

- أنه لا بد من تقديم القرآن على كل رأي وفكر ومذهب وذوق وفلسفة وعقل، فإن القرآن يعلو على كل شيء، ولا شيء يعلو عليه.

- أنه لا بد من كثرة التأمل والنظر في أدلة القرآن وحججه وبراهينه، والاستناد إليها عند جدال أهل الباطل من سائر المذاهب والملل، فإن القرآن يعلو بحجته على حجج المبطلين مهما كانوا، ومن اعتمد على القرآن في محاجّته فلا شك أنه سيعلو على خصومه.

- في سورة التين، بين الله ﷻ بأنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم بيّن الله ﷻ الانتكاسة التي تحصل لبعض البشر؛ فهذا القرآن يخاطب النفس البشرية، ويرتقي بها عن سفاسف الأمور، لتتفق هذه النفس مع الفطرة الربانية، والله هو الذي خلقها وهو أعلم بها ﷻ، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾[الملك:١٤].

فمقام القرآن العلي يرتفع بالإنسان إلى العلو الإيماني والأخلاقي، ومن أبى إلا البقاء في الدون فاته الكثير من معاني القرآن وحقائقه وأسراره.







الوصف الخامس
المهيمن

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤٨].

معنى الوصف:

ورد هذا الوصف في موضع واحد من القرآن، وهو الآية المذكورة.

المهيمن: الرقيب على الشيء والشاهد[١].

وقد جاء في معنى هذا الوصف عدة أقوال ترجع إلى أن هذا القرآن أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله[٢].

سبب وصف القرآن بـ(المهيمن):

وصِف القرآن بـ(المهيمن) لأنه بيّن حقيقة حال الكتب السابقة في أصل إنزالها، وما كان من شأن من خوطبوا بها، من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقي منها وتأويله، والإعراض عن الحُكم والعمل بها[٣].

وقد جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخرَ الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها؛ حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من

---

(١) ينظر: لسان العرب (١٣/ ٤٣٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٨).

(٣) ينظر: تفسير المنار (٦/ ٣٤٠).

الكمالات ما ليس في غيره[(١)].

جعل الله ﷻ النسخ في القرآن في آيات معدودة، وذلك لحكم مختلفة ومتعددة منها: تربية الأمة وتزكيتها وترقيتها بما يصلحها، والتدرج في التشريع والأحكام، فينتقل من الأسهل إلى الصعب، فيهون على النفوس الاستجابة للحكم وتقبله، وقد يكون النسخ للتخفيف والتيسير منه سبحانه وتعالى، وهذا النسخ المحدود يتضمن إشارة لطيفة إلى النسخ الكبير الذي هو نسخ الكتب السابقة والرسالات السابقة، فإن محمدًا ﷺ خاتم النبيين، والقرآن الكريم خاتم الكتب، وهو مهيمن عليها، فهذا الكتاب الكريم نزل بالحق، وهو مصدِّق لما سبقه من الكتب ومهيمن عليها؛ فهو إذن المرجع الخاتم والأخير لمنهج حياة البشر ونظام حياتهم، يجب أن يُرَدَّ إليه كل اختلاف؛ سواء كان هذا الاختلاف بين أصحاب الديانات السماوية السابقة له، أو بين هذه الأمة نفسها، فلا قيمة للآراء إن لم تسند إليه، وكل من قلل من شأن القرآن ولم يقر بحفظ الله له، فقد خالف تلك الآيات الصريحة.

وكونه آخر الكتب السماوية وهو المهيمن، معناه أنه محفوظ بحفظ الله ﷻ؛ لأنه لا يمكن الاعتماد والاستدلال بكتاب يتطرق إليه الشك بادّعاء الزيادة أو النقص فيه[(٢)]؛ ولذا أوكل الله حفظه إلى نفسه. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾[الحجر:٩]، بينما أوكل الله حفظ الكتب السابقة إلى أهلها. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٨).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (١٢/ ٣٧١).

كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ ﴾[المائدة:٤٤].

بيان الآية:

قـــال تعـــالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ ﴾[المائدة:٤٨].

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: أنزلنا إليك يا محمد القرآن بالصِّدْق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله(١).

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: أنزلناه بتصديق ما قبله من الكتب المتقدمة، المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقًا عند حامليها من ذوي البصائر(٢).

﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ ﴾ أي: ورقيبًا على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات(٣).

قال السعدي ﷬: "أي: مشتملًا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة وزيادة؛ في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية، فهو الكتاب الذي تتبَّع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم

(١) ينظر: تفسير الطبري (٨/ ٤٨٦)، تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٧).
(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري (١/ ٦٤٠).

والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله لم يخالفه"[١].

من دلالات وصف القرآن بـ (المهيمن):

- أن القرآن هو الميزان الذي توزن به الكتب السابقة، فما كان منها موافقًا له قبلناه، وما كان منها مخالفًا له فهو مردود، وهذا يساعد على تمييز الحق من الباطل في هذه الكتب، خاصة فيما يتعلق بالعقائد والأخبار.

- أنه إذا كان القرآن حاكمًا على الكتب السابقة وبه توزن -وهي كتب في أصلها سماوية- فمن باب أولى أن يكون حاكمًا على الكتب البشرية كلها، فما وافق منها القرآن فهو حق، وما خالفه فهو باطل.

- أنه ينبغي أن يدرك المؤمن بأن شرائع الإسلام المعتمدة على القرآن والسنة هي من عند الله ﷻ، وهي موافقة للفطرة، وفيها إصلاح للمجتمعات، فلا بد من العمل بها في سائر شؤون الحياة، وينبغي أن يعتقد المؤمن اعتقادًا جازمًا بأن هذا القرآن وما صح من السنة المطهرة فيهما الحكمة، وأن ما خالفهما من القوانين الوضعية والقيم البشرية فهو باطل مردود، ولو اتفق أهل الأرض جميعًا عليه؛ لأن الحكمة في القرآن والسنة، أما ما بقي من المصالح المرسلة ولم يخالف الكتاب والسنة، فإن هذا مما قرره علماء الأمة في كتب أصول الفقه، ولا حرج في الأخذ به والعمل به.



---

(١) تفسير السعدي (ص:٢٣٤).

فصـــل
آداب قراءة القرآن في القرآن

من المقاصد المهمة التي أنزل الله القرآن لأجلها: تلاوة القرآن وقراءته، ولأهمية هذا الأمر فقد جاء العديد من الآيات لبيان كيفية تلاوة القرآن وقراءته على الوجه الصحيح الذي يحصل به التدبر والاعتبار بالقرآن، ويكون لتلاوته الأثر الأعظم على القلوب والعقول، ومن هذه الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾[الأعراف:٢٠٤].

قال ابن الجوزي رحمه الله: "اختلفوا في نزولها على خمسة أقوال:

أحدها: أن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة المكتوبة، فقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

والثاني: أن المشركين كانوا يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى، فيقول بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن المسيب.

والثالث: أن فتىً من الأنصار كان كلما قرأ النبي ﷺ شيئًا، قرأ هو، فنزلت هذه الآية، قاله الزهري.

والرابع: أنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم أول ما فرضت، فيجيء الرجل فيقول لصاحبه: كم صليتم؟ فيقول: كذا وكذا، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة.

والخامس: أنها نزلت تأمر بالإنصات للإمام في الخطبة يوم الجمعة، روي

عن عائشة، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومجاهد، وعمرو بن دينار في آخرين"[١].

"والآية تدل على وجوب الاستماع والإنصات للقرآن إذا قُرِىء، سواء أكان ذلك في الصلاة أو في خارجها، وهو المروي عن الحسن البصري، لكن الجمهور خصوه بقراءة الرسول ﷺ في عهده، وبقراءة الصلاة، والخطبة من بعده، ذلك أن إيجاب الاستماع والإنصات في غير الصلاة والخطبة فيه حرج عظيم، إذ يقتضي أن يترك له المشتغل بالعلم علمه، والمشتغل بالحكم حكمه، وكل ذي عمل عمله.

أما قراءة النبي ﷺ فكان بعضها تبليغًا للتنزيل، وبعضها وعظًا وإرشادًا، فلا يسع أحدًا من المسلمين يسمعه وهو يقرأ أن يعرض عن الاستماع، أو يتكلّم بما يشغله، أو يشغل غيره عنه، وهكذا شأن المصلي مع إمامه وخطيبه، إذ هذا هو المقصود من الصلاة، والواجب فيها.

والواجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته، كما يحرص على تلاوته، وأن يتأدب في مجلس التلاوة، والضابط في ذلك: أن لا يصدر من السامع ما يُعدّ في اعتقاده أو في عرف الناس أنه مناف للأدب"[٢].

وقال السعدي رحمه الله: "وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه، ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ١٨٣).

(٢) حدائق الروح والريحان (١٠/ ٣٠٣-٣٠٤).

فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات أولى من قراءته الفاتحة وغيرها"[(١)].

وقال ابن عاشور رحمه الله: "والاستماع: الإصغاء، وصيغة الافتعال دالة على المبالغة في الفعل، والإنصات: الاستماع مع ترك الكلام، ويجوز أن يكون الاستماع مستعملًا في معناه المجازي، وهو الامتثال للعمل بما فيه، ويكون الإنصات جامعًا لمعنى الإصغاء وترك اللغو.

وهذا الخطاب شامل للكفار على وجه التبليغ، وللمسلمين على وجه الإرشاد؛ لأنهم أرجى للانتفاع بهديه؛ لأن قبله قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول ﷺ المفضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه، فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين.

---

(١) تفسير السعدي (ص:٣١٤).

فهذه الآية مجملة في معنى الاستماع والإنصات، وفي مقتضى الأمر من قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾، يبين بعض إجمالها سياق الكلام والحمل على ما يفسر سببها من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾، ويحال بيان مجملها فيما زاد على ذلك على أدلة أخرى"[1].

خلاصة كلام أهل العلم في الإنصات والاستماع للقرآن:

إن كان الإنصات والاستماع للقرآن في الصلاة والخطبة فإن الإنصات واجب ولا خلاف فيه، وهو محل إجماع كما حكى ذلك ابن المنذر رحمه الله[2].

وأما خارج الصلاة فقد اختلف الفقهاء رحمهم الله في ذلك على أقوال، فبعض الحنفية ومن وافقهم يرون وجوب الإنصات للقرآن مطلقًا؛ لأن العبرة بعموم اللفظ[3]، واختاره سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله، ويلزم منه عدم جواز الخوض في حديث غير القرآن ما دام المستمع عند القارئ؛ لأن الإنصات من تعظيم القرآن والتأدب معه[4]، ويرى جمهور أهل العلم أن الاستماع للقرآن خارج الصلاة على الندب والاستحباب، وأن الأمر بالآية محمول على وجوب الإنصات حال الصلاة، ولأن إيجاب الإنصات قد يكون فيه مشقة وحرج على القائمين بأعمال تحتاج إلى يقظة وعدم انشغال، واختار هذا القول ابن كثير رحمه الله من أئمة الشافعية وذكر أنه قول جماعة من

---

(١) التحرير والتنوير (٩/ ٢٣٩) مختصرًا.

(٢) ينظر: الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (٣/ ١٠٥).

(٣) الدر المختار (١/ ٥٤٦).

(٤) فتاوى نور على الدرب، الحلقة (٥٦٣).

الصحابة ﭫ، وجماعة من التابعين وأئمة العلم، وأنه اختيار ابن جرير ﭬ[(١)]، واختاره الشيخ ابن عثيمين ﭬ[(٢)].

واختيار الندب والاستحباب المراد منه كما قال الفقهاء رحمهم الله تعالى رفع الحرج وتخفيف المشقة، وإلا فيبقى الأصل في حياة المسلم هو الإنصات للقرآن والتأدب معه وتعظيمه، وعدم اللغط أثناء سماعه، قال النووي ﭬ: ومما يُعْتنى به ويتأكد الأمر به: احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئين مجتمعين، فمن ذلك: اجتناب الضحك واللغط والحديث في خلال القراءة، إلا كلامًا يضطر إليه، وليمتثل قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٤][(٣)].

وقد عمت - والله الحمد والمنة - سماع التسجيلات القرآنية في القنوات الفضائية والإذاعات السماعية وعلى الأجهزة الذكية والحكم فيه كسابقه.

٢- قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

قال ابن كثير ﭬ: "هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ، إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهو أمر ندب

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨٣)، الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٣١٧) تبين الحقائق شرح كنز الدقائق (١/ ٣٣٢)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٤/ ٨٥-٨٦).

(٢) ينظر: لقاءات الباب المفتوح، لقاء رقم: (١٩٧)، السؤال رقم: (٢٦).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص:٩٢).

ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك الإمام أبو جعفر ابن جرير وغيره من الأئمة.

والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة؛ لئلا يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، وحكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني: أنها تكون بعد التلاوة، واحتجا بهذه الآية. ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضًا، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النخعي.

والصحيح الأول؛ لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدّمها على التلاوة، والله أعلم"(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء:١١٠].

قال السعدي ﵀: "﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: قراءتك.

﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فإن في كل من الأمرين محذورًا؛ أما الجهر، فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه سبّوه، وسبّوا من جاء به.

وأما المخافتة، فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين الجهر والإخفات.

﴿سَبِيلًا﴾ أي: تتوسط فيما بينهما"(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٣).

(٢) تفسير السعدي (ص:٤٦٨).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: «نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبّوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسْمِعهم، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾»(١).

وكان النبي يأمر بالتوسط بين الجهر والإخفات في صلاة الليل، فعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج ليلة فإذا هو بأبي بكر رضي الله عنه يصلي يخفض من صوته، قال: ومر بعمر رضي الله عنه وهو يصلي رافعًا صوته قال: فلما اجتمعا عند النبي ﷺ قال: يا أبا بكر مررت بك وأنت تصلي تخفض صوتك؟ قال: قد أسمعت من ناجيت يا رسول الله، قال: فارفع قليلًا، وقال لعمر: مررت بك وأنت تصلي رافعًا صوتك؟ فقال: يا رسول الله: أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان، قال: اخفض من صوتك شيئًا»(٢).

خلاصة كلام أهل العلم في الجهر والإخفات بقراءة القرآن:

ويسن الجهر للمنفرد في صلاة الليل، وهو مذهب المالكية وبعض الشافعية(٣)، وقال الحنفية: يخير بين الجهر والإسرار(٤)، وقال الحنابلة

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٨٧) برقم: (٤٧٢٢)، ومسلم (١/ ٣٢٩) برقم: (٤٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٧) برقم: (١٣٢٩)، والترمذي (٢/ ٣٠٩-٣١٠) برقم: (٤٤٧).

(٣) المجموع شرح المهذب (٣/ ٣٩١)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٦/ ١٨٩).

(٤) مجمع الأنهر (١/ ١٠٠).

يراعي المصلحة، فإن كان الجهر ينتفع به من بجواره فيجهر، وإن كان يؤذي من بجواره فالإسرار(١)، وقال بعض الشافعية: يتوسط بين الجهر والإسرار(٢)، والأفضل الجهر، مع كونه مخيرًا في ذلك، ومراعاة المصلحة مطلوبة، قال سماحة الشيخ ابن باز ﷺ: السنة في صلاة الليل الجهر بالقراءة سواء كان المصلي يصلي وحده أو معه غيره، ومن كان يصلي وحده فهو مخير بين الجهر والإسرار، والمشروع له أن يفعل ما هو أصلح لقلبه(٣).

وأما الإمام في صلاة الليل فإنه يجهر بقدر ما يُسمِع المأمومين، ولا يرفع فوق ذلك حتى لا يشوش على أحد من مصلٍّ أو نائم.

قال سماحة الشيخ ابن باز ﷺ: ودلت الأحاديث على أن الجهر بالقراءة في صلاة الليل أفضل، ولأن ذلك أخشع للقلب وأنفع للمستمعين؛ إلا أن يكون حوله مرضى أو نوام أو مصلون أو قراء، فالأفضل خفض الصوت على وجه لا يترتب عليه إشغال المصلين والقراء، وإيقاظ النائمين، وإزعاج المرضى(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾[السجدة:١٥]، وبقية آيات السجدات.

---

(١) كشاف القناع (١/ ٣٤٤).

(٢) روضة الطالبين (١/ ٢٤٨).

(٣) مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز (١١/ ١٢٣).

(٤) مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز (١١/ ١٢٣).

قال القرطبي ﷺ: "إنما يؤمن بك وبالقرآن المتدبرون له والمتعظون به، وهم الذين إذا قرئ عليهم القرآن ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: خروا سجدًا لله تعالى على وجوههم؛ تعظيمًا لآياته، وخوفًا من سطوته وعذابه.

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: خلطوا التسبيح بالحمد، أي: نزهوه وحمدوه، فقالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، سبحان ربي الأعلى وبحمده، أي: تنزيهًا لله تعالى عن قول المشركين.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾ عن عبادته، قاله يحيى بن سلام"(١).

وهذا أحد مواضع السجدات في القرآن، ومن آداب التلاوة: السجود في هذه المواضع، قال النووي ﷺ عن سجود التلاوة: "وهو مما يتأكد الاعتناء به؛ فقد أجمع العلماء على الأمر بسجود التلاوة، واختلفوا في أنه أمر استحباب أم إيجاب، فقال الجماهير: ليس بواجب بل مستحب، وهذا قول عمر بن الخطاب ﷺ، وابن عباس، وعمران بن حصين، ومالك، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبي ثور، وداود وغيرهم.

وقال أبو حنيفة ﷺ: هو واجب، واحتج بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾.

واحتج الجمهور بما صح عن عمر بن الخطاب ﷺ "أنه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النمل، حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها، حتى إذا جاء السجدة، قال: يا أيها

---

(١) تفسير القرطبي (١٤/ ٩٩) مختصرًا.

الناس! إنما نمر بالسجود؛ فمن سجد فقد أصاب، ومن لم يسجد فلا إثم عليه، ولم يسجد عمر" رواه البخاري(١)، وهذا الفعل والقول من عمر رضي الله عنه في هذا المجمع دليل ظاهر.

وأما الجواب عن الآية التي احتج بها أبو حنيفة رحمه الله فظاهر؛ لأن المراد ذمهم على ترك السجود تكذيبًا، كما قال تعالى بعده: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢﴾، وثبت في الصحيحين عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: «أنه قرأ على النبي ﷺ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ فلم يسجد»(٢)، وثبت في الصحيحين: «أنه ﷺ سجد في النجم»(٣)، فدل على أنه ليس بواجب"(٤).

٥- قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾[الواقعة:٧٩].

قال ابن الجوزي رحمه الله: "قوله ﷻ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ مَن قال: إنه اللوح المحفوظ، فالمطهرون عنده: الملائكة، وهذا قول ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد وسعيد بن جبير، فعلى هذا يكون الكلام خبراً.

ومَن قال: هو المصحف، ففي المطهرين أربعة أقوال:

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٤٢) برقم: (١٠٧٧) من حديث ربيعة بن عبد الله بن الهدير التيمي.

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٤١) برقم: (١٠٧٣) ومسلم (١/ ٤٠٦) برقم: (٥٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٤١) برقم: (١٠٧٣) ومسلم (١/ ٤٠٥) برقم: (٥٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن (ص:١٣٥-١٣٦).

أحدها: أنهم المطهرون من الأحداث، قاله الجمهور، فيكون ظاهر الكلام النفي، ومعناه النهي.

والثاني: المطهرون من الشرك، قاله ابن السائب.

والثالث: المطهرون من الذنوب والخطايا، قاله الربيع بن أنس.

والرابع: أن معنى الكلام: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به، حكاه الفراء"[(١)].

وقال ابن كثير رحمه الله: "وقال آخرون: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ أي: من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن هاهنا المصحف، كما روى مسلم رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو»[(٢)]، واحتجوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في موطئه، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «ألا يمس القرآن إلا طاهر»[(٣)]، وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٩١) برقم: (١٨٦٩).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ رواية أبي مصعب الزهري (١/ ٩٠) برقم: (٢٣٤) والحديث صححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١/ ١٥٨) برقم: (١٢٢).

ابن حزم: أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يمس القرآن إلا طاهر»[١]، وهذه وجادة جيدة، قد قرأها الزهري وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به"[٢].

قال السعدي رحمه الله: " ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات، والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلت الآية بتنبيهها على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل: إن الآية خبر بمعنى النهي أي: لا يمس القرآن إلا طاهر"[٣].

وقد اختلف الفقهاء في حكم مس المصحف بدون طهارة، بين الجواز وعدمه، ومذهب الجمهور منهم أنه لا يجوز مس المصحف إلا بطهارة، وهو مذهب الأئمة الأربعة[٤].

قال الشيخ ابن باز رحمه الله: لا يجوز مس المصحف للمسلم إلا على طهارة من الحدثين الأكبر والأصغر، على الصحيح الذي عليه جمهور أهل العلم[٥].

وأما كتب التفسير وغيرها المشتملة على آيات القرآن ففي جواز مسها للمحدِث أقوال:

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (ص:١٢٢) برقم: (٩٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٥٤٥).

(٣) تفسير السعدي (ص:٨٣٦).

(٤) ينظر: الإحكام شرح أصول الأحكام (١/ ٧٩).

(٥) ينظر: مجموع فتاوى الشيخ ابن باز (١١/ ١٤٩-١٥٠).

الأول: جواز ذلك، وأن النهي إنما ورد في مس المصحف، فلا يلحق به غيره إلا بدليل(١)، ومثله ما يتم تلخيصه أو كتابته للصغار من أجل الحفظ؛ فإنه لا يطلق عليه اسم المصحف، وجوز الكثير مس المصحف للصغير للدراسة والحفظ(٢).

الثاني: يحرم مس كتب العلم المشتملة على القرآن للمحدث(٣)، والثالث: يحرم مس كتب التفسير خاصة(٤)، واشترط بعضهم أن يكون التفسير أكثر من القرآن، فإن كان القرآن أكثر فإن لها حكم المصحف(٥)، كالمصاحف التي يكون في حواشيها معاني المفردات ونحو ذلك.

والذي يظهر أن الراجح جواز مس كتب العلم المشتملة على القرآن تفسيرًا كانت أو غيرها إذا كان التفسير هو الغالب(٦)؛ لعدم النص الموجب وما يترتب على ذلك من المشقة، مع مراعاة الأخذ بالأحوط والأفضل لمن يستطيع ذلك خروجًا من الخلاف وتعظيمًا للقرآن في كل حال من الأحوال.

٦- قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾[المزمل:٤].

قال الرازي ﵀: "قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ قال الزجاج: بيِّنه

(١) ينظر: روضة الطالبين (١/ ٨٠)، الإنصاف (١/ ٢٢٥).

(٢) ينظر: روضة الطالبين (١/ ٨٠)، المهذب (١/ ٥٤).

(٣) ينظر: المهذب (١/ ٥٤)، الإنصاف (١/ ٢٢٥).

(٤) ينظر: الإنصاف (١/ ٢٢٥).

(٥) ينظر: المجموع (٢/ ٦٩)، روضة الطالبين (١/ ٨٠).

(٦) ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (١٧/ ١٢٧).

تبيينًا، والتبيين لا يتم بأن يعجل في القرآن، إنما يتم بأن يتبيّن جميع الحروف، ويوفّي حقها من الإشباع، قال المبرد: أصله من قولهم: ثغر رتل إذا كان بين الثنايا افتراق ليس بالكثير، وقال الليث: الترتيل تنسيق الشيء، وثغر رتل، حسن التنضيد، ورتلت الكلام ترتيلًا، إذا تمهلت فيه وأحسنت تأليفه، وقوله تعالى: ﴿تَرۡتِيلًا﴾ تأكيد في إيجاب الأمر به، وأنه مما لا بد منه للقارئ.

واعلم أنه تعالى لما أمره بصلاة الليل أمره بترتيل القرآن؛ حتى يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق تلك الآيات ودقائقها، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلالته، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف، وحينئذ يستنير القلب بنور معرفة الله، والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني؛ لأن النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية، ومن ابتهج بشيء أحب ذكره، ومن أحب شيئًا لم يمر عليه بسرعة، فظهر أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب وكمال المعرفة"(١).

وقال القرطبي ﵀: " قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني. وقال الضحاك: اقرأه حرفًا حرفًا، وقال مجاهد: أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه.

والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام، وروى الحسن أن النبي ﷺ مر برجل يقرأ آية ويبكي، فقال: «ألم تسمعوا إلى قول الله ﷿: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ٦٨٣) مختصرًا.

تَرۡتِيلًا﴾ هذا الترتيل»[١]. وسمع علقمة رجلًا يقرأ قراءة حسنة فقال: لقد رتل القرآن، فداه أبي وأمي[٢]، وقال أبو بكر بن طاهر: تدبّر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه.

وروى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة، فيوقف في أول درج الجنة ويقال له: اقرأ وارتق ورتل؛ كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها». خرجه أبو داود[٣].

وروى أنس: «أن النبي ﷺ كان يمد صوته بالقراءة مدًّا»[٤]"[٥].

وقال النووي رحمه الله: "وقد اتفق العلماء رضي الله عنهم على استحباب

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٢٦) برقم: (٣٥٥٤٣) بلفظ: «مر رجل من أصحاب النبي ﷺ على رجل يقرأ آية ويبكي ويرددها، قال: فقال: " ألم تسمعوا إلى قول الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾[المزمل:٤]، قال: هذا الترتيل».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٤٠) برقم: (٣٠١٥٢) والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٤٠) برقم: (٨٦٩٥) بلفظ: «عن علقمة، قال: قرأت على عبد الله، فقال: رتل، فداك أبي وأمي، فإنه زين القرآن». قال في سلسلة الآثار الصحيحة أو الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين (١/ ١٤٩) برقم: (١٤١): (إسناده صحيح).

(٣) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٣) برقم: (١٤٦٤) سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٧٧) برقم: (٢٩١٤) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه النسائي (٢/ ١٧٩) برقم: (١٠١٤)، وابن ماجه (١/ ٤٣٠) برقم: (١٣٥٣)، وصححه الألباني.

(٥) تفسير القرطبي (١٩/ ٣٨) مختصرًا.

الترتيل. قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾، وثبت عن أم سلمة رضي الله عنها أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ: «قراءة مفسرة حرفًا حرفًا». رواه أبو داود والنسائي والترمذي[(١)]، قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وعن معاوية بن قرة رضي الله عنه عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح يرجّع في قراءته». رواه البخاري ومسلم[(٢)]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله"[(٣)]. وعن مجاهد أنه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر البقرة وحدها، وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما واحد سواء، فقال: "الذي قرأ البقرة وحدها أفضل"[(٤)]"[(٥)].

وتلاوة القرآن عبادة بحد ذاتها ولها فضل عظيم، وأجر كبير، وقد أتت بذلك الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة؛ كيف لا، وهو كلام الله سبحانه وتعالى، ودستور الأمة، وكتاب هداية ورحمة للعالمين، ولهذا أمر الله عباده

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٣) برقم: (١٤٦٦)، والنسائي (٢/ ١٨١) برقم: (١٠٢٢)، والترمذي (٥/ ١٨٢) برقم: (٢٩٢٣)، وقال: (حسن صحيح غريب)، وضعفه الألباني، وصححه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٨٨) برقم: (١١٥٨)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/ ٤٥٣) برقم: (١١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ١٤٧) برقم: (٤٢٨١)، ومسلم (١/ ٥٤٧) برقم: (٧٩٤)، والترجيع هو ترديد القارئ الحرف من الحلق. ينظر: فتح الباري لابن حجر (٨/ ١٤).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٧٩) برقم: (٢٤٣٠).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٢٥٦) برقم: (٨٧٣٥).

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص:٨٩).

أن يتفكروا فيه وأن يتدبروا معانيه وكلماته، ووعدهم بالثواب العظيم، ورفع مقامهم في الدنيا والآخرة.

وقد ذكر العلماء المتخصصون في فن القراءات أن القرآن يتلى بمراتب أربع هي: التحقيق والترتيل والتدوير والحدر[١]، وكلها يدخلها الترتيل والتجويد، وإعطاء الحرف حقه من الصفات والأحكام والمخارج، قال ابن الجزري رحمه الله: فإن كتاب الله تعالى يقرأ بالتحقيق وبالحدر وبالتدوير الذي هو التوسط بين الحالتين مرتلاً مجوداً بلحون العرب وأصواتها وتحسين اللفظ والصوت بحسب الاستطاعة[٢].

ولكل مرتبة من مراتب التلاوة ضوابط وأهداف وحدود، سأقتصر على أعلاها وأدناها، فالهدف من التلاوة بالتحقيق: التعليم والتفهم وتدبر المعاني والأحكام، ويتجنب معها التنطع والتشدد في النطق، كما يتجنب تلحين القرآن بأصوات تشبه الغناء ونحوه.

والهدف من الحدر الاستذكار والمدارسة، وكثرة الحسنات، ولكن يكون ذلك بإقامة الحروف وعدم تضييعها أو تضييع صفاتها، ويكون فيها مراعاة أحكام التجويد من إظهار وإدغام وقصر ومد ووقف ووصل، ويحترز فيه عن بتر حروف المد وذهاب صوت الغنة واختلاس أكثر الحركات، وعن التفريط إلى غاية لا تصح بها القراءة، ولا توصف بها التلاوة[٣].



(١) ينظر: نهاية القول المفيد في علم التجويد (ص:١٧).

(٢) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٠٥).

(٣) ينظر: نهاية القول المفيد في علم التجويد (ص:١٨).

مسك الختام
عظمة القرآن (المعجزة الخالدة)

قال الله ﷻ في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾[العنكبوت:٥١]..

بلى سبحانك يا رب! كيف لا، وهذا الكتاب هو كلام الله ﷻ؟!

كيف لا، وهو القرآن العظيم؟! ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾[الحجر:٨٧].

كيف لا، وهو الكتاب؟! ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة:٢].

كيف لا، وهو الآيات؟! ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾[البقرة:٩٩].

كيف لا، وهو الوحي؟! ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٤].

كيف لا، وهو الحق؟! ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾[الإسراء:١٠٥].

كيف لا، وهو الحكيم؟! ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾[يونس:١].

كيف لا، وهو العلم؟! ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾[آل عمران:٦١].

كيف لا، وهو البصائر؟! ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا

أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾[الأعراف:٢٠٣].

كيف لا، وهو النبأ؟! ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾[النبأ:١-٢].

كيف لا، وهو الهدى؟! ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾[البقرة:١٨٥].

كيف لا، وهو الذكر؟! ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾[يوسف:١٠٤].

كيف لا، وهو التذكرة؟! ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾﴾[المدثر:٥٤].

كيف لا، وهو الفرقان؟! ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[الفرقان:١].

كيف لا، وهو الموعظة؟! ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[آل عمران:١٣٨].

كيف لا، وهو النور؟! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾﴾[النساء:١٧٤].

كيف لا، وهو الروح؟! ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾[الشورى:٥٢].

كيف لا، وهو المبين؟! ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾﴾[يوسف:١].

كيف لا، وهو العربي؟! ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾﴾[يوسف:٢].

كيف لا، وهو كلام الله؟! ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ

﴿يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾[التوبة:٦].

كيف لا، وهو المفصل؟! ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ﴾[الأنعام:١١٤].

كيف لا، وهو الحديث، والمتشابه، والمثاني؟! ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[الزمر:٢٣].

كيف لا، وهو القول؟! ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾[المزمل:٥].

كيف لا، وهو البلاغ؟! ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾[إبراهيم:٥٢].

كيف لا، وهو القصص؟! ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾[النمل:٧٦].

كيف لا، وهو الرحمة؟! ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾[الأعراف:٥٢].

كيف لا، وهو البشير، والنذير؟! ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾[فصلت:٣-٤].

كيف لا، وهو المبارك؟! ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص:٢٩].

كيف لا، وهو الشفاء؟! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[يونس:٥٧].

كيف لا، وهو الكريم؟! ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾[الواقعة:٧٧].

كيف لا، وهو الخير؟! ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النحل:٣٠].

كيف لا، وهو المجيد؟! ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾[ق:١].

كيف لا، وهو العزيز؟! ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ ﴾[فصلت:٤١].

كيف لا، وهو العلي؟! ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف:٤].

كيف لا، وهو المصدق لما سبقه من الكتب، والمهيمن عليها؟! ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾[المائدة:٤٨].

تأمل عظمة القرآن تجدها عظمة لا تنحصر، سواء في مجادلة الكافرين والدعوة إلى الله، أو في تزكية النفوس، أو في طلب العلم، أو في التشافي به، أو في طلب الهداية والبركة.

وتأمل أخي في قوله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم»(١)، ودعوة إبراهيم في قوله ﷻ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ ﴾[البقرة:١٢٩].. فكانت دعوته ربَّه أن يبعث في ذريته من يتلو عليهم القرآن!

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٩) برقم: (١٧١٥٠) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وقال الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٩/ ١٦٦): (صحيح لغيره).

ثم بيَّن الله ﷻ أنه استجاب هذه الدعوة بقوله ﷻ: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [البقرة:١٥١].

وقد بين الله ﷻ نجاح هذا النبي الأمي ﷺ فيما أمر به ومن ذلك: تلاوة القرآن، بقوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾[آل عمران:١٦٤]، فقوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، أي أن النبي ﷺ نجح في ذلك؛ فآمن معه رجال منَّ الله عليهم بالإيمان، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وقال: (لقد) تحقيقًا بأن الأمر قد حصل.

ثم ذكر الله ﷻ في الموضع الرابع لطفه وبشارته لنا، فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢﴾[الجمعة:٢]، ثم قال سبحانه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾[الجمعة:٣]، وهذه باقية على مر العصور، من بعد الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلعلنا ندخل مع الآخَرين الذين لم يلحقوا بهم.

فتأمل أخي الكريم الآيات الأربع التي فيها بيان وظيفة النبي ﷺ التي هي التزكية وتعليم الكتاب والحكمة، وكلها جاءت بعد الأمر بتلاوة القرآن ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1].

---

(١) وللمزيد يمكن الرجوع إلى كتابي: ثناء المولى سبحانه وتعالى على أصحاب نبيه ﷺ في القرآن الكريم.

بعد هذه الجولة السريعة في هذه الآيات العظيمة الباهرة، والتي فيها إيضاح وتفصيل جوانب عظمة هذا القرآن العظيم، يحسن التنبيه إلى أمر مهم في أحكام القرآن، وهو ذكر حكم من أنكره أو أنكر شيئًا منه، أو استهزأ به، أو نحو ذلك.

حكم من أنكر شيئًا من القرآن أو استهزأ به:

إن الإيمان بالقرآن الكريم وتصديقه، واتباعه، والانقياد له واجب حتمي وفرض أكيد، كما يجب الإيمان بأنه كلام الله تعالى المنزل على نبيه محمد ﷺ، لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على أن يأتي بمثله أحد أو بمثل آية منه.

ولا ريب أن إنكاره أو إنكار شيء منه، أو القول بأن فيه نقصًا أو نحو ذلك يناقض هذا الإقرار والتصديق، كما إن إنكاره أو الانتقاص منه إنكار لصفة كلام الله، وانتقاص لقدرة الله سبحانه، والواقع في مثل هذا واقع في الزيغ والضلال والإلحاد، ومتعدٍّ لحدود الله، ومشاقٌّ لله ولرسوله، ومخالف لسبيل المؤمنين الذين ثبت عندهم أنه كلام الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، منزل من عنده سبحانه، باليقين القطعي الذي لا ريب فيه.

وقد حكى أهل العلم الإجماع على كفر من أنكر القرآن أو بعضه ولو كانت آية واحدة، أو حرفًا واحدًا.

قال ابن عبد البر رحمه الله: "وأجمع العلماء أن ما في مصحف عثمان بن عفان وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كانوا، هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، ولا تحل الصلاة لمسلم إلا بما

فيه... وإنما حل مصحف عثمان رضي الله عنه هذا المحل؛ لإجماع الصحابة وسائر الأمة عليه، ولم يجمعوا على ما سواه... ويبين لك هذا أن من دفع شيئًا مما في مصحف عثمان كفر"(١).

وقال النووي رحمه الله: "أجمعت الأمة على وجوب تعظيم القرآن على الإطلاق وتنزيهه وصيانته، كما أجمعوا: على أن من جحد منه حرفًا مجمعًا عليه، أو زاد حرفًا لم يقرأ به أحد، وهو عالم بذلك فهو كافر"(٢).

وكذلك من استهزأ بآيات القرآن سواء استحل ذلك أو لم يستحل، فمجرد الاستهزاء ردة عن الدين بإجماع علماء المسلمين، ولو لم يقصد حقيقة الاستهزاء، كأن يكون مازحًا أو هازلاً.

وقد أجمعت الأمة على كفر من استهزأ بالقرآن العظيم، أو بشيء منه، ولو كانت آية واحدة.

قال القاضي عياض رحمه الله: "اعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه أو سبهما أو جحد حرفًا منه أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر أو أثبت ما نفاه أو نفي ما أثبته وهو عالم بذلك أو يشك في شيء من ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين"(٣).

وقال الإمام النووي رحمه الله: "وأجمعوا على أن من استخف بالقرآن، أو بشيء منه... أو كذب بشيء مما جاء به من حكم أو خبر أو نفى ما أثبته أو

---

(١) ينظر: نواقض الإيمان القولية والفعلية (ص:٢٠١-٢٠٢).

(٢) المجموع شرح المهذب (٢/ ١٧٠).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص:١٦٤).

أثبت ما نفاه أو شك في شيء من ذلك وهو عالم به كفر"(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: "ثم إن خرجه مخرج الاستخفاف بالقرآن، والاستهزاء به، كفر صاحبه"(٢).

وكذا القول بتحريف القرآن أو أن له تأويلات باطنة أو نحو ذلك، وأجمع أهل الإسلام على أن القول بتحريف القرآن كفر مخرج من ملة الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: "وكذلك من زعم منهم أن القرآن نقص منه آيات وكتمت أو زعم أن له تأويلات باطنة تسقط الأعمال المشروعة ونحو ذلك، وهؤلاء يسمون القرامطة والباطنية، ومنهم التناسخية، وهؤلاء لا خلاف في كفرهم"(٣).

أيها القارئ الكريم!

أسأل الله أن تكون هذه الآيات التي مرَّت قد زادتك يقينًا بعظمة هذا القرآن، وفتحت لك آفاقًا في أوجه العظمة والمعجزات الخالدة للنبي ﷺ.

أسأل الله ﷻ أن نكون من أهل القرآن وخاصته، وأن ينفعنا وإياكم إنه سميع مجيب الدعاء.



(١) المجموع شرح المهذب (٢/ ١٧٠).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية (ص:٥٧٨).

(٣) الصارم المسلول (ص:٥٨٦).



فهرست
الموضوعات

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة